المجتمع المصرى
بين الثابت والمتغير

د. عبد المنعم ابراهيم الجميعى
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر

القاهرة
٢٠٠٧م

مقدمة:

يعد الشعب المصرى من أكثر شعوب العالم محافظة على عاداته وتقاليده، فعلى الرغم من الغزوات التى تعرضت لها مصر، وبالرغم من تعاقب الأجناس المختلفة عليها فإن الغزاه وغيرهم لم يستطيعوا التأثير فى هذه العادات والتقاليد بل غالبا ما انصهروا فى سكان البلاد الأصليين، واستطاع الشعب المصرى فرض حضارته على غزاته وجعلهم يذوبون فى بوتقتها وتمكن المصريون من التمسك بمصريتهم ولم يتأثروا كثيرا بالعادات الدخيلة، فالإنسان المصرى لا يزال يشبه أجداده تمام المشابهة فى طريقة معيشته وفى العادات التى يزاولها والتقاليد التى يسير عليها فهى مصرية فى شكلها وروحها، ترتبط معظمها ارتباطا وثيقا بما خلفه لنا الأجداد بالرغم من الجو العاصف من الآراء والنزعات الجديدة والمخترعات الحديثة التى تلتف حول حياة المصريين.

وعلى الرغم من أن معجزة الإنسان المصرى تتركز فى أنه صانع حضارة، وأنه من أمه أتت فى فجر الإنسانية بمعجزة الأهرام، وأنه لم يعجز عن الإتيان بمعجزة أخرى إذا توفرت له الظروف المناسبة خاصة وأنه يحمل رواسب تجارب آلاف السنين فان معظم صفحات تاريخه التى تعرضت لحياته لم تتطرق سوى لصورته فى مشاكله وبؤسه وذله ومحنه وشقائه وجهله، مع أن هذا الشعب الذى يظنه البعض جاهلا يبرز فيه من أبنائه فى أوقات المحن فى كثير من الأوقات من يوقظ الأمل ويحيى راية الكفاح وهذا يفسر لنا تلك اللحظات من التاريخ التى تظهر فيها مصر وهى تطفو فوق المحن بحثا عن الحياة الحرة الكريمة.

حقيقة لقد عرف الإنسان المصرى فى حياته الشدة والآلام والاضطراب والخراب، وشعر بقرصة الجوع واستعصت عليه أحيانا لقمة العيش ، وذاق حكم الأجنبى على كل لون لدرجة يمكن معها القول أن مصر ليست أقدم الأمم حضارة فحسب بل هى من أكثر الدول معاناة للمحن، ومع ذلك فإن هذا لا يعنى أن نهمل أوقات رخاء المصريين القليلة التى يمكن أن تمثل قسطا يسيرا من الحياة المصرية الحقيقية، كما لا يمكن ان نهمل دور هذا الشعب الضاحك الباكى فى مواجهة ما تعرض له من متاعب، وكيفية لجوئه إلى روح التفاؤل والسماحة، ودور الأدب الشعبى فى حياته فى كثير من الأحيان بصفته المتنفس الوحيد للتعبير عما يدور فى نفسه وبصفته أيضا أداة لحماية القومية المصرية من الذوبان فى الموجات الخارجية الدخيلة على مصر، ومن أجل ذلك فان المؤرخ الواعى يستقى غالبا مادته من حياة.

هذا الشعب، ويدرس ماذا كان يقول، وكيف كان يعيش، وما هى حكاياته وأقاصيصه التى تعبر عن مظاهر حياته الروحية والعقلية، وما هى الأوجاع والأسقام التى عانى منها، وما هى الأمراض الاجتماعية التى عشعشت عليه، وما هى أنجح الطرق التى مورست لعلاجها.

وفى هذه الدراسة التى نحاول فيها وضع العربة قبل الحصان خاصة وأن أغلب خيولنا قد بلغت فى الكبر عتيا، نسعى وراء الجذور سعيا وراء المنابع الأصيلة للشخصية المصرية وان نعرض مجموعة الظواهر الاجتماعية والفكرية المتشابكة التى تصور المجتمع المصرى بطبقاته الاجتماعية المتباينة، وطاقاته البشرية المتنوعة، والتى تعبر عن معالم الحياة المصرية من عادات وتقاليد وأعراف موغلة فى العراقة والقدم والتى ظلت تتناقلها الأجيال عبر القرون وتتمسك بتلابيبها لدرجة جعلت المجتمع المصرى بنيله ومواويله وطرائفه وقصصه الضاحكة والباكية وأهراماته وكنائسه ومساجده باقيا، وقد يرجع السبب فى ذلك إلى أن الكثير من هذه العادات ترتبط إلى حد كبير بتراث المصريين وربما يصل بعضها إلى عصور الفراعنة، كما ترتبط بقيمهم الدينية ، وعقائدهم السماوية سواء كانت المسيحية أو الاسلام ومن أجل ذلك ظلت القيادة الفكرية والاجتماعية فى مصر حتى نهاية القرن التاسع عشر مقصورة على رجال الدين الذين كانوا موضع احترام وإجلال الناس لدرجة وصلت بالباعة انهم كانوا يرفضون تقاضى ثمن ما يشتريه المشايخ منهم، كما كان الراكب على بغلته ينزل عنها إذا مر أمامه فى الطريق أحد المشاريخ، ويدعوه إلى الركوب عليها بدلا منه.

وإلى جانب ذلك فقد جمع الانسان المصرى فى معظم مراحل تاريخه بين دينه ودنياه، فظل يؤمن بالقضاء والقدر والثواب والعقاب دون أن يجد صعوبة فى الاندماج مع دنياه لذلك نجده يربط فنه وصناعته وحياته بالنواحى الدينية، ومن هنا يصعب التفرقة فى سلوكه بين ما هو روحانى وما هو مادى، فالمصرى مهما نزلت به النوازل، يستخدم السخرية كسلاح فى مواجهة المصاعب التى يتعرض لها، ويلجأ إلى النكتة لتخفيف معاناته، وإلى جانب ذلك فإنه يأمل فى الفرج بعد الشدة، وما أعمق الكلمات التى تتردد على لسان الناس خاصة فى الأحياء القديمة مثل كلمة "الفرج" فهو لم ييأس يوما واحدا من رحمة مفرج الكروب، كما أنه فى عز أفراحه يخشى ما يخبئه القدر لذلك يتردد على لسانه دائما "اللهم إجعله خير" ومعنى ذلك أنه لا ينسى البأساء فى السراء، ولا يفقد الأمل مهما عز عليه مؤكدا بأنه فى الليلة الظلماء ينفلج البدر.

كما يجد من يدرس عادات الناس اليومية فى الأحياء الشعبية ان هناك من الأمثال وطرق الحوار ما يعبر عن لغة شعب متدين ومسالم، فما زلنا نسمع من الباعة وغيرهم هناك لغتهم السمحة المهذبة فى النقاش مع الآخرين فعندما يفاصل الزبون فى سعر سلعة ما، ولا يعجب ذلك صاحبها يقول له: "يفتح الله" ومعناها السعر الذى تعرضه غير مقبول، أو "صلى على النبى" أى فلنبدأ الفصال، أو "يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم" بمعنى أول القصيدة كفر أو بعدها وياك" أو "اتوكل على الله" بمعنى أغرب عن وجهى، وعندما يمر انسان علىَ شخص يتناول الطعام يقول له "باسم الله" أى تفضل وشاركنى لقمتى. وإذا أقلقت شخص فكرة اثيمة او تذكر شر إرتكبه يصيح متنهدا "استغفر الله العظيم"، وكثيرا ما يشغل التاجر نفسه فى مكان عمله بالتسبيح وقراءة القرآن، وفى كثير من الأحيان يقسم بالله ورسوله وبرأس مخاطبه ولحيته، وعندما يتعاقد إثنان على بيع أو شراء شئ يتلوان الفاتحة معا.

وهكذا كان الإيمان القوى فى النفوس هو الركيزة الأساسية التى اعتمد عليها المصريون فى التقرب إلى الله خاصة وأن المساجد والكنائس لعبت دورا مهما فى نفوسهم حيث وجدوا فيها الطمأنينة النفسية وراحة البال التى يتوقون إليها فيفرجون عما فى نفوسهم من الكروب والهموم وإلى جانب ذلك فالإنسان المصرى يتسم غالبا بالكرم وحسن الضيافة والآلفة والمرح كما أنه من أهل البحبحة والنكتة والابتسامة والإقبال على المسرات وغالبا ما ينزع إلى كل مباهج الحياة ومتاعها، كما أنه مغرم بأغانى الحب وألحان الصبابة يضاف إلى ذلك أنه قصاص بالفطرة، ولا يكتفى فى ذلك بحقائق الحياة وحدها بل غالبا ما يهيم بخياله بحثا عن الخوارق، وجريا وراء المغالاة[1]، وقد تناقلت الأجيال المصرية عبر القرون تلك العادات والتقاليد وظلت محافظة عليها، ولم يستطع البؤس أن يغلبها، كما لم يستطع الحكام الظالمون القضاء عليها.

وظلت أحوال المصريين تحكمها قوالب ثابتة يتمسك الدين بتلابيبها حتى جاءت الحملة الفرنسية على مصر فى عام ١٧٩٨م وتم التعرف على الحضارة الأوربية بثقافتها العلمية فكانت نقمة على المصريين ولكن فى طيها نعمة، حيث أحدثت ما يشبه الصدمة والدهشة للمجتمع المصرى، وساعدت المصريين على الشعور بأنفسهم والتطلع لآفاق أخرى من المعرفة وضروب جديدة من العمران.

---

(١)ادوارد لين: المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر- ترجمة عدلى طاهر نور ، ص ٢٠٢.

ثم جاء عصر محمد على الذى برز فيه الصراع بين القديم والجديد على أشده خاصة بعد الانفتاح على الغرب وإيفاد البعثات العلمية إلى أوربا وافتتاح المدارس الحديثة واستجلاب الأوربيين من الخارج للاستفادة من خبراتهم فى شتى التخصصات ثم محاولة التوفيق بين الأصيل الموروث والجديد الوافد. وكان ذلك بداية مرحلة مثمرة من التجديد الشامل فى نواحى عديدة وإلى دخول وسائل المدنية الحديثة ثم جاء عصر اسماعيل حاملا معه التدخل الأوربى مما جعل حياتنا تصاب بفصام خطير، فظهرت فئة تنادى صراحة بالتجديد وبدأت فى تجديد سلوكها الحياتى فقلدت الأوربيين فى مأكلهم وملبسهم وسكناهم، ولكن تأثيرها كان قليلا، فكانت كنقطة الزيت فى قدح الماء لا تندمج فيه مهما تحركت فى أرجائه، ومع ذلك فقد ظلت تراقب ثقافة العصر وتطوراته ، أما المحافظون الذين اشتدت قبضة التقاليد على رقابهم فقد لاذوا بالتراث والثوابت الأبدية فرضوا العلوم العصرية رفضا باتا، واعتبروها بدعة من عمل الشيطان، وخروجا على الميراث الذى تسلمه المصريون من أسلافهم، ولذلك دعوا إلى التمسك بتراث الأجداد والسير على منواله حتى يسرى فى الحياة كسريان الزيت فى الزيتونه وهؤلاء كانوا الأغلبية الذين ظلت حياتهم امتدادا للعصور الوسطى وللعصر العثمانى، وهؤلاء وهؤلاء كانوا لا يروى من الألوان إلا الأبيض والأسود مع أنه بين النقيضين درجات ودرجات، لذلك كان من الصعب أن تلتقى ثقافتان بينهما من الاختلاف أكثر ما بينهما من التقارب كل ذلك أدى إلى انشطار المجتمع المصرى إلى قسمين، وظهور ثنائية فكرية بين المصريين فظهر نوعان من التعليم المدنى والدينى، وظهرت المحاكم المدنية بجانب الشرعية وهكذا وظل الخلاف محتدما بين أنصار تبنى الحضارة الغربية وأنصار التمسك بالتراث والأصول والثوابت والقيم الشرقية، وكان لابد من إيجاد صيغة أخرى يجتمع فيها العنصران ويتفاعلان معا ولكن ذلك التفاعل كان قد استعصى لفترة وسارت كل من الثقافتين فى طريقها خاصة وان شواهد التاريخ الفكرى تؤكد على أن الثقافة الوافدة لا تتفاعل مع الثقافة الأصيلة إلا إذا كانت هناك عناصر متشابهة فى بعض الوجوه، ومن أجل ذلك استعصت حركة التحديث لفترة وأصبحت هناك حاجة للمواءمة بين ميراث الأجداد وثوابته الأبدية وبين الجديد الوافد الذى يدور حول محور التطور، خاصة وأن القوى الانتاجية لم تعد قاصرة على النول البلدى والمحراث القديم بل أصبحت تعتمد على القوى الكهربية والآلات المركبة والمصانع ذات الإنتاج الغزير .

لذلك وجب أن يلتمس المصريون لأنفسهم طريقا – يجمع بين الموروث والوافد خاصة وأن ماكينات الحياة قد دارت بتروسها وعجلاتها نحو التغيير والتطور، ولم يعد العصر عصر جمود وركود وثبات وإنما عصر حركة وتطور وتغيير، كما أن إحياء قيم الماضى وضرورة سريانها فى جسم الحياة الحاضرة أصبح ضروريا للحفاظ على الهوية، وحلقة تربط الماضـــى بالحاضر، لذلك كان لابد من ايجاد محاولة لصياغة قوالب العصر بما يـــتلاءم مـــع ثقافتنـــا الموروثة خاصة وان ثقافتنا كانت فى حاجة إلى الاستفادة من الثقافة الوافدة والايغال فى دنيا العلوم على اختلافها ولكن الفرق كان لا يزال بعيدا بين ثقافة أقيمت على افتـــراض وجـــود ثوابت أبدية وثقافة أخرى تنبع من التطور والبحث عن كل جديد وفيما يلى نعرض لأوضـــاع المصريين فى ظل الصراع بين الثابت والمتغير.

د. عبد المنعم الجميعى
القاهرة – المهندسين
فى أول ديسمبر ٢٠٠٦

أولا: أوضاع المرأة المصرية فى ظل الصراع بين الثابت والمتغير

على الرغم من أن المرأة المصرية تعد امتدادا لتاريخ عريـــق حققــت فيـــه مكانـــه اجتماعية مرموقة خاصة وأنها كانت من أوائل النساء فى التاريخ التى مسكت بالقلم والأوراق والدواة والقرطاس لتكتب وتقرأ وتتعلم فإن قيود العادات والتقاليد التى كبلتها فى بدايات العصر الحديث جعلتها تعيش فى عصر الحريم فظلت حبيسه "الحرملك" لا تخرج منه سوى مـــرتين مرة من منزل والدها إلى بيت زوجها ومرة أخرى إلى قبرها، وكانت لا تؤدى أى دور فـــى الحياة العامة، كما كانت محرومة فى أغلب الأحوال من أى مصدر يؤهلهـــا لكســـب العـــيش بطريقة مستقلة عن الزوج، كما كان ينظر إليها على أنها أداة من أدوات متعه الزوج، وكـــان أعظم أمانيها أن تنجب الأطفال وتصبح أما، وأن تكثر من إنجاب الأطفال كيلا يطيـــر منهـــا زوجها وكان أغلبهن يشتكين من التخمة وعسر الهضم نظرا لإكثارهن من تنـــاول الأطعمـــة الدسمة مع قلة الحركة. وبالرغم من انتشار الجهل والخرافات بين النساء لدرجة أصبحت معها المرأة لا تؤمن إلا بالجن ولا ترتاح إلا بالأحجبة والتمائم التى تكتب منعا للعفاريت، وإقامـــة حلقات الزار وكشف الغيب بقراءة الكف وفناجين القهوة وزيـــارة أوليـــاء الله الصـــالحين[١]، ووعدهم بتقديم النذور إذا تحققت أمنيتهن ولجوء بعض الأمهات إلى السحر والحيل المختلفـــة لضمان الزوج الذى عليه العين لبناتهن فان هذه الأوضاع الإجتماعية بدأت فى التغيير تدريجيا مع المتغيرات السياسية التى طرأت على مصر. فموضوع الحجاب وقضاء الساعات الطـــوال خلف المشربيات، لمشاهدة المارة دون أن يتمكن الرجال من رؤيتهن[٢]، وفكرة تعلـــيم الفتـــاة والدعوة إلى دخولها معترك الحياة كانت من القضايا التى أثيرت على استحياء خاصـــة بعـــد عودة بعثات محمد على من أوربا حيث حظيت هذه القضايا باهتمام كبير خاصة بعد أن رأى المبعوثون المركز الذى بلغته المرأة الأوربية بعد أن نالت قسطا من التعليم فحملوا ذلك إلـــى وطنهم، وتمنوا للمرأة المصرية مركزا شبيها لها فقام رفاعة الطهطاوى وعلى مبارك بالدعوة إلى تعليم المرأة خاصة وأن الإسلام شرع لها هذا الحق. ولم تأت هذه الدعوات ثمارها سوى فى عصر الخديوى اسماعيل إذ تكونت فى ٢١ مارس ١٨٦٧ لجنة للنظر فى شـــأن إنشـــاء

---

(١)احمد خاكى: المرأة فى مختلف العصور. ، ص ١١٤.
(٢)ستانلى لين بول: سيرة القاهرة – ترجمة حسن ابراهيم وآخرون، ص ٣٥- ٣٦.

مدارس للبنات وافتتحت أول مدرسة لهن فى ١٨٧٣/٨/٣ باسم "مدرسة السيوفية"[١]، واستمرت الدعوة لتعليم المرأة قائمة حيث حملها بعد ذلك "جمال الدين الأفغانى" وتلاميذه أمثال "الشيخ محمد عبده" و"عبد الله النديم" ولكن الأمور لم تلبث أن تعقدت فى الفترة الأخيرة من حكم إسماعيل.

وأوشكت الدعوة إلى تعليم المرأة أن تخمد نتيجة للأزمة المالية التى حاقت بمصر، ثم جاءت الثورة العرابية وأعقبها الاحتلال الإنجليزى فتباطأت هذه الحركة فى مسيرها، وشغل المصريون بمشاكلهم وتعثر تعليم الفتاة فى خطاه، فلم تفكر الحكومة فى رفع تعليم الفتاة إلى أبعد من مقرر الشهادة الابتدائية وبعض القشور بمدارس المعلمات.[٢]

ولم تلبث الأمور أن تغيرت حيث شاء القدر أن يهيئ للمرأة انصارا كان على رأسهم "قاسم أمين" الذى كانت دعوته إلى تحرير المرأة بمثابة الصحوة الكبرى واحدى ثمرات العصر الذى عاش فيه، فقد ارتبطت دعوته بتحرير المرأة من قيود الجهل، فنادى بضرورة تعليم المرأة وإزالة النظم العتيقة التى قيدت حريتها وهبطت بمكانتها حتى يمكنها النهوض بمسئولياتها تجاه نفسها ومجتمعها، وتكون قادرة على مواجهة مشكلات وضرورات الحياة لأنه لا سبيل إلى نهوض البلاد إلا بإصلاح أحوال الأسرة بما فيها من رجال ونساء.

وعلى الرغم من أن دعوة قاسم أمين سارت سيرا بطيئا شأنها فى ذلك شأن كل حركات الاصلاح الاجتماعى حيث ظلت المرأة المصرية ترتدى البرقع والحبرة وتعانى من الأغلال التى كبلها بها المجتمع فان هذه الدعوة قد مهدت الطريق للنهضة النسائية التى حدثت فى مصر بعد ذلك فعندما افتتحت الجامعة المصرية القديمة فى ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ وطرحت فكرة تعليم المرأة وتثقيفها رأى بعض القائمين على أمرها الأخذ بيد المرأة المصرية والإرتقاء بها علميا وأدبيا، ومن أجل ذلك أنشأت الجامعة فى عام ١٩١٠ "فرعا نسائيا" لتدريس محاضرات خاصة بالسيدات تركزت فى أول أمرها على الحياة الزوجية والأسرية والمنزلية وبعض موضوعات فى التربية وعلم النفس.

ولكن هذه التجربة لم يقدر لها الدوام فمع أن معظم هذه المحاضرات كانت تلقيها نساء فقد ثارت ثائرة المحافظين وتجمع الرجال أمام الجامعة للتعرض للنساء، ومنعهن من

---

(١) تغير اسمها بعد ذلك إلى المدرسة السنية وللتفاصيل انظر
أحمد شفيق: أعمالى بعد مذكراتى، ص ٣٥٢.

(٢) الهلال: مجلد ١٩٣٧، مقال للاستاذ يوسف مظهر بعنوان تعليم الفتاة بين الأمس واليوم، ص ٧٠١- ٧٠٤.
وانظر أيضا:
- عبد المنعم الجميعى: عبد الله النديم، ص ٣٨٢- ٣٨٣.

الحضور، كما أرسلوا خطابات تهديد بالقتل إلى "عبد العزيز فهمى" سكرتير الجامعة[١]، عندما أرسل خطابات بالبريد إلى نساء الطبقة الراقية يدعوهن للحضور للالتحاق بالجامعة، مما أدى إلى إيقاف التدريس بالفرع النسائى بالجامعة عام ١٢- ١٩١٣.[٢]

وظل الحال على هذا المنوال فترة طالت إلى ما بعد أن أصبحت الجامعة تابعة للحكومة فعلى الرغم من حصول بعض الفتيات على البكالوريا التى تؤهلن للالتحاق بالجامعة فان أبواب الجامعة كانت مغلقة فى وجوههن، ولولا مساندة بعض قادة الفكر من الرجال فى ذلك الوقت أمثال أحمد لطفى السيد وطه حسين لما تحققت للمرأة فرصة التعليم الجامعى.[٣]

وقصة ذلك أنه عندما تقدمت خمس فتيات حصلن على البكالوريا للالتحاق بالجامعة الحكومية لم يكن الأمر سهلا فعندما عرض الدكتور طه حسين على لطفى السيد مدير الجامعة وقتذاك قبول الطالبات فى الجامعة، سأله لطفى السيد هل قانون الجامعة يمنع دخول البنات أجابه بأن القانون يقول إن الجامعة للمصريين ولم يحدد النوع[٤]، وخشية من لفت نظر المعارضين لهذا الأمر، واعتراضهم عليه لم يعرض مدير الجامعة على الحكومة السماح بقبول الفتيات فى الجامعة بل عمد إلى طريقة التريث والتكتم وعدم إبراز الموضوع أمام الرأى العام حتى لا يتعرض الأمر للمعارضة فأصدر تعليمات إلى سكرتارية الجامعة تقضى بتسجيل كل طالب يحمل شهادات دراسية تؤهله للتعليم العالى دون إشارة إلى جنسه كذكر أو أنثى وبهذه الطريقة قبلت الفتيات فى الجامعة فى غفلة من المتشددين. [٥]

وعلى أى حال فقد كان هذا الإجراء بمثابة ثورة فكرية وتعليمية أحدثت ضجة شديدة فى أوساط المحافظين الذين شعروا بان هذا الحدث الجديد الذى يتزعمه لطفى السيد مدير الجامعة ويناصره فيه بعض الأساتذة أمثال طه حسين قد أجبرهم على ما لا يريدونه فأخذوا يتربصون بالجامعة فى محاولة منهم كى تتراجع عن موقفها. وبعد دخول الفتاة الجامعة عملت على إثبات وجودها وإيضاح أنها لا تقل قدرة وكفاءة عن الرجل، فقد أثبتت خريجات الجامعة من الفتيات القدرة على منافسة الرجال فى الحصول على الدرجات العالية وتولى المناصب الأكاديمية فى الجامعة نفسها[٦]، تم إيفاد الفتيات فى بعثات إلى الخارج[٧].

---

(١) عبد المنعم الجميعى: الجامعة المصرية القديمة، نشأتها ودورها فى المجتمع ١٩٠٨ ـ ١٩٢٥، ص ٤٦.
(٢) الجامعة المصرية بتقرير مجلس الإدارة المقدم للجمعية العمومية بجلستها المنعقدة بدار الجامعة فى الثلاثاء ٢٩ ابريل ١٩١٣ ص ١٢.
(٣) للتفاصيل انظر، بحثنا المرأة المصرية والتعليم الجامعى بحث ضمن مؤتمر مائة عام على تحرير المرأة، جـ١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة ١٩٩٩، ص ٥٦٨.
(٤) عبد المنعم الجميعى: المرأة المصرية والتعليم الجامعى، بحث سبق ذكره، ص ١٠٦.
(٥) درية شفيق وابراهيم عبده: تطور النهضة النسائية فى مصر، ص ٨٥- ٨٦.
(٦) الجميعى: المرأة والتعليم الجامعى، ص ١١١.
(٧) الهلال، ١٩٣٧، مقال سابق، ص ٧٠٤.

وفى أعقاب ذلك كان لزاما على الفتيات الدخول فى معركة أخرى وهى الحصول على وظيفة والخروج إلى معترك الحياة العملية والخوض فى كافة مناحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى مصر، والتجاوب مع حركة تجديد المجتمع والتفاعل معها، والمساهمة فيما يصبو إليه الوطن من آمال. (١)

وعلى أى حال فبالرغم من كل العواصف والاحتجاجات الصاخبة والحملات العنيفة للمعارضين لتعليم البنات فقد دار الزمن دورته، وتهيأت الأذهان لقبول فكرة تعليم المرأة، وأصبح مبدأ تعليمها مستقرا فى المجتمع المصرى قبله الجميع حتى غلاه المحافظين، وتساوى الرجل والمرأة فى كل فروع التعليم، واشتركت البنات مع البنين فى التعليم، وأصبح التعليم المشترك فى الجامعات وغيره سمة بارزة فى حياة المجتمع المصرى، فضمت الجامعات بين جدرانها مئات الآلاف من الطالبات خاصة وأن ثورة يوليو ١٩٥٢ جرفت فى محاولتها تغيير وجه المجتمع المصرى اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا تلك التقاليد والأعراف التى أوقفت حركة تطور المجتمع المصرى لفترة غير قصيرة، وانتهى زمن "سى السيد"(٢)، الذى كان سائدا بين المصريين خاصة بعد أن نجحت المرأة المصرية إلى حد كبير فى كسر التبعية الاقتصادية للرجل والتى ألقت بظلالها على حساب الأسرة المصرية، فخرجت للعمل وكسب الرزق، ومع ازدياد أعباء المعيشة اصبح الرجل يفضل المرأة العاملة، ولكن السؤال المطروح هو : "هل كانت العلاقة الزوجية بين الرجل والمرأة أكثر هناء قبل عمل الزوجة أم بعده، وهل كانت حياة الرجل مع أسرته أكثر استقرارا واطمئنانا منه الآن(٣)؟ الواقع أنه لكى تستمر مسيرة المرأة فى المحافظة على حقوقها يتحتم عليها أن تثبت جدارتها فى الموازنة بين أمورها فى البيت والعمل، وعلى أى حال فإن المشكلة الحالية التى تتعرض لها المرأة هذه الأيام هى ارتفاع نسبة الأمية خاصة بين النساء فى الريف مما يؤثر سلبا على أوضاع المرأة ويعوق مسيرتها، وهذا يستلزم إعطاء دفعة كبيرة لمحو أميتها ورفع مستوى تعليمها حتى تتمكن من القيام بدورها الفعال فى خدمة وطنها، وحتى تستطيع الحصول على حقوقها الاجتماعية كاملة ولا تعود العجلة إلى الوراء مرة أخرى.

---

(١) انظر: بحثنا المرأة والتعليم الجامعى، سبق ذكره، ص ٥٧٢- ٥٧٤.
(٢) بطل ثلاثية نجيب محفوظ، وكان مسيطرا على زوجته أمينة المسكينة المستسلمة لإدارها.
(٣) جلال أمين: ماذا حدث للمصريين، ص ١٥٢- ١٥٤.

ثانيا: ملابس المصريين وما طرأ عليها من تغيرات

ظل المجتمع المصرى يتمسك بطابع المحافظة على عاداته وتقاليده كما ظل ينظر إلى تراث أجداده نظرة الاحترام والتقدير حتى جاء عصر محمد على، وتم ارسال البعثات العلمية إلى أوربا، ورأى المبعوثون الملابس الأوربية وما فيها من ابتكارات وأذواق جديـدة، ولمـا عادوا إلى مصر لم يجرؤ معظمهم على استبدال ملابسه بالملابس الأوربية، ومن حاول فعـل ذلك وجد تعنيفا من محمد على اضطره إلى العدول عن تقليد الأوربيين والعودة إلى ارتـداء الزى المصرى وظل المصريون يتمسكون بزيهم الوطنى حتى واجهت المجتمـع المصـرى بعض التطورات التى أدت إلى تغيير الزى الوطنى واستبداله بزى آخر وفيما يلـى نعـرض ذلك.

١-غطاء الرأس من العمامة إلى الطربوش والقبعة:

دخلت العمامة مصر على يد الفتح الاسلامى واتصلت بالروح الدينية منذ دخولها ومن يتأمل بدايات تاريخنا الحديث يرى أن أول من صاغ الفكر المصرى كانوا شيوخا لم يتخلـوا عن العمامة، ولا عن الجبة والقفطان وأنهم رغم تمسكهم بأصول الحياة الشرقية، وحرصـهم على سالف العادات، وأصالة التراث فقد كانوا رواد تحرر، وقادة حركـات وطنيـة وتجديـد ويمكن أن نذكر من هؤلاء "عمر مكرم" نقيب الأشراف، و"رفاعة الطهطاوى" ناظر مدرسـة الألسن، و"جمال الدين الأفغانى" المصلح الدينى والزعيم السياسى، و"الشيخ محمد عبده" مفتى الديار ومحرر جريدة الوقائع المصرية، و"عبد الله النديم" خطيب الثورة العرابيـة وكاتبهـا، و"عبد العزيز جاويش" محرر جريدة اللواء، وغيرهم من قادة الفكـر والأدب والفـن الـذين ساعدوا على تغيير نمط الحياة وأحدثوا ضجة واسعة فى الفكر المصرى الحديث .

وكانت العمامة وقتذاك موضع الاحترام والإجلال، وكان الناس يطلقون عليهـا تـاج الإسلام لدرجة أن الأغنياء كانوا يصنعون لها كرسى توضع عليه ليلا يسمى "كرسى العمامة"، ولا يستعمل لغير هذا الغرض. ومما يروى عن مدى احترام العامة للعمامة أن أحد المشـايخ سقط من فوق حماره فى أحد شوارع المدينة فتدحرجت عمامته بعيدا عنه، فتجمع المـارون وأخذوا يجرون وراء العمامة صائحين: أرفعوا تاج الإسلام ! أرفعوا تاج الإسلام! بينما كـان الشيخ المسكين طريح الأرض يناديهم مغتاظا انقذوا أولا شيخ الإسلام[1]. وقد اختلفت عمـائم

([1]) ادوارد وليم لين: المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، ترجمة عدلى طاهر نور ، ص ٥٧.

العلماء حسب مراتبهم، فالقضاة وكبار العلماء كانوا يلبسون العمائم الكبار بينما كان صغارهم يرتدون عمائم أقل حجما[١]، وظل للعمامة قدرها بين الناس لدرجة أن محمد على عندما تولى أريكة الحكم كان يلبس العمامة، وظل الحال على ذلك المنوال حتى ارتدى احـد السـلاطين العثمانيين الطربوش محل العمامة وقام محمد على بتقليده. [٢] فحل الطربوش محـل العمامـة عند العديدين، واعتبره البعض تاج السلطان، وشعار الحكم ولباس الجـيش، ورمـز القـوة والبأس، وكان يكفى ان يكون فى المنطقة التى يسكنها العامة أحد لابسى الطربوش فتخضع له الرءوس، فلا يمر أحد أمامه وهو واقف، ولا يتشاجر أثنان وهو موجود، ولا يعرف الناس من وراء بيته شرطة فى قسم بوليس، ولا قضاه فى محكمة، فكان فيه سر القوة الخفية التى تجمعنا حول المعانى الاعتبارية برمز تتمثل فيه تمثل الوطن فى الراية.

واستمر الحال على هذا المنوال طويلا، حتى برز التدخل الأجنبى فى شئون مصر فى أواخر عصر الخديوى اسماعيل ثم جاء الاحتلال الانجليزى بعد هزيمة الثورة العرابية فأصبح للقبعة امتياز على لابس الطربوش، لأنها كانت وقتذاك شارة التفوق والغلبة والثـراء، فكـان يكفى ان نرى الخواجه لنرى الثرى الذى يملك المصارف والمصانع والمتـاجر والشـركات والمقاهى والفنادق، ونرى من ورائه المحاكم القنصلية والمحاكم المختلطة، والتكبر والتـبجح على خلق الله من المصريين وأصبح الطربوش عنوانا على ذلك الإنسان غير المتمدين الـذى افسدت فيه العبودية والجهالة مزايا الانسانية فجعلته شخصا ينكره الآخرون، ووطنيا ينكـره أبناء الوطن، ووريثا يأنف منه التراث.

وظلت القبعة سمة من سمات الأجنبى المتميز بقوته وقدرته وصحوته، كما اعتبرهـا البعض احدى مظاهر التمدن واستمرت الأمور على ذلك حتى قامت ثـورة ١٩١٩ وتمـرد المصريون على تقليد الأجانب، وعادت الدعوات التى تطالب بأن تكون مصـر للمصـريين وبأهمية العودة إلى التراث والتمسك به، وبضرورة انفتاح الطريق أمام ابناء مصر إلى المجد فعاد الطربوش إلى موضعه وأصبح رمزا السمو، وأصبح لحمرته معان من أشـعة شـروق الشمس وأضواء اللهب ودماء التضحية، وترددت الأقوال بأن ضعفنا هو الذى ظلم الطربوش، كما ظلمت اللغة. وان ترك الطربوش لأنه لا يطاول القبعة يمكن أن يدفع البعض إلى التفكير فى هجر اللغة العربية لأن الانجليزية أكثر انتشارا منها، وأن يحتال البعض علـى وضـعه الوضيع بارتداء ثوب شخص عظيم كما هاجم البعض القبعة واعتبرها رمزا لضياع الاستقلال

---

(١) سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص ٢١٠.
(٢) ارتدى محمد على الطربوش المغربى وكان قصيرا فى حجم الطاقية.

ونادى بضرورة ان يطهر الناس رءوسهم منها، حتى ترتفع منزلتهم فى عيون الأخرين، وأن يضعوا عليها طاقية أو لبدة أو أى غطاء شاءوا حتى تقر هيبتهم فى الصدور خاصة وأن قيمة ذلك فى الرأس الذى يحمله والشعب الذى يمثله لا فى أصله ولا فى شكله ولا فى لونه.

والحقيقة أن الطربوش ليس لباسا قوميا، وإنما هبط علينا فى ظل الوجود العثمـــانى، كما أنه ليس لباسا صحيا للرأس[١]. ولكن تمسك بعض المصريين به، واستعدادهم لعدم التخلى عنه مهما كانت الأسباب يرجع إلى عدم رضاهم عن الحماية البريطانية التى فرضت علـــيهم فرضا، ورغبتهم فى التمسك بالأفكار الشرقية أو الإسلامية المتمثلة فـــى الخلافـــة العثمانيـــة وقتذاك والغريب فى الأمر أنه بعد إلغاء الطربوش فى تركيا وتقويض دعائم الخلافة وما كان يحيط بها من مظاهر إسلامية تمسك المصريون بالطربوش لفترة، وأعلنوا استعدادهم إلى عدم الرغبة فى التنازل عن طربوشهم إحساسا منهم بعامل من الوطنية الممتزجة بالروح الدينية.

وبعد أن تكشفت عوامل النهضة التى كانت كامنة فى نفوس المصـــريين، وحصـــلت مصر على الحياة النيابية فى ظل دستور ١٩٢٣ وسمعت آذان المصريين جميعا مبادئ الحرية يرن صداها فى ظل الدستور عادت الأحاديث تتردد عن القبعة والطربوش فطالـــب الـــبعض بالقاء الطربوش فى حضيض الغياهب وتزيين الـــرءوس بالقبعـــات خاصـــة وأن الدســـتور المصرى أطلق حرية الاعتقاد وأباح حرية التعبير، كما حاول البعض أن يثبت أن وضع القبعة على رأس الانسان المصرى تهتك أخلاقى وسياسى ودينى، وان الذين لبسوها لم يلبســـوها إلا مجاملة للأجانب ورغبة فى التقرب منهم، وان فى ذلك تمزيـــق للعـــادات الشـــرقية وتهتـــك للأخلاق الكريمة، وتقليد أعمى مخالف للدين.[٢]

وإلى جانب ذلك فقد ظهر رأى آخر ينادى بالعودة إلى ما كان المصـــريون القـــدماء يحملونه على رؤوسهم من لباس للرأس وظل الجدال بين أنصار الطربوش وأنصار القبعـــة، ولكل فريق منهم أدلته وحججه الجديرة بالنظر والتأمل حتى قامت ثورة يوليو ١٩٥٢ وتغيرت الأوضاع والمفاهيم، فلم يحمل الإنسان المصرى على رأسه طربوشا أو قبعة.

٢- ملابس المصريين من السروال والجلباب إلى القميص والبنطلون:

اختلفت ملابس المصريين فى عصر المماليك وتباينت حسب مكانة الشخص ومركزه الاجتماعى حتى أصبح من السهل تحديد الطبقة الاجتماعية أو المهنة لأى شخص من ملابسه

---

(١) محمود عزمى: لماذا لبست القبعة: مقال بالهلال الماسى السنة الخامسة والسبعون، ص ١٣٣- ١٣٧

(٢) مصطفى صادق الرافعى: لماذا استمسك بالطربوش. مقال بالهلال الماسى السنة الخامسة والسبعون، ص ١٢٩- ١٣٢.

فقد ارتدى العامة السراويل الواسعة المربوطة حول أسفل الساقين وعلى صدورهم صـــديرى فوق قفطان أو جلباب.

أما عن الفلاحين فقد كانت ملابسهم عبارة عن جلاليب زرقاء، وعلى رءوسهم اللبــد الصوف. [١]

وكان لهذه الملابس قواعد وأصول ترتبط بالذوق وإن كانت الملابس الزاهية هى أكثر الألوان التى تحظى بالقبول وكان الخياط يصنعها من الصوف أو الكتان أو الأقمشة القطنية.

وبالنسبة لملابس الطبقة العليا والصفوة من أبناء البلاد فكانت عبارة عن قفــاطين[٢]، وجبب[٣]، وعباءات كان بعضها يستخدم فى الشتاء وبعضها فى الصيف وكــان يختــار لهــا الأقمشة المناسبة طبقا لحرارة الجو وكانت أقمشة القفاطين تصنع من الحرير الطبيعى الــذى كان يباع بالميزان وليس بالأمتار.

وكانت الجبب تصنع من الصوف والعباءات تصنع من الجوخ[٤]. وبالنسبة لملابــس النساء فإنها وإن لم تظل فى شكلها على حال واحد لكثرة التغيير حسب الموضة، فقد عرفــت النساء المصريات الفستان الماكسى الطويل كما عرفت موضة الفستان القصير، وقد اختلفــت ملابسهن حسب طبقة كل منهن.

فنساء الطبقة الراقية تميزن عن سائر النساء بما تجمع ملابسهن على تنوعهــا مــن أسباب الزخرف والزينة والتبرج من زركشــة بالــذهب والحريــر والكشــمير ذى الألــوان الساطعة.[٥]

وكانت ملابسهن عبارة عن قميص واسع طويل فضفاض كما كانت ترتدى الشــنتيان وهو عريض يربط عند الخصر وفوق ذلك القميص إزار يغطى جميع جسدها وحزام عبــارة عن شال كشميرى يحيط بالوسط وعند الخروج ترتدى الجبة لتغطى الملابس السابقة.

أما عن لباس الرأس فكان يتكون من طاقية حمراء محاطة بغلالات شفافة ينسدل منها مجموعة من الشرائط والضفائر الحريرية.

وقد حرصت النساء عند خروجهن إلى الطريق إخفاء وجوههن بحجاب أو برقع أسود اللون بحيث لا يظهر من وجوههن سوى العيون من خلال ثقبان. [٦]

---

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك، ص ٢١٠- ٢١٧.
(٢) القفطان عبارة عن رداء مفتوح من الأمام بكمين كبيرين.
(٣) الجبة: رداء طويل مفتوح تلبس فوق القفطان.
(٤) عبد المنعم شميس: حرافيش القاهرة، ص ٧١.
(٥) كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر، جـ ١، ص ٦٠٧ – ٦١٢.
(٦) جيرار دى نرفال: رحلة إلى الشرق – ترجمة كوثر عبد السلام، ص ١٢٢.

وبالنسبة لنساء الطبقة الوسطى فكن يرتدين قميصا من الحرير، وحذاء يسمى بالمركوب، أما عن نساء الطبقات الشعبية فكانت ملابسهن أبعد ما تكون عن الاقتراب من الأبهة فى ملابسهن فهن لا يرتدين سوى سروال من فوقه قميص بسيط أزرق اللون واسع وأكمامه طويلة[١]، وهن بوجه عام لا يلبسن أحذية[٢]، وإن كانت أقدامهن مثقلة بالخلاخيل يصدر منها رنين. وبالنسبة للمرأة الريفية فقد كانت تمشى سافره بملابسها السوداء البالية طليقة من غير قيد فلم تعرف الحجاب نظرا لأنها كانت تشارك زوجها فى العمل.

واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى تطورت الأزياء فى عصر إسماعيل فتحولت من الملابس التركية إلى الأوربية وعرف الناس البدلة الأفرنجية، كما تغيرت أذواق الملابس النسائية حيث اشترك اسماعيل لزوجاته ونساء أسرته فى سبع محلات للموضة، فكانت نماذج الأزياء فى مصر والشرق تخرج من قصوره. [٣]

ومع ذلك استمرت محافظة معظم المصريين على تقاليدهم فى المحافظة على زيهم الوطنى حتى العقد الأول من القرن العشرين حيث أخذ ارتداء الجلباب والقفطان والعمامة فى التضاؤل واعتبره البعض زيا بلديا تحقيرا له[٤]، وأخذوا فى ارتداء القميص والبنطلون.

٣-من الحفاء والبلغة إلى الحذاء:

كان المصريون فى الماضى لا يلبسون أحذية، وكان اصحاب اليسار منهم يلبسون البلغة وكان الحفاء من المظاهر المخجلة فى مصر لفترة حتى أن الحكومة أعدت مشروعا فى الأربعينات لمكافحة الحفاء[٥]، ومما يذكر للتندر حول هذا الموضوع أن أفراد فرقة حسب الله الموسيقية كانوا يضعون على رءوسهم الطرابيش ولا يضعون فى أقدامهم أحذية وكان معظمهم يمشون حفاة ومنهم من يضع فى قدميه بلغة أو شبشب. وكان الحل فى هذه المشكلة انهم كانوا يطلون أقدامهم الحافية بالورنيش الأسود حتى تبدو وكأنها حذاء.

لقد كان الحفاء منتشرا بشكل وبائى غريب، وكان الحفاه يمثلون الغالبية العظمى من الشعب المصرى ، وقد يرى البعض أن أسباب الحفاء كانت اقتصادية، ومع وجاهه هذا الرأى فقد كان هناك بعض الأعيان من أهالى الريف يضنون بنعالهم أن تمس الأرض ويضعونها تحت آباطهم ويمشون حفاة.

---

(١) ج. دى شابرول: دراسة فى عادات وتقاليد سكان مصر المحدثين - ترجمة زهير الشايب، ص ١٠٥.
(٢) كلوت بك: مرجع سابق، ص ٦١٤.
(٣) درية شفيق: تطور النهضة النسائية فى مصر، ص ٤٥.
(٤) رونالد ستورس: توجهات بريطانية شرقية - تعريب رءوف، ص ١٢٥- ١٢٦.
(٥) عبد المنعم شميس: حرافيش القاهرة، ص ٢٤.

كما كانت بعض نساء الأعيان يفعلن ذلك ويمشين حفاه، وقد وضعن البلـــغ الســـوداء تحت آباطهن ثم يضعنها فى أقدامهن حين يبلغن المكان الذى يقصدن إليه. (١)

وظل الحفاء داء من أدواء المجتمع حتى أنه أعد مشروع للقضاء على الحفاء وصادق عليه البرلمان وسمى فى ذلك الوقت مشروع مقاومة الحفاء وقد تبنى الملـــك فـــاروق هـــذا المشروع ووعد كل متبرع للقضاء على هذا الداء بمنحه الباشوية أو البكوية كل على حســـب تبرعه. (٢)

ومن أجل ذلك تندر المصريون على كل من حصل على لقب باشا بهذه الطريقة فسموا الباشا الجديد باتا باشا، نسبة إلى مصنع أحذية باتا ونظرا لخشية الفلاح الذى كان يمتلك حذاء من تلفه فكان يربط حذاءه على كتفه، ويمشى حافيا باعتقاده أن حذاءه معرض للاهتـــراء لـــو لبسه دائما بينما جلد قدميه قوى يستطيع مقاومة كل عوامل التقادم والتحلل. وبعد قيام ثـــورة يوليو ١٩٥٢ تغير الأمر تماما وأصبح الانسان المصرى يعتبر ارتداء الحذاء ضـــرورة كمـــا أصبح يتفنن فى اختيار أحدث موضات الأحذية وأشكالها، وأصبح من النادر أن نرى إنســـانا مصريا يمشى حافيا فى الطريق.

(١) شمس، مرجع سابق، ص ١٢٢.
(٢) على الراعى: بين الأدب والسياسة، ص ٤٣.

ثالثا: الريف المصرى بين الثابت والمتغير

استعصت حركة التجديد على جموع أهل الريف لفترة خاصة بعد ان استسلم معظمهم للخرافات والبدع والسحر والشعوذة إلى أقصى حد، وتضخمت أفكـارهم بمعتقـدات باطلـة فأكثروا من حلقات الذكر والاستماع إلى إنشاد شعراء الربابة، وإلى قصص عنترة والزنـاتى خليفة، وعظموا من شأن الأولياء الصالحين، وغالوا فى الاعتقاد فى السحر والعين والحسـد والعفاريت، وأصبحوا مستسلمين قدريين على أشد ما تكون عليه القدرية، يميلون إلى الرضـا بواقعهم، لا إرادة ولا مشيئة لهم، وكأن ما حدث ويحدث لهم مقدر ومكتوب، واللى مكتـوب على الجبين لازم تشوفه العين.[١]

وخلال ذلك كان الفلاح المصرى يعتمد فى حياته على أسـاليب الزراعـة البدائيـة كالمحراث والنورج والساقية والشادوف والمنجل، كما كان يرزح تحت كابوس الفقر والعوز، والعيش فى ظروف معيشية تحرمه من أبسط الاحتياجات الأساسية كالغذاء والكساء والصحة والمسكن والتعليم.

وظل أهل المدينة ينظرون إلى الفلاح المصرى نظرة استعلاء ويرون فيه كما يصفه صاحب "هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف" بانه "شيال الطين" وقد بلغ مـن احتقـار بعض الحكام له أن كلمة فلاح كانت سبة تطلق على الجاهل والبائس والمتوحش والأبلـه[٢]، كما كانوا يعتقدون أن الفلاح لا يصلحه إلا الضرب وان غاية ما ينتهى إليه أمره من رفع الألم عنه ان يعلو صياحه استغاثه بالمشايخ والأولياء. [٣]

وظل الفلاح المصرى ينظر إلى أهل المدينة الذين يعيشون حياة الترف وكأنهم مـن طين آخر وجب عليه إمدادهم بما يزرعه من قمح وفول وعدس وبصل وما تنتجه ماشيته من ألبان دون أن يكون له حظ من المعيشة سوى الفتات فهو يأكـل مـن حشـائش الأرض، ولا يتناول سوى "صنف واحد يطبخ كل ليلة من عدس أو كشك أو بيسارة أو فول أبو دشيشه"[٤]. وفى وجبه الغذاء يكون طعامه مش أو جبن أو كرات أو فجل أو مخلل[٥]، أو كسـرات مـن الخبز وحصوه ملح، وكان يمشى حافى الأقدام ولا يلبس سوى هدمه زرقاء لستر عورته وهى

---

(١) عبد الرءوف ثابت: سلبيات وإيجابيات المجتمع المصرى، ص ٧٥.
(٢) احمد أمين، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية، ص ٣١٠- ٣١١.
(٣) محمد المويلحى: حديث عيسى بن هشام، ص ١٦.
(٤) الاستاذ: العدد الثالث فى ٦ سبتمبر ١٨٩٢ ، ص ٥١. تحت عنوان: مطلب الطعام".
(٥) نفسـه.

فى أغلب الأحوال ممزقة، ويشرب الماء ولو بطينه ويقضى طول نهاره وراء بقرته أو حماره تحت حر الشمس، يلفح الهجير وجهه ولا يتأفف[١]، وما أكثر سكان الريف الذين كانوا لا يعرفون شيئا عن حياة المدينة لدرجة أنهم عندما رأوا السيارة لأول مرة أثارت فزعهم، واعتقدوا أن الشياطين هى التى تحركها وخرجوا من بيوتهم يتأملونها، وصفق الأولاد والبنات عجبا وإعجابا بهذا الاختراع العجيب، كما كان منظر رجل يرتدى بنطلونا فى الريف يشبه لديهم منظر مخلوق آت من عالم آخر وإلى جانب ذلك لم يكن الراديو أو التلفون قد عرف طريقه إلى الريف اللهم إلا فى دار العمدة. [٢]

ذلك الواقع المجحف الذى كان يلتف حول رقاب الفلاحين تعودوه راضين كما قسم لهم، كما تعوده آباؤهم وأجدادهم من قبلهم وكان لسان حالهم يقول وهو غير ساخط "رضا لمن يرضى" أو "من رضى بقليله عاش".

وظل تطور الريف أبطأ من سير السلحفاه خاصة وان المسيطرين على زمام الحكم كانوا يفضلون عجز الفلاح عن التصرف فى أبسط شئون حياته واستمراره على جهله وفقره حتى يضمنوا خضوعه لهم . [٣]

وعلى الرغم من كل هذا الشقاء الذى كان يعيشه الفلاح المصرى فقد كان يرفض دائما ترك قريته والارتحال عنها خاصة وأنها كانت تمثل له اطمئنان الحاضر والماضى، كما كان المثل القديم "البطيخة ما تكبرش إلا فى لبشتها" يعشعش فى كيانه[٤]، هذا بالإضافة إلى ميل غالبية أهل الريف إلى عدم المخاطرة والرضا بواقعهم بكل ما فيه من تخلف وظلم.

وما من شك فى أن الثورة كانت المنفذ الوحيد لخروج الفلاح من أزمته، وقد شارك الفلاح المصرى فى ثورة عرابى التى كان قائدها من صلب الفلاحين الذين كانوا ركيزة الثورة، وثار على الظلم خلال أحداث دنشواى التى كانت معلما هاما فى طريق الانتفاضة الشعبية الهائلة التى وجدت أقصى امتداداتها فى ثورة ١٩١٩.

وسارت الأمور فى الريف المصرى على هذا المنوال حتى جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢ وقامت بعملية تحول اجتماعى واقتصادى ضخمة بهدف القضاء على الثالوث الفقر والجهل والمرض، والتبشير بنسائم التغيير فقضت الثورة على الإقطاع، وطبقت قانون الإصلاح الزراعى، وألغت مجتمع النصف فى المائة، وانهت الحياة الاقتصادية الراكدة وغيرت وتيرة

---

(١) محمد جبريل: مصر فى قصص كتابها المعاصرين، ص ٢١٠.
(٢) جلال أمين: ماذا حدث للمصريين، ص ١٢١- ١٢٢.
(٣) جبريل: مرجع سابق، ص ٢١١ – ٢١٢.
(٤) جبريل: مرجع سابق، ص ٣٣١.

الحياة بادخال الآلات الزراعية المتقدمة فى الأراضى المستصلحة وتكفلت الدولة بتوفير الاحتياجات الأساسية للناس عن طريق دعمها لمتطلباتهم وسارت القرى فى خطى سريعة. نحو التطور فحل الطبيب محل حلاق الصحة، وحلت الجمعيات التعاونية والبنوك محل المرابين، وتغيرت الصورة بشكل كبير فاختفى الكانون ووابور الغاز وظهرت المواقد الحديثة، وظهر الراديو فى كل بيت، كما عرف الفلاح التلفزيون، وذهبت البنات إلى المدارس والجامعات والأمهات إلى فصول محو الأمية واختفت صورة المرأة التى تخرج ختمها لتختم أو تمد إيهامها لتبصم، بل أصبحت تحضر القلم لتوقع بعد قراءة ما توقع عليه وربما تجادل فى مبررات التوقيع.

واستمر الفلاح المصرى يحمل بشائر الأمل فى التقدم حتى بدأت الأمور تتغير فى السبعينيات من القرن الماضى خاصة بعد تخلى الدولة عن التزاماتها لتطوير الخدمات الصحية والتعليمية ورفعها بعض الدعم عن المواطنين وتصفيتها للقطاع العام فتغيرت الأحوال كما عادت الأمية تطل برأسها لدرجة أننا أصبحنا نرى أن أكثر من نصف سكان مصر يجهلون القراءة والكتابة.

كما ازدادت الأنشطة غير الإنتاجية، وبرز التفاوت بين الأغنياء والفقراء، وازداد الخوف على المستقبل.

رابعا: المتغيرات التى طرأت على الأوضاع الاجتماعية للمجتمع المصرى

من المعروف أنه يصعب نهوض أى مجتمع واستمرار نموه بدون وجود طبقة وسطى قوية فهى تمثل عماد واستقرار أى مجتمع حيث تستقر المجتمعات باستقرارها وتهتز باهتزازها وقد كانت الطبقة الوسطى المصرية بمثابة الجسر الذى وازن بين طبقات المجتمع كما كانت الوسيط بين المواطنين والحكام وقد احتضن أفراد هذه الطبقة أغلب التيارات السياسية والفكرية التى حركت الأحداث وعبرت عن تطلعات الوطن وهمومه، وشكلت العمود الفقرى لحركة المجتمع المصرى سياسيا وفكريا منذ ثورة ١٩١٩ التى أذنت ببزوغ شمس الدولة الحديثة فى مصر، وكان دستور ١٩٢٣ من أبرز نتائجها. ويبحث أفراد هذه الطبقة عن الارتقاء بمستواهم والوصول إلى مراتب أعلى.

وقد احتضنت هذه الطبقة معظم بناة مصر الحديثة الذين عملوا على تغيير أوضاع مصر نحو الأفضل، وعلى انطلاق عملية التحول الاجتماعى، كما أنجبت هذه الطبقة العديد من المفكرين والفنانيين والوطنيين والزعماء والمهنيين، ومعظم من قام بتشكيل صورة مصر وعقلها فى القرنين ١٩ ، ٢٠ وكان من هؤلاء محمد عبده وعبد الله النديم، ومصطفى كامل، وسعد زغلول ومصطفى النحاس، وجمال عبد الناصر والسادات، وعباس العقاد، وأحمد أمين، وطه حسين، وإحسان عبد القدوس ، وسلامه موسى، ونجيب محفوظ وأحمد زويل وغيرهم.

وقد ملأ أبناء هذه الطبقة الشارع السياسى المصرى حيوية وحركة وحركوا الأحداث وصنعوها بما نالوه من تعليم جيد ووعى سياسى واجتماعى واضعين أمام أبصارهم هدفا ثابتا وهو وحدة الوطن ووحدة المواطنين والمساواة بينهم، وكلما اتسع عدد أفراد هذه الطبقة إزداد الشعور بتوازن المجتمع وحفظه من الاضطرابات والقلاقل. [١]

لقد كان تعداد الشعب المصرى قبل ثورة يوليو حوالى اثنين وعشرين مليونا وكان مكونا من ثلاث طبقات اجتماعية هى:

١- ٢% طبقة ارستقراطية شديدة الثراء وكانت تمتلك نحو خمس الأراضى الزراعية فى مصر وكانت دائمة التطلع إلى النفوذ السياسى.

٢- ٥% طبقة وسطى بورجوازية ميسورة الحال وكانت نسبة كبيرة منها من موظفى الحكومة، كما كان بعض أفرادها يتكونون من الأجانب .

---

(١) صباح الخير فى ٢٢ اغسطس ٢٠٠٦ تحت عنوان : "بداية ونهاية الطبقة الوسطى"، ص ١٩- ٢٠.

٣- ٩٣% طبقة مكونة من شعب فقير معدم إلى حد الكفاف شديد الأمية، لا تطمح إلى أكثر من البقاء على قيد الحياة.

وقد قضت الثورة على الطبقة الارستقراطية تقريبا، فقامت بتنحية أفرادها عن السلطة السياسية، كما قلمت أظافرهم الاقتصادية بقوانين الاصلاح الزراعي المتتالية، وقوانين الحراسة والمصادرة ثم التأميم وفي نفس الوقت حاولت أن ترفع من شأن الطبقة الفقيرة، فأصبح المجتمع المصري في الستينات يتكون من طبقتين فقط: الأولى من ٢٠ إلى ٢٥% وهي الطبقة التي كانت متوسطة قبل الثورة ثم آلت إليها السلطة عند قيام الثورة. وقد تكونت هذه الطبقة من عدة شرائح من الطبقة الوسطى خاصة من الضباط والمهنيين والتكنوقراط من مهندسين وقانونيين ومديرين واقتصاديين وأساتذة جامعات ومحاسبين وأطباء وصحفيين وفنانين وغيرهم ممن كانوا محرومين تماما من المشاركة في السلطة السياسية قبل الثورة، وقد ازدادت هذه الطبقة حجما بانتشار التعليم المجاني على اختلاف مراحله[١]، وأصبح الحصول على شهادة جامعية من السمات الرئيسية لهذه الطبقة، كما أصبح الصعود إليها لا يرتبط بعائلة ذات حسب ونسب كما كان يحدث من قبل، بل بالدخل والثروة، والوصول إلى مراتب وظيفية وحرفية كبيرة. وقد أتاحت الثورة لهؤلاء فرص الارتقاء في كافة المجالات حيث توجهت فيما تصدره من قوانين وما تتخذه من اجراءات إلى خدمة هذه الطبقة الجديدة. فقد أعطتها الدولة امتيازات في الحصول على أراضي البناء والشقق السكنية، وفي بناء المصايف الجديدة واقتناء السيارات الفخمة، ووسائل الترفيه الحديثة وفي تحديد ما يتم انتاجه من سلع وتقديم الدعم إلى بعض السلع والخدمات التي لا يستفيد منها سوى الطبقة المتوسطة، أما الطبقة الثانية فشملت من ٧٥ إلى ٨٠% من أفراد الشعب وكانت تتكون في مجملها من العمال، وصغار الفلاحين والحرفيين الذين كانوا يعانون من انعدام الحقوق قبل الثورة وقد استفادت هذه الطبقة من مجانية التعليم ومختلف صور الدعم التي قدمتها الثورة للسلع والخدمات الضرورية، وتوفير فرص العمل لأبناء الفلاحين في الاستصلاح الزراعي وبناء السد العالي والصناعات الجديدة التي أوجدتها الدولة، وإيجاد البرامج الخاصة بمحو الأمية وتحسين مستوى المعيشة بالقرى وتوفير المياه الصالحة للشرب في بيوت الفلاحين، وتعميم وسائل نشر الثقافة والترفيه.[٢]

كل ذلك أدى إلى زيادة الدخل القومي، وزيادة الطلب على العمل، ورفع الأجر الحقيقي للعمال بما يكفي لسد حاجاتهم المعيشية وتحسين أحوالهم الاجتماعية، ومعنى ذلك أن

---

(١) عبد الرءوف ثابت: سلبيات وإيجابيات المجتمع المصري، ص ١٢١.
(٢) الهلال: في نوفمبر ٢٠٠٢، مقال للدكتور/ جلال أمين بعنوان: " الأغنياء والدولة – من هم الأغنياء في مصر"، ص ١٨- ٢٠.

ثورة يوليو استطاعت أن تنجح فى تغيير النظام الطبقى بعد أن قضت على امتيازات الاقطاعيين وأصحاب رؤوس الأموال، فصعدت شرائح ذات حظ بسيط إلى الطبقة الوسطى كما أنها أحدثت تغييرا عميقا حدث فى المجتمع المصرى ترسخت جذوره فى التربة المصرية، وكانت له تأثيراته المباشرة على حياة المصريين حيث اختلفت أساليب ونمط حياة الناس الاجتماعية، وظهرت أشكال حياتية جديدة حلت محل القديم المتوارث تجلى خلاله صراع الأجيال فى أوضح صوره، حيث لم يعد هناك خيارا سوى التغيير الذى أدى إلى تبدل العلاقات الاجتماعية بين الأفراد تبدلا جوهريا تسبب عنه قلب القيم الاجتماعية رأسا على عقب.

وإلى جانب ذلك فقد حاولت حكومة الثورة تحقيق استقلالية اقتصادية بأن تعدل دورها من دور التابع وأن تحقق استقلالية اقتصادية فتم كسر طوق التبعية وتطوير قوى الانتاج فى الزراعة والصناعة ووضع حد للسيطرة الأجنبية على الاقتصاد المصرى والقيام بتمصير التعليم.

وبعد ضرب التجربة الناصرية فى أعقاب هزيمة ١٩٦٧ ثم وفاة الرئيس عبد الناصر تعرضت البلاد لنكسة اقتصادية أصابت العامل المصرى فى الصميم حيث تراخى الطلب على العمل، وارتفعت معدلات البطالة، كما قام الرئيس السادات بتطبيق سياسة الانفتاح الاقتصادى، وفتح الباب على مصراعيه لجذب رأس المال الأجنبى وفتح باب الاستيراد على مصراعيه لدخول المنتجات الصناعية الغربية إلى الأسواق المصرية وشهدت مصر انتشار السوبر ماركت الذى امتلأ بكافة السلع المستوردة، كما شهد زيادة إعداد مكاتب التصدير والاستيراد والتى كان أغلبها للاستيراد أكثر منها للتصدير، وظهور العديد من السلع الكمالية فى الأسواق مما أدى إلى اختلال البناء الاقتصادى لصالح القطاعات الخدمية على حساب القطاع الانتاجى.

وفى ظل الانفتاح تراجعت الأمور وازدادت الأنشطة الطفيلية غير الانتاجية وبرزت الصورة أكثر تناقضا فازداد التفاوت بين أغنياء مصر وفقرائها شدة وحدة فامتلأ الأغنياء تخمة وأصيب الفقراء بأمراض نقص التغذية وبانتشار الأمية بينهم، وتضاءل دور الطبقة الوسطى وزاد الطين بله الارتفاع المستمر فى الأسعار بشكل لا يتناسب مع مستوى الأجور، كما زاد الأمر تعقيدا ارتفاع نسبة المواليد بشكل لا يتناسب مع امكانات الدولة ولا مع دخول الأفراد مما أدى إلى اهتزاز وضع الطبقة الوسطى فبعد أن كان الموظفون من أصحاب المكانة ضاعت مكانتهم وأصبحوا من المعذبين فى الأرض لدرجة أن سكن بعضهم فى غرف ضيقة

لا تتوافر فيها المرافق كما عاش بعضهم فى العشش والمقابر. [١] وبدأوا يعانون من تراجع واضح فى مركزهم والتعرض للعديد من الأزمات نتيجة لعدم مسايرة مرتباتهم مع ارتفاع الأسعار، مما دفع بعضهم إلى البحث عن عمل إضافى بجانب عمله الوظيفى، فمنهم من عمل سائق تاكسى ومنهم من عمل فى أعمال حرفية بسيطة فبعد أن كانت الوظيفة الميرى توفر لصاحبها حياة آمنة مستقرة، ومركز اجتماعى محترم، وضمان لمستقبله ومستقبل أسرته لدرجة أن الأسرة التى كان لديها فتاة فى سن الزواج كانت تطمح دائما لأن يتقدم لخطبة ابنتها صاحب وظيفة ميرى انقلب المثل القائل: "أن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه" إلى إن جاءك الميرى حتى الباب فعليك الفرار منه بأقصى سرعة حتى لا يتعرض مستقبلك للضياع[٢]، خاصة وأنه أصبح من الأفضل القيام بنشاط اقتصادى حر لا علاقة له بالدولة واقتناص الفرص المتاحة فى المشروعات التجارية الصغيرة.

وهكذا تغيرت شرائح المجتمع المصرى وتحولت إلى طبقتين من نوع مختلف تبعا لسياسة الانفتاح الاقتصادى وهما:

١- طبقة غنية وتشمل حوالى ٣٠% من مجموع الشعب وهذه الطبقة تكونت من أغنياء اصلا، ومن طبقات طفيلية أصبح أفرادها أغنياء بعد سياسة الانفتاح ومما حققوه خلالها من مكاسب، هذا بالإضافة إلى بعض المثقفين الذين استطاعوا الاقتراب من هذه الطبقة بطريقة أو بأخرى.

٢- طبقة فقيرة وتشمل ٧٠% من عامة الشعب[٣] بعضهم انتقل من الطبقة الوسطى إلى هذه الطبقة لتردى أحواله وتدهور موارده، حيث عانى من ارتفاع الأسعار وضعف الدخل وسوء الأحوال ونتيجة لذلك لم يكن امام العديد من هؤلاء سوى البحث عن مخرج آخر وهو الهجرة إلى خارج الوطن فبعد أن كان المصريون يتوجسون خيفة من ترك بلادهم فقد اضطرتهم الظروف الاقتصادية والاجتماعية وأحيانا السياسية إلى الهجرة، التى اصبحت فى طليعة المسائل التى تهم معظم الأسر المصرية، وأصبح حلم كل شاب الحصول على عقد عمل فى دولة بترولية لتكوين نفسه ماديا ثم العودة بعد بضع سنوات ليعيش حياة لائقة فى بلده وقد شهدت مصر عملية خروج جماعى لهؤلاء من ديارهم.

---

(١) سمير نعيم: أهل مصر ، ص ٦٢ وما بعدها.
(٢) جلال أمين: مرجع سابق، ص ١٤١.
(٣) ثابت: مرجع سابق، ص ١٢١- ١٢٢.

ومع أن موضوع الهجرة قد ساعد فى إيجاد حلول مؤقتة للزيادة السكانية، وكان مصدرا مهما للدخل القومى عن طريق زيادة تحويلات المصريين المهاجرين والمعارين للخارج فإنه أدى إلى غياب العمالة الماهرة فى مختلف المهن، وتدهور مستواها، كما ساعد على ترسيخ قيمة التطلعات الاستهلاكية التى استنفدت جزءا كبيرا من أحد مصادر الدخل القومى وهى تحويلات المصريين العاملين بالخارج الذين انفقوا هذه التحويلات فى شراء سلع كمالية. وارتبط بذلك خلل جسيم فى انساق القيم الاجتماعية فطغت القيمة الفردية والأنانية على القيم الاجتماعية، مما ساعد على ظهور فئات طفيلية، وعلى ظهور مشاكل اجتماعية مثل التفكك الأسرى والانحراف[١]، وانتشار الانتهازية، واختفاء القيم المعنوية التى كانت تميز الطبقة الوسطى ، ولكن هذا الحال لم يستمر طويلا . فبعد أن تراخى معدل الهجرة إلى الخليج حدث انكماش اقتصادى أدى إلى ارتفاع معدل البطالة، وانخفاض معدل نمو الناتج والدخل القومى خاصة بعد عودة إعداد كبيرة من المهاجرين إلى وطنهم، واتباع الحكومة لسياسة انكماشية قاسية طبقا لتوجيهات صندوق النقد الدولى الذى تم الاقتراض منه لتدعيم الاندماج فى النظام الاقتصادى الرأسمالى مما أدى إلى تضاعف الدين الخارجى لمصر، واستخدام هذه الديون فى تعميق تبعية الاقتصاد المصرى بدلا من تطويره. [٢]

وفى ظل ذلك التدهور الاقتصادى ازداد الفقراء فقرا والأغنياء غنى فبيعت أراضى مملوكة للدولة للأغنياء باثمان أقل من قيمتها الحقيقية، كما هرب بعض كبار رجال الأعمال من مصر بملايين من الجنيهات كانوا قد اقترضوها من البنوك دون ضمانات كافية، وتم بيع مشروعات مملوكة للقطاع العام بأقل من قيمتها لكثير من الأثرياء كما تم الاستغناء عن العديد من العمال بعد اغلاق مصانعهم.

كل ذلك جعل الناس يصرخون من الارتفاع المتوالى لأسعار السلع الضرورية، ومن سوء الخدمات، وضيق ذات اليد مما أدى إلى تدهور مستوى المعيشة واهتزاز القيم، وتفكك العلاقات الأسرية والاجتماعية، وإيجاد مناخ يشجع على الفردية والبحث عن المصلحة الشخصية ولو على حساب المجتمع وإلى تبلد المشاعر، والتباعد الاجتماعى، والعزلة ورفض الواقع والانفصال عنه وتفشى الفساد والانحراف وعدم أداء العمل بشكل جيد أو متقن.

---

(١) سمير نعيم: مرجع سابق، ص ١٤٧-١٤٨.
(٢) الهلال: مقال د. جلال أمين ، سابق الذكر، ص ٢٣.

وهكذا تغير المجتمع المصرى عما كان عليه فى الماضى لدرجة أن كل شخص أصبح لا يقنع بما لديه، فالغنى يريد أن يزيد من ثروته والفقير لا يجد قـوت يومـه إلا بصـعوبة، وأصبح الفارق بين الطبقات كبيرا فهناك أفراد يعيشون فى قصور وينعمون بحيـاة التـرف والبذخ، وآخرون يعيشون تحت خط الفقر ويعانون من ضيق الحال، وأخذت الطبقة الوسـطى فى التآكل والاختفاء وأصبحت لا تجد لها أى مخرج سوى الاقتراب من طبقة الفقراء والنزول إلى قاع المجتمع من خلال عمليات التهميش الاجتماعى.

خامسا: متى تعرف المصريون على وسائل النقل الحديثة

كانت وسائل النقل والمواصلات المستخدمة فى مصر تقتصر على القوى الحيوانية المتمثلة فى الحمير والبغال والخيول وعربات الحنطور والكارو، وكان للحمير مواقف معينة يذهب إليها من يرغب فى استئجارها، كما كان كل منها يحمل لوحات معدنية عليها رقمه مثل حمار رقم (كذا) تعلق على جانب السرج.[١]

أما العربات الحنطور فكانت غالبا تستعمل لاستخدامات الأغنياء وكان القليل منها للتأجير[٢]، واستمر الحال على ذلك حتى تم ادخال وسائل النقل الحديثة من قطار وترام وسيارة وغيرها وكان الانسان المصرى فى بداية ظهور وسائل النقل الحديثة يخشى استخدامها ويفضل ركوب الدواب خاصة وأنه كان يفزع من ركوبها أو السفر عليها لعدم تعوده ذلك وخشية تعرضه للمخاطر، ثم بدأ يقترب منها رويدا رويدا خاصة بعد أن تبين له فوائدها وشعر أن مخاطرها أقل بكثير مما كان يتصور أو يسمع وفيما يلى نعرض لذلك.

١-القطـــار:

تعد السكك الحديدية من أهم دعائم العمران والتقدم، فبعد أن نجح المخترع الانجليزى جورج ستيفنسن George Stephenson فى اختراع القاطرة البخارية تغير وجه الحياة بشكل لم يعرفه العالم من قبل وكانت مصر أول بلدان الشرق قاطبة ينشأ بها أول خط حديدى لدرجة أن السلطان العثمانى عبد العزيز عندما زار مصر فى عام ١٨٦٣ وركب القطار من الاسكندرية إلى القاهرة تملكه العجب لأنه لم يكن قد رأى القاطرات البخارية فى حياته من قبل ويرجع إنشاء أول خط حديدى فى مصر إلى عهد عباس الأول[٣]، حفيد محمد على حيث شرع فى مد السكك الحديدية من الاسكندرية إلى القاهرة عام ١٨٥٢ وعهد بتخطيط العمل إلى المهندس الانجليزى ستفنسن Stephenson فى نظر خمسين الف جنيه تدفعها الحكومة دفعة واحدة.[٤]

وفى عهده أيضا تم البدء فى إنشاء خط حديدى بين الاسكندرية وكفر الزيات فى عام ١٨٥٤ وتم اكتماله فى عهد سعيد باشا عام ١٨٥٦ وسار الخط عن طريق كفر الزيات وبنها

(١) رونالد ستورس: توجهات بريطانية شرقية – مذكرات السير رونالدستورس – ترجمة رءوف عباس، ص ١١١.

(٢) فاطمة علم الدين: تطور النقل والمواصلات الداخلية فى مصر، ص ٩٥.

(٣) راودت هذه الفكرة محمد على، ولكن فرنسا أقنعته بالعدول عنها خشية استيلاء الانجليز على مصر، للتفاصيل أنظر: الياس الأيوبى: تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل، المجلد الأول، ص ٨١.

(٤) على مبارك: الخطط التوفيقية، جـ٧، ص ١٧٤.

حتى وصل إلى العاصمة، ولم تكن الكبارى قد بنيت على النيل وقتذاك فكـــان القطـــار عنـــد اجتيازه الفرعين ينقل على مراكب خاصة تسير به من بر إلى آخر، كما تم مد الخط الحديدى بين القاهرة والسويس. [١] وإنشاء العديد من خطوط السكك الحديدية الأخرى.

وكانت المشكلة التى واجهت السكك الحديدية وقتذاك هو سوء إدراتها وعـــدم وجـــود ضوابط لها، فالمسافر الذى يركب قطاراتها لم يكن متأكدا من صدق مواعيد قيامها، ولا مـــن بلوغه المكان الذى يقصده لكثرة ما يعترى الطريق من موانع وعراقيل فقد يكون القطار على اهبة السفر من محطة الاسكندرية مثلا، فيأتى ناظر المحطة مندوب من قبل أحد القناصـــل أو الباشوات الأتراك ويأمره بتأجيل موعد قيام القطار حتى يأتى القنصـــل أو الباشـــا أو حـــرم أحدهما فيؤجل الناظر الميعاد ويضطر المسافرون للانتظار ساعات، أو أن يخرج القطار عن الخط المحدد له لجهل السائق بالطريق واستمرت الأحوال على ذلك حتى جاء عصر اسماعيل فبدأ فى اصلاح الخلل فى إدارة السكك الحديدية. [٢] خاصة بعد أن تردد على مســـامعه دقـــة نظام السكك الحديدية فى أوربا، فانتظمت مواعيد القطارات خاصة بعد أن عين مـــديرا لهـــا يتمتع بكفاءة عالية، كما بذل اسماعيل جهودا ضخمة فى مد السكك الحديدية فى أنحاء القطـــر المصرى، فبعد أن كان الموجود منها فى عصر سعيد باشا ٢٤٥ ميلا ازداد فى عهـــده إلـــى ١٠٨٥ ميلا.[٣] وبذلك غمرت شبكة السكك الحديدية شرق وغرب ووسط الدلتا[٤]، ومما يذكر أن الأهالى كانوا يخافون ركوب القطار خشية أنه لا يستطيع الوقوف بهم، لذلك كان القطـــار يسير، ومعظم عرباته فارغة من الركاب اللهم سوى نفر قليل من الأجانب ، ومما يروى أيضا ويتندر الناس به أن أهل الشرقية عزموا القطار، فبعد أن رأوه يمر بأراضيهم ويزعق، خطر فى أذهانهم أنه مخلوق له عقل وإرادة وصوت، وإلا كيف يجرى وحده ويزعق؟ وقـــرروا أن يقيموا له عزومة كبيرة ليتغذى أو يتعشى عندهم بجلاله قدره.

ومع أن محطة السكك الحديدية الرئيسية بباب الحديد بالقاهرة كانت تحتل مكانة هامة فى حياة المصريين فكانت عبارة عن مبنى فخم جميل المعمار، وله رهبة ملحوظة لدى الجميع إذ هو المكان الذى نستطيع أن نصل به إلى أى مكان فى القطر المصرى، بل ولا غنى عنـــه لمن أراد الوصول إلى أى مكان[٥]، فإن هذه الصورة تغيرت كثيرا فى الوقـــت الحـــالى فقـــد

([١])الرافعى: عصر اسماعيل، جـ١، ص ١٤- ٢٨.
([٢])الأيوبى: مرجع سابق، ص ٩٦- ٩٩.
([٣])الخطط التوفيقية، جـ ٧، ص ٢٤٦.
([٤])فاطمة علم الدين: مرجع سابق، ص ٤٧.
([٥])جلال أمين: مرجع سابق، ص ١٨٠.

وصلت شبكة السكك الحديدية إلى حالة يصعب معها المسكنات، وأصبحت تتعرض للعديد من الحوادث والمصاعب والمتاعب نتيجة لقدمها، وتوقف عمليات التطوير بهـا، ولزيـادة عـدد الركاب وزنه البضائع المطلوب نقلها دون أن يقابل ذلك تزايد مناسب فى عدد القطـارات أو العربات أو الخطوط بالإضافة إلى عدم إمكان تنفيذ أعمال الصيانة بالكفاءة اللازمة والامكانات الملائمة مما جعل الأمر يحتاج إلى بحث ومراجعة للمحافظة على هذا المرفق الحيوى الهـام الذى تزايدت حوادثه وانهارت سمعته وتعرضت أرواح المصريين للخطـر علـى قضـبانه، وتحول السفر به إلى لحظات محفوفة بالكثير من المخاطر بغياب الأمان به. وأمام اسـتمرار مسلسل حوادث القطارات كان ضروريا التوقف أمام الأسباب التى أدت إلى انهيار هذا المرفق الحيوى الذى كان من أهم المرافق الحضارية المصرية الآمنة الاستعمال لذلك كان لابد مـن إعادة النظر فى الأمر وإعادة هيكله السكك الحديدية هندسيا وإداريا وفـق أحـدث الأسـاليب الالكترونية. وقد تنبهت الحكومة إلى ذلك أخيرا ورصدت المليارات اللازمة مـن الجنيهـات لذلك.

إن مصر فى حاجة إلى خطة قومية متكاملة يتم فيها مراجعة أسلوب العمل فى هيئـة السكك الحديدية، وإنشاء شبكة أخرى موازية قادرة على استيعاب الكثافة السكانية المتزايدة بما فى ذلك التوسع العمرانى حتى تعود لمصر مكانتها وقدرتها كواحدة من أوائـل دول الشـرق الأوسط استخداما للسكك الحديدية، وحتى يمكن إعادة السكك الحديدية المصرية إلـى سـابق عهدها من الأمان والضمان. (١)

٢-الأوتوموبيل (السيارة):

قصة دخول السيارة إلى مصر جديرة بالتساؤل، ومع أن الكثيرين إختلفوا حول تاريخ دخولها فمن المرجح أن أول سيارة دخلت مصر كان فى أواخر عهد "الخديو توفيق" وبالتقريب فى عام ١٨٩٠ حيث استقدم "الأمير حسن" أحد أفراد الأسرة الخديوية سيارة فرنسـية تعمـل بالبخار إلى مصر بهدف استخدامها فى الترفيه والمغامرة هذا فى الوقت الذى كانـت وسـيلة الانتقال المعروفة لدى المصريين هى المركبات التى تجرها الخيول، والحمير التـى يركبهـا العامة.

ومما يروى حول ذلك أن "الأمير حسن" قام برحلة بسيارته البخارية من القاهرة إلـى الاسكندرية بصحبة اثنين من أصدقائه عام ١٩٠٤ وخلال تلك الرحلة لم تتجـاوز السـرعة

---

(١) روز اليوسف فى ٢٠٠٦/٩/١٥ تحقيق تحت عنوان الملف الأسود لسكك حديد مصر، ص ١٨- ٢٠.

القصوى للسيارة أكثر من عشرين كيلو مترا فى الساعة، وهى سرعة كبيرة مقارنة بسرعة المركبات التى تجرها الخيول. وقد استغرقت هذه الرحلة أكثر من عشر ساعات مما تسبب فى إرهاق الأمير، كما أدى إلى غضب وانزعاج الفلاحين الذين رأوا السيارة لا تجرها الدواب مما أدى إلى اعتقادهم أن الشياطين هم الذين يحركونها. يضاف إلى ذلك أن هذه السيارة إضطرت إلى السير فى وسط الحقول لعدم وجود طرق صالحة لسير السيارات فى ذلك الوقت مما أتلف الكثير من المزروعات، وقتل عددا كبيرا من الخراف والماعز والماشية. كل ذلك أثار حنق الفلاحين تجاه هذا الاختراع الجديد الذى رأوه لأول مرة.

كما تذكر المصادر التاريخية أن "الخديوى عباس الثانى" وشقيقه الأمير " محمد على" ابن الخديوى توفيق كانا من أوائل من امتلكوا السيارات فى مصر فكان "الخديو عباس" يمتلك سيارة فضية اللون، وكان مغرما بقيادتها بسرعة كبيرة تصل إلى ٥٠ كيلو متر فى الساعة وهى سرعة قياسية فى ذلك الوقت. أما الأمير محمد على فقد ذكرت احدى الصحف أنه تعرض لحادث بسيارته عام ١٩٠١ حيث ارتطمت بعربة كارو كانت تحمل ألواحا خشبية طويلة.

والجدير بالذكر أن قيادة السيارات فى تلك الفترة كانت محفوفة بالمخاطر خاصة وأنه لا توجد علامات مرورية فى الشوارع لقلة عدد السيارات فى ذلك الزمان. ولما بدأت الأعداد فى التزايد بدأت سلطات القاهرة فى التحرك، فأصدر المحافظ قرارا بمنع قيادة السيارات بسرعة تزيد عن عشرين كيلو مترا فى الساعة فى شوارع المحروسة. (١)

والطريف فى الأمر أن الدواب التى كانت تسير فى الشوارع فى هذه الأيام كانت تصاب بالهلع عند رؤية سيارة فى الطريق. عندما نتذكر هذه الأيام الخوالى، وننظر إلى شوارع مصر المحروسة حاليا والتى أصبحت عبارة عن جراج كبير للسيارات من كافة الأنواع والأشكال والماركات ننظر إلى السماء ونقول سبحان مغير الأحوال فقد تغيرت أحوال المصريين بشكل ملفت للنظر فبعد ان كان التنقل بالأتوبيس والترام ووسائل النقل العامة أمرا متبعا، وكان من الشائع أن تقابل أشخاصا من ذوى الحيثيات وهم يقرأون الصحف فى الترام أو المترو أو واقفين أمام محطة الأتوبيس ينتظرون وصوله ولم يكن يدور فى حسبان أحد اقتناء سيارة خاصة لعبت قوى الحراك الاجتماعى دورها منذ منتصف السبعينات فتغير الأمر بشكل ملفت للنظر، وسيطرت فكرة السيارة الخاصة على حياة الناس، وأصبح امتلاك السيارة

---

(١) صوت الأمة فى ٢٠٠٦/٩/١٨ دراسة للاستاذ شريف على بعنوان "تاريخ السيارات فى مصر"، ص ٢٨.

من الأمور الأساسية بل وأصبحت الأسرة الواحدة تمتلك أكثر من سيارة وازدحمت شوارع العاصمة بالسيارات بشكل يفوق قدره احتمالاتها.

وبعد أن كان الحصول على سيارة يكاد ينحصر فى شراء سيارة نصر ١٢٨ تحولت مصر إلى معرض لمختلف أنواع السيارات من شتى بلدان العالم مما أتاح بدوره فرصة للتباهى والتفاخر والاعلان عن الثراء بين أفراد الأسر خاصة بين من يمتلك الخنزيرة والشبح والزلمكة. [1]

٣-ظهور الترام كان بمثابة نقلة حضارية للمصريين:

سمى الترام بهذا الاسم نسبة إلى المهندس الانجليزى ترام Tram الذى اخترعه. وكانت خطوط الترام فى بداية أمرها تجرها الجياد وأحيانا الثيران ثم تحول بعضها إلى البخار ثم إلى الكهرباء بعد ذلك. [2]

وقد صادقت الحكومة المصرية فى عام ١٨٩٦ على منح امتياز لشركة بلجيكية لإنشاء ترام يسير بالكهرباء فى شوارع العاصمة. وفى يوم ١٢ أغسطس ١٨٩٦ شاهد الناس لأول مرة الترام مارا بميدان العتبة الخضراء يركبه "حسين فخرى" ناظر الأشغال وقتذاك، والأولاد يصرخون عجبا بقولهم العفريت ، العفريت فكان ذلك بمثابة نقلة حضارية هامة انتقلت منها البلاد إلى طور الحضارة الحديثة الذى يتمثل فى استخدام قوة الكهرباء فى تسيير المركبات وفى الاهتمام بنظافة الشوارع، وفى كسر عزلة أحياء العاصمة عن بعضها. كما أحدث ظهور الترام ثورة هائلة فى جميع مناحى الحياة فى القاهرة، فانتقل الناس من مكان إلى آخر بسهولة، وطاب السهر فى المسارح وغيرها، واتسعت حركة العمران فتحولت العشش والأرض الخراب إلى عمارات أنيقة ونشطت الحركة التجارية، وظهرت المحلات التجارية الكبرى فى ميادين محطات قطارات الترام، والجهات القريبة منها مثل حى الأزبكية ، والعتبة، والموسكى كما كثر التردد على الأندية الثقافية والرياضية ونمت الحركة الفكرية يضاف إلى ذلك أن سهولة التنقل بالترام ساعد على اتساع دائرة الحركة الوطنية[3]، كما ساعد على تجمع الشعراء والكتاب فى مقاهى الأزبكية وحاناتها واحتدام المبارزات الفكرية بينهم، وساعد أيضا على التقريب بين فئات العمال وتوحيد كلمتهم.

---

(1) جلال أمين: ماذا حدث للمصريين، ص ١٧٨- ١٩٠.
(2) فاطمة علم الدين: مرجع سابق، ص ١٠٥.
(3) محمد سيد كيلانى: ترام القاهرة دراسة تاريخية اجتماعية أدبية ، ص ٤-١٥.

وبالرغم من كل ذلك فقد كان لظهور الترام بعض المساوئ مثل زيادة عدد النشـــالين الذين كانوا يحتكون بركابه ويخطفون ساعاتهم ونقودهم، وتواجد بعض الغوغاء والســكارى بعرباته بصفة شبه مستمرة، مما دفع شركة الترام بالاتفاق مع الحكومة على إصــدار لائحــة بنظام عملها نصت على منع كل محدث غوغاء أو سكران أو مصاب بعاهة تشمئز منها النفس من ركوب الترام، ومنع تسلق العواميد المعدة لتسييره أو تعليق شئ عليهــا أو الســير أمــام العربات او خلفها أو التعلق بها. (١)

وظل الترام يجوب الشوارع كوسيلة سريعة ومريحة من وسائل الانتقال مــن مكــان لآخر حتى منتصف السبعينات، وكان من المشاهد تواجد بعض كبــار المــوظفين والمثقفــين واقفين على محطاته ينتظرون وصوله ولكن هذه الصورة بدأت تتغير تغيرا جذريا مع الحراك الاجتماعى الذى طرأ على المجتمع، حيث بدأ الترام يتوارى عن الأنظار وظهرت الأتوبيسات الأكثر سرعة وكفاءة وأصبح منظر السيارات الخاصة تكتظ بها الشوارع بشكل واضح. (٢)

---

(١) الوقائع المصرية فى ٢١ ابريل ١٩٠٠.
(٢) جلال امين: مرجع سابق، ص ١٨٦.

سادسا: النقود والبريد فى حياة المصريين

١-ظهور النقود فى مصر واستخدامها كوسيلة للتعامل:

النقود هى وسيلة المعاملات التجارية بين الناس، وكان الانسان فى بداية حياته يعتمد فى معاملاته على المقايضة أى أن السلع كانت تقوم مقام النقود وعند تتبعنا لنشأة العملة فى مصر يذكر "المقريزى" أن "عمرو بن العاص" عندما فتح مصر فى عام ٦٤١م ضرب الجزية على أهلها بالدنانير، وأن مصر ظلت تستعمل نقود الخلفاء الأمويين والعباسيين الذهبية إلى وقت قيام الدولة الأيوبية. على أن أول من ضرب الدينار فى مصر هو الأمير "أحمد بن طولون" وكان ذلك فى عام ٨٧٥م وقد دعيت الدنانير "الأحمدية" نسبة إليه وفى عام ٩٨٠م ضرب القائد الفاطمى "جوهر الصقلى" دنانير جديدة سميت "المعزية" نسبة إلى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى.

وفى عهد محمد على ضربت عملة الريالات المصرية بدار الضرب بالقلعة كما انتشر التعامل بالريال الفرنسى وكان يسمى "أبو مدفع" وبالجنيه الأفرنجى (وقيمته مائة قرش) ثم ضرب الجنيه المصرى (وقيمته مائة قرش) واستعمل "البنتو" أيضا وشاعت المعاملة به إلا أن العملة المصرية لم تنتظم أمورها إلا فى عهد "الخديوى اسماعيل" ففى عهده تم جعل الجنيه الذهب من عيار واحد وعشرين قيراطا والباقى من النحاس، واستعملت فى عهده أيضا قطع مختلفة من النقود أشهرها قطعة العشرة قروش (النصف ريال) وقطعة الخمسة قروش والقطع النحاسية الصغيرة. وظلت تلك النقود شائعة فى مصر إلى أوائل القرن العشرين إذ حلت محلها العملة العثمانية من ليرات وانصاف ريالات وأرباع ريالات وقروش.

ولما كان استعمال المعادن خاصة الذهبية كعملة أصبح لا يكفى حاجات البشر، فقد تم استخدام العملات الورقية. ولما تشكك الناس فى التعامل بالجنيهات الورقية على اعتبار أنه كان هناك الجنيه الذهب الذى كان بالنسبة لهم هو الأضمن فقد أصدر البنك الأهلى على واجهته عبارة "اتعهد بأن أدفع لدى الطلب مبلغ جنيه واحد مصرى لحامله، تحرر هذا السند بمقتضى الدكريتو المؤرخ فى ٢٥ يونية ١٨٩٨ وكان هذا اعترافا من البنك بأن هذه الورقة المكتوب عليها جنيه عبارة عن سند يستطيع من يحملها أن يذهب إلى البنك الأهلى ويطلب استبدالها بما يساويها ذهبا مما طمأن المصريين الذين وجدوا فى هذا الجنيه الورق سهولة فى الحمل والتداول.

ومنذ ذلك الوقت وحتى اليوم تغير شكل الجنيه ومقاسه تسع مرات ومنذ ٢٩ ابريل ١٩٦٣ عندما تولى البنك المركزى إصدار الأوراق المالية اختفت عبارة التعهد التى كانت تطبع على الجنيه وأصبحت قيمته مستمدة من حيازته.

٢-بداية معرفة المصريين بالبريد وتطور استعماله:

إن أقدم نظام بريد فى العالم عرفته مصر الفرعونية قبل مولد السيد المسيح بثلاثة آلاف عام أما فى العصر الحديث فقد عرف المصريون نظام البريد على نطاق ضيق فى عصر محمد على خاصة وأنه اهتم بنقل الرسائل الحكومية بين القاهرة وسائر أنحاء البلاد، وإلى مكة والسودان والشام هذا إلى جانب أن زيادة عدد الأجانب بمصر فى عهده حتم إنشاء بريد خاص بهم يقوم بنقل الرسائل المتبادلة بينهم وبين بلادهم وكان الهجانة ينقلون البريد على ظهور الإبل. وأشهر الهجانيين وقتذاك كانا المعلم "عمر حمد" والمعلم "حسن البديلى" فقد نظم المعلم "عمر" خطوطا بريدية فى أغلب أنحاء البلاد حتى وصلت إيله فى عام ١٨٢١م إلى السودان أما المعلم "البديلى" فقد كان له أبل خاصة لنقل البريد تسير فى شرق البلاد وغربها حتى إذا حلت قافلته فى بلد تناقل الأهلون الخبر، وتسابقوا إليه وسلموه رسائلهم وودائعهم دون أى ضمان أو تأمين. ولم تكن هناك رسوم مقررة يتقاضاها المعلم "البديلى" بل كان يقدرها حسبما يتوسمه فى اصحابها من الجاه والثروة.

ورغبة من محمد على فى تنظيم أمور البريد أمر بوضع أرقام على البيوت، وأسماء للشوارع على لوحات خشبية حتى يسهل عملية نقل البريد إلى أصحابه. كما أمر محمد على بضرورة أن يعين سعاة البريد ممن لهم إلمام بالقراءة والكتابة، وأن يتم تسليمهم ساعة فضية لمعرفة الوقت الذى يقومون فيه بتسليم الخطابات الموجودة معهم[1]. واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى وفد إلى مصر فى عصر "سعيد" شاب ايطالى اسمه "كارلو ماراتى" قام بمزاحمة الهجانين المصريين فى حرفتهم، وإنشاء مكتبين للبريد أحدهما فى القاهرة والآخر فى الاسكندرية، وكان يتسلم الرسائل الواردة على البواخر فى ميناء الاسكندرية، ويسلمها لأصحابها لقاء أجر معين، كما جهز قافلة من الإبل تقطع الطريق بين القاهرة والاسكندرية فى نهار وليلة كاملين.

ولما توسعت أعماله أسس شركة تدعى شركة البوستة الأوروبية، استطاع خلالها منافسة البريد الحكومى مما أدى إلى اغلاق جميع المكاتب الحكومية.

---

(١) أمين سامى: تقويم النيل، جـ٢، ص ٣٨٦.

وفى عصر اسماعيل ١٨٦٣- ١٨٧٩ تغيرت الأحوال حيث شملت الخدمات البريدية معظم أنحاء مصر وتأسست العديد من المكاتب البريدية، وأنشئت إدارة عامة للبريد فى الاسكندرية، كما صدرت أول لائحة لترتيب "مصلحة البوستة الخديوية" فى يناير ١٨٦٦ وخلال ذلك صدرت أول مجموعة لطوابع البريد المصرية وهى تعد الآن من أبرز المجموعات البريدية النادرة وكانت مكونة من سبعة طوابع كالاتى (٥ بارة ولونها بنى، و١٠ بارة ولونها ترابى، و٢٠ بارة ولونها أزرق باهت، وقرش صاغ ولونها بنفسجى باهت، وقرشان ولونها أصفر، وخمسة قروش ولونها وردى، وعشرة قروش ولونها إردوازى وكان منقوشا على كل منها ما يأتى (بوستة مصرية) وعلى أحد الوجهين بالتركية (بيش بارده) أى خمس بارات مثلا وبدئ فى تلك السنة أيضا بوضع أنظمة ثابتة للمعاملات البريدية وبدأ العديد من الشباب المصريين الذين درسوا فى مدارس أجنبية يندمجون فى خدمة البريد كما إنضمت مصلحة البريد المصرية رسميا لاتحاد البريد الدولى فى عام ١٨٧٤. [1]

واستمرت إعداد المكاتب البريدية فى التزايد، كما رتبت عدة خطوط بريدية نيلية، وتم توزيع الرسائل بالمنازل بأغلب الجهات، وأنشئ نظام الطوافة، وأدخل نظام الحوالات وأنشئ قسم تحصيل الوثائق ، كما أنشئ صندوق التوفير وأنشئت مكاتب بريد متجولة فى السكك الحديدية والبواخر النيلية، ووضعت صناديق البريد الحمراء بالشوارع، ووضعت عليها بطاقات بمواعيد التفريغ، ونقشت على أختام البريد الساعات والدقائق وبدئ بتوزيع الطرود فى المنازل، وتأسس قلم لقبول الاشتراك فى الصحف الأجنبية وأنتشرت خطوط الطوافة.

وخلال هذه الفترة ظهرت طوابع بريد متعددة أبرزها ما صدر فى عام ١٩١٤ يحمل صور الآثار المصرية. وبعد حصول مصر على استقلالها طبقا لتصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ تولى إدارة البريد فى عام ١٩٢٣ أول مدير مصرى وهو "حسين باشا مظلوم" الذى أدخل العديد من الاصلاحات منها تعميم البريد المستعجل وتوزيع البريد فى القرى بواسطة الموتوسيكلات بدلا من الدواب وأسس صناديق خاصة بالمطبوعات والملفات الكبيرة، كما أنه قام بتمثيل مصر فى مؤتمرى البريد فى أستوكهلم ولندن، وأنشئت فى عهده الطوابع التذكارية للمؤتمرات المختلفة، وانتشر نقل البريد بالطائرات وفى عام ١٩٣٤ وبمناسبة انعقاد مؤتمر البريد العالمى العاشر فى القاهرة أمر "الملك فؤاد" بإنشاء متحف للبريد، ونظرا لأن القدر لم يمهله الوقت لافتتاحه، فقد افتتحه ابنه "الملك فاروق" رسميا فى ١٨ يناير ١٩٤٠ ومنذ ذلك

---

[1] للتفاصيل انظر: مصلحة البريد: تاريخ البريد فى مصر ١٩٣٤

الوقت أخذت مصر تعهد إلى بعض فنانيها المتميزين بمهمة تصميم وابتكار الطوابع التى تعبر عن معالمها، وتسجيل أهم الأحداث فى مسيرتها وتخليد ذكرى رجالاتها ويشتمل هذا المتحف على اثنى عشر قسما وهى القسم التاريخى، وقسم أدوات البريد، وقسم الكساوى، وقسم الطوابع، وقسم المبانى، وقسم النقل، وقسم المؤتمرات، وقسم الخرائط والاحصاء، وقسم البريد الجوى، والقسم الأجنبى، وقسم الأختام والبصمات وقسم الصور والمطبوعات. ويشتمل قسم الطوابع على مجموعات الطوابع المصرية الكاملة، والتى تتعرض لمختلف المناسبات القومية والدولية والوطنية، كما يشتمل على مذكرة تاريخية باللغتين العربية والفرنسية عن طوابع البريد المصرية منذ إنشائها.

وتساير هيئة البريد حاليا التطورات الحديثة فى الدول المتقدمة بإدخال نظام الشيكات البريدية كوسيلة عصرية من وسائل التعامل كما تعطى اهتماما كبيرا لتطوير رسالة البريد على المستوى العالمى من ناحية ومؤكده على دور مصر فى المجال الدولى من ناحية أخرى ولذلك فقد شاركت مصر فى الاتحاد البريدى العالمى، واتحاد البريد العربى، واتحاد البريد الأفريقى، واستطاعت على الجبهات الثلاث أن تقوم بأدوار إيجابية فى مجال البريد، وأن تجعل من رسالة البريد رسالة تعاون بين الدول الشقيقة والبلاد الصديقة.

كما حرصت هيئة البريد على أن تصل بخدماتها البريدية إلى أعماق الريف فى بلادنا. يضاف إلى ذلك أن مرفق البريد إستطاع أن يثبت أنه على مستوى المسئولية فى كافة الأوقات وكانت حرب أكتوبر ١٩٧٣ اختبارا حقيقيا لكفاءة ومقدرة البريد المصرى على تحقيق الاتصال بين الجبهة الداخلية وجبهة القتال، وكانت رسائل البريد وقتذاك بمثابة نبض الحياة المتدفق فى شرايين الأمة المصرية.

سابعا: الأفراح فى مصر الحديثة بين الاستمرارية والتغير

على الرغم مما اتسمت به الحياة الاجتماعية فى مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين من ايقاع شرقى يتميز بالثبات والاستقرار والبطء فى التغيير. ومع أن الشعب المصرى يعد من أكثر شعوب العالم تمسكا بعاداته وتقاليده وتراثه فإن ما حدث فى السنوات الأخيرة من متغيرات حضارية مثل زيادة نسبة التعليم بين الإناث والذكور، ومثل ما أدخلته وسائل المدنية الحديثة من أجهزة ووسائل اتصالات وفضائيات قد هز الكثير من هذه الأوضاع واستطاع النفاذ خلف ستار التقاليد السميك مما أدى إلى ذبول بعض العادات القديمة المتوارثة، واستبدالها بعادات جديدة وافدة، ومن هذه العادات ما يحدث حاليا فى تقاليد الزواج والأفراح فبعد أن كان المصريون يزوجون أولادهم فى سن مبكرة، إذ لا يكاد الفتى يبلغ الحلم حتى تبحث له أسرته عن بنت الحلال، فإنه بعد انتشار التعليم بين الإناث والذكور لم تعد فكرة الزواج المبكر مطروحة إلا نادرا، وبعد أن كان المصريون يتمسكون بضرورة زواج الأقارب فقد توقفوا عن ذلك بعد أن ثبتت أضراره طبيا خاصة إنجاب الأطفال، وبعد أن كان الأهل يتحكمون فى اختيار زوجة الابن التى كانت تختار له أحيانا منذ الطفولة فقد أصبح هذا الاختيار من حق العروس والعريس معا، وبعد أن كان زواج أحد أبناء البلدة أو الحى أمر يخص أبناء الحى جميعا لا الأسرة وحدها، فقد اقتصر أمر عقد معظم حفلات الزفاف على الفنادق والأندية بعد أن ضاقت البيوت عن استقبال المدعوين.

وبعد أن كانت هناك ضرورة لحضور البلانة مع العروس فى ليلة زفافها فقد تلاشت مثل هذه العادة التقليدية، وبعد أن كانت الخياطة من الشخصيات التى يتردد قدومها على بيت العروس لاختيار تفصيله فستان الزفاف، فإن عادة شراء ثوب الزفاف جاهزا أصبح معروفا، وبعد أن كانت الصديقات والقريبات يقمن بدور تجميل العروس وتزويقها أصبح الكوافير الآن يؤدى نفس هذا الدور، وبعد أن كان توزيع علب الملبس وأكواب الشربات الأحمر القانى وسط هرج وضجيج الأطفال من العادات المألوفة فى الأفراح فقد أندثرت هذه العادة، ولم يعد لها مكان خاصة ، خاصة فى الفنادق التى لا يدعى إليها الأطفال طبقا لأنظمتها المتبعة.

وفيما يلى نعرض لعادات وتقاليد المصريين فى الزواج ابتداء من الخطوبة وحتى الزفاف منذ أن شاهدها المستشرق الانجليزى إدوارد وليم لين[١]، وأخته صوفيا[٢]، خلال عصر محمد على حيث كان القديم الموروث لا يزال قائما وكانت مصر لا تزال تنتسب إلى مجتمعات العصور الوسطى فى الكثير من مناحى حياتها. ثم ما طرأ على ذلك من مستحدثات وتغييرات فى عهد خلفاء محمد على حتى نصل إلى ما هى عليه الآن.

أولاً: مرحلة الخطوبة:

تحدث لين عن الخاطبة ودورها فى مهمة البحث عن العروس فذكر أنها كانت تحترف مهنة الدلالة التى تبيع الحلى والملابس النسائية حتى يسهل عليها الدخول إلى قلاع الحريم، ومساعدة الرجال فى اختيار العروس الملائمة نظير أجر معلوم، وكانت العادة أن تذهب أم الخاطب وبعض قريباته مع الخاطبة لزيارة عدة بيوت، باعتبارهن زائرات فقط، وقد لا يلبثن طويلا إذا لم يصادفن مرادهن، ويفهم الطرف الآخر طبعا القصد من الزيارة ولكن إذا سمعن أن من بين نساء المنزل فتاة تتحلى بالصفات المطلوبة يكشفن عن قصدهن ويستفهمن عن أحوال الفتاة التى يقع عليها الاختيار وعما تملكه من حال أو متاع.

ولما كان غير متبع خلال هذه الفترة رؤية أسرة الخاطب من النساء للعروس إلا بعد زفافها فقد كانت الخاطبة غالبا هى مصدرهم، فى وصف الفتيات، التى كثير ما تبالغ فى وصفهن، وإلى جانب ذلك فقد كانت الخاطبة تبالغ لدى أسرة الفتاة فى وصف الشاب الراغب فى الزواج بما ليس فيه أحيانا فتصفه بلطف المعاشرة والأناقة والثراء وحب الترف والكرم، والرغبة فى الملاطفة والدلال حتى تتمكن من الحصول على موافقة العروس وأسرتها، وبعد أن تستعلم الزائرات عن أحوال العروس يقدمن تقريرهن إلى الراغب فى الزواج فإذا رضى بذلك البيان يقدم إلى الخاطبة هدية، ويرسلها ثانية إلى عائلة الفتاة لتعرفهن رغباته.[٣]

---

(١) زار لين مصر ثلاث مرات كانت الأولى فى أواخر عام ١٨٢٥م وكان وقتذاك شابا فى الرابعة والعشرين من عمره جاء ليدرس حضارة قدماء المصريين، ولكن القاهرة التى استولت على لبه وشعبها الذى شغف بالعيش معه جعله يرى أن دراسة الأحياء امتع له وألذ من دراسة تاريخ الأموات مما صرفه عن قدماء المصريين إلى الكتابة عن أحفادهم. واستمر لين بمصر ثلاث سنوات يدرس حياة الناس كما يدرس اللغة العربية حتى تملك ناصيتها كتابة ومحادثة وبعدها عاد إلى انجلترا فى أواخر عام ١٨٢٨ بعد أن درس الحياة فى القاهرة دراسة مستوفاة، وجمع فى مخطوطاته مسودة كتابه الذى صدر بعنوان The Manners and Customs of the Modern Egyptians. ورغبة من لين فى الاستزادة ببعض المعلومات عاد إلى مصر فى عام ١٨٣٣ حتى يسد بعض الثغرات فى كتابه، ولما رجع إلى انجلترا أصدر هذا الكتاب. أما الزيارة الثالثة فكانت فى عام ١٨٤٢ وكان هدفها الإعداد لمعجم عربى شامل. للتفاصيل انظر: نجيب العقيقى: المستشرقون، جـ٢، ص ٤٨٠.

(٢) صحبت أخيها ادوارد خلال زيارته لمصر، ولها دراسة عن الجوانب والأسرار الخفية من أمور الحريم فى أسرة محمد على وغيرها تفوق فى غزارتها أى مصدر آخر ويتضح ذلك من كتابها الى ظهرت طبعته الأولى فى عام ١٨٤٤ تحت عنوان: The English Woman In Egypt قامت الدكتورة عزة كراره بترجمته فى عام ١٩٩٩: تحت عنوان حريم محمد على باشا.

(٣) ادوارد لين: المرجع السابق، ص ١٠٠.

واستمرت هذه الأمور على حالها حتى أوائل القرن العشرين تقريبا، حيث بدأ بعضها في التغير فقد اتسع دور الخاطبة، وازدادت معرفتها بأخبار الفتيات الراغبات في الزواج حيث كانت تزور البيوت تتصل بالأمهات وتسأل عن الشابات في سن الزواج، وتتعرف أخبارها وتقف على رأى الأم في الزوج الذى تبتغيه لابنتها إذا ما سهل الله لها بابن الحلال، وكانت الأم تؤكد على الخاطبة أن تكثر في التردد عليها وتوعدها بأنها ستعطيها ما تريد من المال إذا جاءت لابنتها بالعريس المنشود، وبعد ذلك تذهب الخاطبة إلى منازل الأسر التى بها شباب يريدون الزواج، وتكون واسطة بين أهل الزوج والزوجة في تعريف هؤلاء بأولئك وكانت أحيانا تبالغ في وصف حال الفتاة وأصلها فتقول مثلا ان لها وجه مدور كالصنية، وعيونها عيون الغزلان، وفمها خاتم سلمان وصدرها بيض نعام وأنفها مثل النبقة، وأسنانها لؤلؤ، وانها إذا تكلمت تناثر اللؤلؤ من بين شفتيها[1]، وزيادة في تشجيع الشباب على التقدم لخطبتها تذكر أن الكثيرين تقدموا لها، ولم يوفقوا لأنهم لم يكونوا أكفاء لها وهكذا كانت المفاوضات الأولية تجرى مع الدلالة، ورويدا رويدا تطورت الأمور، وأصبحت اسرة العريس تبعث ببعض نسائها لتسأل وتبحث وتعاين أوصاف العروس المرتجاة بدلا من الخاطبة فيذكر فكرى إباظة أنه كان يتم تحديد موعد الزيارة وتستعد العروس وتنظم نفسها وجمالها وقوامها وترتدى أبدع ثيابها وتعطر جسمها وشعرها بالروائح[2]، وبعد أن تصل أسرة العريس وتشرب القهوة أو الشربات يتم استدعاء العروس فتقبل وهى تتهادى خجلا وتجلس بأدب واحتشام ثم يأتى دور البحث والفحص والتجريب[3]، فتشرع أم العريس أو إحدى قريباته في الحديث مع العروس، وخلال ذلك تحدق في أسنانها لترى إن كانت عيوب أو كسور من ناحية التناسق واللون، ومن الحديث تستنتج خفة الروح أو ثقل الدم، وتعرف نوع الصوت إن كان ناعما أو خشنا أو غليظا[4]، وقد تخرج إحدى قريبات العريس سيجارتها وتطلب من العروس برفق أن تشعل عود الكبريت فتتقدم لتلمح قوامها وقدها، ثم تطلب منها الاقتراب لتشعل عودا آخر، كى تتسع لها الفرصة لتحدق في عينيها عن قرب، وربما تطبطب على صدرها لتلمس ثدييها ببراعة وأحكام[5]، ثم يتم إبلاغ العريس بالتفاصيل بعد ذلك، فإذا اقتنع بما سمعه تقدم للزواج من غير أن ينظرها، ويعرف شكلها وطباعها وأخلاقها وانما ذلك كله بعد الزفاف.[6]

([1]) محمد صبر: حاضر المصريين أوسر تأخرهم، ص ٢٠٥.
([2]) فكرى إباظة: الضاحك الباكى، ص ١٤٧.
([3]) محمد جبريل: مصر فى قصص كتابها المعاصرين، ص ٣١٦.
([4]) فكرى إباظة: المرجع السابق، ص ١٤٩.
([5]) نفسه، ص ١٤٩.
([6]) عامر العقاد: أحمد أمين حياته وأدبه، ص ص ٤٠- ٤١.

وبالرغم من كل هذه الاحتياطات فقد كان العريس ينخدع احيانا بالأوصاف التى تنقل له عن العروس، ومن الأمثلة على ذلك قصة زواج شاعر النيل حافظ إبراهيم فعلى الرغم من اختيار زوجة خاله للعروس وتصديقه للأوصاف التى خلعتها على عروسه المقبلة واستسلامه لمراسم عقد الزواج فقد أحس حافظ بفجيعته فى نفسه عندما تطلع إلى عروسه، ولم يرقه منظرها، بل أوجد أنفها الضخم رهبة فى نفسه مما جعله يخفق فى تجربة الحياة الزوجية، ولم يعد إلى تجربة الزواج طيلة حياته.[١]

ومعنى ذلك أن الخاطبة أو الأسرة هى التى كانت تختار العروس ولم يكن لأى من الخطيبين رأى فى إتمام ما يحدث، فلا العريس رأى العروس قبل أن يخطبها ولا هى رأته أو كلمته قبل ذلك بل كانا غالبا لا يعرفان شيئا عن بعضهما إلا ما ترويه الخاطبة أو الأسرة فقط خاصة وأن الانفصال الحديدى بين الجنسين كان يحيط الفتاة بالغموض فهى تحت حجابها الذى يغطى جمال وجهها أو قبحه لا يراها العريس إلى أن تصبح فى حوزته مما أوجد فى العديد من الأحيان حدوث نفور بين الزوجين عند مكاشفة بعضهما للبعض فى ليلة الزفاف[٢]، خاصة عندما يصاب الرجل بخيبة أمل فى رؤية الجمال المنتظر فى فتاة أحلامه فيجدها عكس ذلك مما زاد من عملية تعدد الزوجات.

وعلى أى حال فقبل أن توافق أسرة العروس على خطبة ابنتهم للعريس المنتظر كانت تتم التحريات عنه، وعن أسرته وسلوكه وماليته وغير ذلك، وربما يسألون عنه فى قسم الشرطة التابع له . وقد تستمر التحريات ثلاثة أشهر أو يزيد حتى يصدر القرار بالموافقة ثم يجئ دور الكلام عن المهر والشبكة وإذا وافق الطرفان على شروط بعضهما يسمح للخطيب بالتردد على منزل أسرة العروس، ومقابلة رب الأسرة وزوجته، وتقديم الدبلة والشبكة وسط إجراءات ورسميات ومراسيم.

ونتيجة للتطورات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التى طرأت على مصر خلال السنوات الأخيرة وفى غمار الحراك الاجتماعى السريع الذى طرأ على المجتمع المصرى بدأت الأمور تتغير[٣]، فقد تلاشت هذه الصور تدريجيا، فالعصر الحالى الذى نعيشه يشهد تطورا حضاريا سريعا فى كافة مناحى الحياة، كما بدأت النواحى الاجتماعية فى مختلف مضامينها وأساليبها تصاغ صياغة جديدة، فأخذت تظهر عادات وتقاليد جديدة أدت إلى ذبول

---

(١) محمد كامل جمعه: حافظ إبراهيم ، ص ص ٥١- ٥٢.
(٢) احمد شفيق: مذكراتى فى نصف قرن، جـ١، ص ٧٣.
(٣) جلال امين: ماذا حدث للمصريين- تطور المجتمع المصرى فى نصف قرن ١٩٤٥- ١٩٩٥ ، ص ٤٨.

العادات والتقاليد القديمة، وخرجت المرأة إلى الحياة العامة وبدأت الارتباطات بين الأباء والأبناء تتغير وأخذت البنات تطالب بمزيد من التحرر بشكل قد لا تستسيغه عقلية الأب أو الأم ولم يعد ثمة ما يحول بين مقابلة الفتى للفتاة قبل الزواج والاتفاق على كل شئ قبل أن يعرف الأهل أى شئ ، عن هذا الاتفاق ثم تبلغ الأسرة بعد ذلك بتفاصيل ما جرى .

والسؤال المطروح هو هل كان نظام الخطبة واحد عند كافة الطبقات فى مصر؟ الواقع أن هذا النظام كان متبعا لدى الكافة فهو عند أبناء الباشوات والذوات مثله عند الطبقة الوسطى والعامة وأن دور الخاطبة كان متبعا فى أفراح أبناء الباشوات والذوات مثلما كان متبعا لدى العامة، وإلى جانب ذلك فإن عدم السماح برؤية العريس لعروسه ولا لأحد من أفراد أسرته من السيدات إلا بعد زفافها[١]، كان متبعا داخل قصور الأسرة الحاكمة، كما كان سائدا عند العامة، هذا إلى جانب أن أفراد الطبقة الراقية كانوا يفضلون الزواج المبكر والزواج من الأقارب خاصة أبناء الأعمام كما كان يفعل أفراد العامة الذين كانوا يرغبون فى ذلك بحجة التماسك الاجتماعى للأسر، وكما أنه لم يكن لبنات العامة الحق فى اختيار الزوج فإن ذلك كان متبعا لدى الأميرات إذ لم يكن لهن الحق فى اختيار ازواجهن، كما أن الزوج كان لا يختار زوجته عن عاطفة حب متبادلة أو لتوافق فى الطباع أو الأفكار[٢]، بل كانت أحيانا المنفعة هى التى تقود بعض الأسر لاختيار الزوجات يضاف إلى ذلك أن تمسك الأسر بخطبة الأبنة الكبرى قبل الصغرى إذا تقدم أحد لخطبتها كان موجودا سواء عند الأغنياء أو العامة إلى أن تغير ذلك فى الوقت الحالى.

ثانيا: مرحلة عقد القران:

يذكر لين أنه بعد أن يتم اختيار الخاطب لعروسه يذهب بعض أقاربه لمقابلة وكيل العروس، للاتفاق معه على مقدار المهر[٣]، وكثيرا ما تحدث المساومة فى تحديد المهر عند العامة خاصة المؤخر منه إلى ان يتم الاتفاق، ثم يحدد بعد ذلك عقد الزواج الذى يسمى كتب الكتاب[٤]. وبعد أن يتم اجتماع المدعوين يذهب العريس مع بعض أصدقائه إلى منزل العروس ويحضر المأذون ثم يتم عقد الزواج بشهادة شاهدين، وأخذ موافقة العروس، ثم يقرا

---

(١) يذكر أحمد شفيق باشا أن احدى الأسر عدلت عن الموافقة على زواجه من ابنتها بمجرد أن طلبت أمه رؤية العروس قبل خطبتها. أنظر: مذكراتى فى نصف قرن ، جـ١، ص ٧٣.

(٢) علماء الحملة الفرنسية: موسوعة وصف مصر، المصريون المحدثون، جـ١، ترجمة زهير الشايب، ص ٨٠.

(٣) اختلف مهر الثيب عن مهر الفتاة العذراء، فهو يقدر غالبا بربع مهر العذراء، أو ثلثه أو نصفه كما أنها لم تزف عند الزواج، ويكفى أن تقول المرأة لمن يتقدم لزواجها "وهبت لك نفسى" فتصبح امرأته شرعا متى كانت بالغة حتى من دون شهادة . أنظر: لين: المصريون المحدثون ، ص ١١١-١١٢.

(٤) قلما كانت توجد وثيقة مكتوبة تثبت الزواج فى ذلك الوقت.

الحاضرون الفاتحة، ويدفع العريس مقدم المهر ويعقد بعد ذلك العقد فيجلس العريس أمام وكيل العروس، ثم يمسك كل منهما يمنى الآخر ويرفع إبهامه ويضغط به على إبهام الثانى ويتولى أحد الفقهاء تلقين الطرفين صيغة العقد، فيضع على اليدين المتماسكتين منديلا[١]، ثم يستهل العقد عادة بخطبة لا تخرج عن بعض الإرشادات والصلوات وبعض الآيات والأحاديث التى تشير إلى فضل الزواج ومزاياه، ثم يطلب من الوكيل أن يقول أزوجك ابنتى (أو موكلتى) فلانه (ويسمى العروس) العذراء البالغة إذا لم تكن قد تزوجت من قبل أو الثيب إذا كان قد تكرر زواجها بمهر قدره كذا ثم يطلب من العريس أن يقول أقبل زواجها وأخذها تحت رعايتى وأتكفل بحمايتها، وأشهدوا على ذلك أيها الحاضرون ويردد الوكيل قوله هذا على العريس مرة ثانية وثالثة فيجيبه الأخير فى كل مرة بما سبق، وحينئذ يقول كلاهما "والسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين آمين" ويعيد الحاضرون قراءة الفاتحة.

وخلال ذلك تجلس العروس فى أبهى زينتها، وخلفها الصبايا بالزغاريد تنطلق ، وقد وضعت قدميها فى وعاء به نعناع أخضر كما تضع فى فمها قطعة من السكر ثم ترسل هذه القطعة إلى الزوج ليرسل بدلا منها مبلغا من النقود هدية لعروسه دلالة على الانسجام المنتظر فى حياتهما الزوجية، كما تضع على رأسها المصحف الشريف مفتوحا على سورة يس، وزيادة فى البهجة والفرح تضرب الدفوف والطبل البلدى والمزمار وتزغرد النساء وينثر الملح على العروس خشية الحسد، ويظهر الجدعان والفتوات من أهل الحارة أمثال المعلم شلبى والأسطى حنفى وزعيط الفلاح وصغار الموظفين من أقارب العروسين أمام الشوارع والطرقات المسدودة وهو يشعلون مصابيح من الورق ويتبارون بالبنابيت والعصى (لعبة التحطيب) ويلعبون بالجريد والسيوف ويضربون البارود[٢]، ويسير بعضهم على عكاكيز حديدية مرتفعة، ويزينون رءوسهم بالريش ويتضاربون بالعصى الطويلة، بينما يجلس بعضهم القرفصاء أمام منازلهم المبنية بالطوب اللبن والصفيح أو على أقفاص من سعف النخيل حيث يتناولون المشروبات الشعبية مثل البوظة وعرق البلح ويتعاطى البعض منهم الحشيش والأدخنة وهم يستمعون إلى قصص أبى زيد الهلالى، وعنترة وإلى الأمثال العامية، كما يشاهد الصبية ألعاب خيال الظل والقراقوز وغيرها، وتظل النساء من فوق أسطح المنازل لمشاهدة

---

(١) يحدث أحيانا أن يخطف أحد المدعوين المنديل للاحتفاظ به وأحيانا يتمكن المأذون من أخذه.

(٢) حول هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى دار الوثائق: الداخلية عربى أوامر (١) أمر كريم بتاريخ ١٢ رمضان ١٢٧٥هـ (١٨٥٩م) وانظر أيضا دفتر أنظمة ولوائح رقم ١٨٩١ ، ص ٥٤ وثيقة رقم (٩) بشأن منع ضرب البارود واللعب بالجريد والنبوت والبنادق والسيف والرمح فى الأفراح والمواسم بالقرى.

ما يحدث وهن فرحات مستبشرات للعريس والعروس بعقد قران سعيد هذا عن مراسيم عقـد القران عند العامة فماذا عند أبناء الباشوات والذوات.

الواقع أن بنات الذوات كن كبنات العامة لا يؤخذ رأيهن فى اختيار العريس المنتظر. فالفتاة تنشأ وتربى فى انتظار اليوم الذى يسلمها فيه والدها إلى كنف زوج غريب عليها فـى شخصه وطريقة تفكيره[1]، أما عن الاختلاف بين افراح الذوات والعامة فينحصر فى لـوازم الفرح، والأموال الفلكية التى يدفعها الذوات للمهر كرمز للمباهاة والتفاخر .

وفى حضور أمراء العائلة المالكة ونظار الحكومة وكبار العلماء والأعيان وتقديم أفخم المأكولات والمشروبات لهم واستبدال المأذون بشيخ الجامع الأزهر الذى يتهيأ لكتابـة العقـد فيوفد الشهود يتقدمهم الأغوات إلى باب حجرة العروس المسدول عليه سـتار مـن الحريـر الأزرق الموشى بالذهب حتى يحجب ما وراءه، ويسألوها الموافقة على الزواج مـن الأميـر فلان أو الوجيه فلان ويرددون عليها السؤال مرات إلى أن تجيب العروس بالقبول فى تمنـع وحياء. وفى أعقاب ذلك ينصرف الشهود لإبلاغ شيخ الأزهر صـيغة الجـواب فيبـدأ فـى التصديق على العقد، وبعدها ترتفع الزغاريد، وتقدم أكواب الشربات فى أقداح مـن الـذهب، وتوزع الشيلان والحلوى والعطايا والهدايا الفاخرة على جميع الحاضرين.[2]

ومن أبرز أفراح أنجال الباشوات التى تتردد فى التاريخ وما حدث فيهـا مـن بـذخ وألعاب وفرق عسكرية تعزف العديد من الألحان وراقصون وراقصات وعروض وتمثيليات، وتوزيع مرطبات ومأكولات وكساوى وهدايا نذكر ما حدث فى أفراح إسماعيل باشا[3]، ابـن محمد على، ومحمد بيك الدفتردار على نظلة هانم ابنة الباشا[4]، وكامل باشا[5]، على زينـب هانم صغرى بنات الوالى وشقيقة أحمد باشا ابن عم محمد على على مختار بـك الـذى اتـم تعليمه فى باريس.[6] وكما نذكر ما حدث خلال أفراح أنجال إسماعيل باشا الأربعـة والـذى عاشت مصر خلاله أيامها الأربعين فى احتفالات فخمة وإسراف اسطورى لم تر مصر مثلـه فى عصرها الحديث، والتى ذكرت الناس بليالى ألف ليلة وليلة، وباحتفالات قطر الندى ابنـة

---

(1) صوفيا لين: حريم محمد على ، ص ١٨٦.
(2) أحمد شفيق: مذكراتى فى نصف قرن، جـ١، ص ٧٠
(3) قتل فى شندى بالسودان حرقا على أثر مؤامرة دبرها له الملك نمر الذى دعاه وبطانته إلى وليمه بقصره فى شندى وكان من القش، فأجابوا دعوته وذهبوا إلى القصر ورحب بهم الملك ترحيبا عظيما، وأمر أعوانه أن يجمعوا ما استطاعوا من الحطب والقش والتبن حول القصر وأشعل النار فيه. وقد حصرت النيران إسماعيل باشا وحاشيته ولم يستطيعوا الإفلات من الموت.
للتفاصيل: انظر الرافعى: عصر محمد على، ص ١٦٦- ١٦٧.
(4) للتفاصيل أنظر: عبد الرحمن الجبرتى: عجائب الأثار فى التراجم والأخبار، جـ٤، القاهرة، المطبعة الشرقية، ١٣٢٢هـ، تحت عنوان: ثم دخلت سنة تسع وعشرين مائتين والف ، ص ٢١١.
(5) عمل ياورا وسكرتيرا خاصا لمحمد على، وانعم عليه السلطان برتبة الباشوية بعد أن رشح ليكون زوجا لابنه والى مصر. انظر: صوفيا لين: حريم محمد على، ص ٢٨٠.
(6) صوفيا لين: المرجع السابق، ص ٢٦٨- ٢٧٩.

خارويه ففى حفل مهيب عقد الخديو اسماعيل قران أولاده الثلاثة وإحدى بناته فى وقت واحد إذ عقد لولى عهده توفيق على الأميرة امينة هانم بنت الهامى باشا، وللأمير حسين كامل على الأميرة عين الحياة بنت الأمير أحمد رفعت، وللأمير حسن على خديجة هانم بنت الأمير محمد على كما زوج ابنته الأميرة فاطمة الزهراء للأمير طوسون نجل محمد سعيد باشا.[١]

وإلى جانب ذلك فهناك فروق عديدة بين أفراح الباشوات والعامة ففى حين كان يدعى لإحياء افراح أبناء الباشوات كبار الموسيقيين المشهورين، ويدفع لهم المبالغ الطائلة مقابل إحيائهم لهذه الحفلات، فإن أنجال العامة كانوا لا يدفعون أجرا للموسيقيين والمهرجين والراقصين خاصة إذا كانوا من أصدقائهم أو كانت تدفع لهم النقود من الحاضرين الذين جاءوا لدفع النقوط والمساهمة فى إحياء الفرح.

وبينما كان أبناء الذوات يتفاخرون بما لديهم من مال وعقار فإن أهل العروس من العامة كانوا لا ينظرون إلى ذلك بل إلى حسن سمعة العريس وأخلاقه ودينه، ومعاملته مع الناس، كما أن أهل العريس، كانوا يفضلون البنت التى يعرفون عن أمها حسن العشرة مع زوجها تمكسا بالمثل الذى يقول إكسر البصلة وشمها تطلع البنت لأمها، "وخذ بنت الحلال ولا تأخذ بنت المال" .

وبينما كان أبناء الذوات يتفاخرون بنسبهم التركى ومصاهرة العثمانلى فإن أبناء العامة كانوا يفضلون ابن البلد على الأجنبى حتى أن بعضهم كان يغالى فى هذا فلا يزوج ابنته إلا لأحد من أبناء قريته، كما كانوا يفضلون صاحب الصنعة الذى يعيش من عرق جبينه فيقولون "الصنعة خاتم ذهب بيد صاحبها".

وبينما كان العريس من أبناء الباشوات يقدم لعروسه هدية الشبكة مرصعة بالذهب والجواهر، كما يقدم المهر الذى يتباهى به أسر الذوات فقد كان العريس من أبناء العامة يقدم ما يتلاءم مع قدراته وإمكاناته فقد تكون هديته عقدا من الخرز أو أسورة من الزجاج الملون وشيئا من الأقمشة الرخيصة التى يتخذ منها نساء الريف ثيابهن .

وبينما كانت الهدايا المقدمة لإنجال الذوات والأمراء والكبراء تمثل صورة من الحياة الطبقية الصارخة التى كانت تعيش فيها مصر فى ذلك الوقت والتى توضح التنافس الصارخ بين الثراء والترف التى يعيشه أبناء الحكام وحالات الضنك والبؤس والحرمان التى يعيشها عامة الشعب فهدايا طبقة الحكام كانت عبارة عن مجوهرات وقلائد وماس، أما هدايا الأهالى

---

(١) للتفاصيل انظر: بحثا المعنون أفراح انجال الباشا المنشور فى مجلة الهلال، العدد سبتمبر ٢٠٢ ، ص ٥٦- ٦٥.

لأبناء جلدتهم من العامة فكانت لا تزيد عن السكر والشربات والأرز والشمع والسمن والدجاج والأوز[١].

وبينما كانت تنفق المبالغ الطائلة على الأطعمة الفاخرة التى يتناولها ضيوف أفـراح الباشوات من صحون المحمر والكباب والكفتة فإن ضيوف أفراح العامة كـانوا لا يتنـاولون سوى العدس أو البيسارة أو الفول بالإضافة إلى المش أو الجبن أو الفجل أو المخلل والجميـز أما شرابهم فكان عرق البلح والبوظة، وبينما كانت الشوك والملاعق والسكاكين تستخدم فـى قصور الباشوات فإن العامة كانوا لا يعرفون طريقة استخدامها، بل يجلسون القرفصاء علـى الأرض ويستعملون أصابعهم حيث أنها اسهل عليهم من استعمال أشياء لا يحسنون استخدامها، وبينما كانت الأميرات ومعظم المدعوات يرتدين الملابس الأفرنجيـة الفخمـة التـى جلبـت خصيصا من أشهر محلات الأزياء فى أوروبا[٢]، ويلبســن القلائـد الذهبيـة والمجـوهرات المرتفعة الثمن، وينثرن العملات الذهبية والفضية على الحاضرات فإن بنات العامة كن يلبسن الملابس البلدية البسيطة وينثر عليهم الحاضرات من أقاربهن الشعير والملح لدرء عين الحسود وجلب البركة وبينما كانت أفراح أبناء الباشوات لا تقتصر على ليلة واحدة بل كانـت تتعـدد الليالى قبل ليلة الزفاف اقتصرت أفراح أبناء العامة فى أغلب الأحيان على ليلة واحدة أو أكثر بقليل.

وبينما كانت بنات الباشوات يحصلن على لقب الهانم (الخانم) والبرنسيسة أو الأميـرة فإن بنات العامة كن يحملن غالبا أسماء حفيظة وست الدار ونفيسة، ونعناعة وخضرة، وشلبية.

وبينما سمح لبعض الأميرات أن تكون العصمة فى أيدهن، لتختار الطلاق من زوجها متى شاءت،[٣] ذلك فإنه كان من العيب على بنات العامة أو الطبقة الوسطى أن يتحدثن فـى هذا الموضوع أو يفكرن فيه أو حتى يستحسن سماعه. حقيقة أن زوجة رفاعـة الطهطـاوى وابنه خاله كريمة الانصارى، اشترطت عليه ألا يتزوج عليها، وقد فرض رفاعة على نفسـه أمام زوجته أن يبقى معها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ولا جارية أيا كانت فان تزوج بأخرى كانت زوجته طالقة بالثلاثة ولكن هذا لا يعنـى أن زوجـة رفاعة كـان بيدها

---

(١) ادوارد وليم لين: المصريون المحدثون، ص ١٠٤.

(٢) احمد شفيق: مذكراتى، جـ١، ص ٧٢.

(٣) انظر على سبيل المثال إذن عقد زواج عطية الله هانم بنت عباس حلمى باشا. محافظ ابحاث: محفظة ١٤٩ ملف تراجم البراءات التركية الواردة للديوان قبل نوفمبر ١٩١٤.

العصمة، بل كان من شروطها على زوجها ألا يقترن بغيرها.[1]

وبينما عاشت الأميرات فى قصور فخمة بنيت لهن خصيصا فقد عاشت بنات العامة فى بيوت من الطين أو بيوت أكل منها الدهر وشرب، وسكن بعضهن الخيام، وكل جهازها كان عبارة عن صندوق للملابس وكرسى ومنضدة، وطشت وصينية وأبريق وربما لحاف ووسادتين. وهكذا يتضح لنا الفروق الطبقية الصارخة فى الزواج لدى أبناء الخاصة والعامة.

ثالثا: ليلة الدخلة:

بعد الاتفاق على موعد ليلة الدخلة ينقل الإثاث والمفروشات من بيت العروس إلى بيت العريس، كما يذهب العروس ليلة الدخلة إلى الحمام فى صحبة قريباتها وصديقاتها وهن محجبات وسط مظاهر الفرح، ويسمى ذلك زفة الحمام فيتقدم الزفة غالبا فرقة تتكون من مزمار أو مزمارين وطبول مختلفة الأنواع، وقد يتقدم حاشية العروس رجلان يحملان الأوانى والملابس التى تستعمل فى الحمام على صينيتين مستديرتين تغطيان بنسيج من الحرير، ويوجد أيضا سقاء يروى ظمأ السائرين، ورجلان آخران يحمل أحدهما قمقما مملوءا بماء الورد أو زهر البرتقال يرش منه على السائرين من وقت لآخر، ويحمل الآخر مبخرة يحرق فيها البخور.[2]

وعندما يصل الموكب فى نهاية المطاف إلى الحمام فإن العروس تستعرض على صاحباتها حليها، فتملأ المباخر بالبخور الطيب الرائحة، وتراق العطور بسخاء وتكشف صاحبات العروس عن أجمل زينتهن، وينقضى اليوم فى مرح وبهجة، وتقدم خادمات الحمام القهوة والشربات والفطائر والحلوى.[3]

وبعد الاستحمام تعود العروس إلى منزل أهلها وتتناول مع رفيقاتها العشاء وسط جو من الطرب والأغانى، وبعد ذلك تعجن بعض الحناء، وتضع العروس قطعة من العجين فى يدها ثم تتناول النقوط من ضيفاتها، فتلصق كل منهن قطعة من النقود الذهبية عادة على تلك العجينة فتأخذها العروس، ثم تضيف بعض الحناء إلى يديها وقدميها، وتربطها بالكتان حتى

---

(1) نص عقد هذا الاتفاق كما يلي:
"التزم كاتب الأحرف رفاعة بدوى رافع لبنت خاله المصونة الحاجة كريمة بنت العلامة الشيخ محمد الفرغلي، الأنصاري أنه يبقى معها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى أو جارية أيا ما كانت، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من النساء، أو تمتع بجارية أخرى فإذا تزوج بزوجة أيا ما كانت، كانت بنت خاله بمجرد العقد طالقة بالثلاثة". دار المحفوظات. ملف رفاعة بدوى رافع الطهطاوي وثيقة محررة بخط يده وموقعه منه ومختومة بخاتمه فى شوال ١٢٥٥هـ ومن المعروف أنه كان يمكن للمسلم أن يتزوج من أربع زوجات شرعيات بالإضافة لأى عدد من الإماء يستطيع إطعامه. وهذا التعدد كان أكثر شيوعا عند الطبقات الشعبية.
(2) لين : مرجع سابق، ص ١٠٤ـ ١٠٥.
(3) موسوعة وصف مصر: مصدر سابق، جـ١، ص ٨٢.

الصباح فتصبغ بلون أحمر برتقالى، وتسمى هذه الليلة "ليلة الحنة". وفى نفس الوقت يقيم العريس حفلا لتسلية المدعوين.[١]

وفى اليوم التالى تزف العروس إلى منزل العريس حيث يراها لأول مرة[٢]، وتضاء الشوارع أو الحى الذى يسكنه العريس بالمشاعل والفوانيس والقناديل الصغيرة، ويعلق بعضها فى حبال تمتد من منزل العريس إلى المنازل المقابلة على جانبى الشارع وتعلق أيضا مع القناديل رايات حريرية ذات لونين أحمر وأخضر. وتؤخذ العروس إلى بيت زوجها فى العادة عند الغروب، وكثيرا ما تحمل فى هودج (تختروان) مغطى بشال كشمير، ومحمل على جملين زينت أعناقهما بقلائد حرير وأجراس مختلفة فى رقابهما، يسير أحدهما خلف الآخر[٣]، وأحيانا تسير العروس على قدميها وعلى جانبها امرأتان وأطفال الجيران الذين يشاركون فى الهرج والمرج[٤]، وتصحب العروس بعض صديقاتها معها، وتطلق كثير من النساء الزغاريد وهن يسرن فى ملابسهن الزرقاء[٥] ، ويصدرن أصواتا تعبر عن فرحهن وسط ضجيج كبير من الآلاتية الذين يدقون الطبول وينفخون المزامير[٦]، وتسمى هذه الزفة "زفة العروسة" وقد يتبارز أمام الزفة فلاحان بالنبوت، كما يعرض بعض الحواة حيلهم وبعد أن تصل العروس إلى بيت الزوجية يتم غمس قدمها اليمنى ويدها اليمنى فى اللبن تفاؤلا باليمن والبركة وأن يكون مقدمها منزل الزوجية مقرونا بالخير والنماء ومن العادات الشائعة لدى البعض أيضا أن تقوم صديقات العروس غير المتزوجات اللاتى يصطحبنها بقرصها فى ركبتها اعتقادا منهن أن ذلك سوف يؤدى إلى حصولهن على زوج فى القريب العاجل كما يقوم أصدقاء العريس غير المتزوجين بقرصه بنفس الطريقة على أمل أن تكون لهم عروس مستقبلا.

أما عن العريس فكان غالبا لا يفوته الذهاب إلى الحمام بصحبة بعض أصدقائه حيث يقوم بابلاغ رغبته إلى أسطى الحمام عشية اليوم الذى يرغب أن يذهب فيه إلى هناك، فيسارع العمال بتجهيز الحمام بطريقة لائقة[٧]، وبعد ذلك كانت تقام له زفة تسمى زفة العريس حيث يلبس عادة قفطانا به خطوط حمراء وجبة حمراء ويتوجه إلى المسجد مصحوبا بفرقة طبالين وزمارين وبعض حاملى الشاعل، وبعد أداء الصلاة تعود الزفة من المسجد حيث يزف العريس بالدف وبالموشحات والأوراد كما يشرع المغنون فى الغناء ثم يعود العريس إلى

---

(١) لين : مرجع سابق، ص ١٠٦- ١٠٧.
(٢) ادوارد لين: المرجع السابق، ص ١٠٢.
(٣) نفسه، ص ١٨،
(٤) سوفيا لين: حريم محمد على ص ٦٣.
(٥) وينيفريد بلاكمان: الناس فى صعيد مصر - العادات والتقاليد، ص ٨١.
(٦) سوفيا لين: حريم محمد على ص ٦٣.
(٧) علماء الحملة الفرنسية: مصدر سابق، جـ١، ص ٨٤.

غرفة عروسه حيث يراها لأول مرة ومعها البلانة وحدها فيمنح البلانة عند دخول الغرفة منحة فتنسحب فى الحال، وتترك له العروس وهى مغطية رأسها بشال لا يرفعه العريس قبل أن يهبها هبة مالية تسمى "كشف الوش"[1]، ويقترب الزوج من زوجته المغطاه بنقابها ويسمى باسم الله[2]، وقد يسعد العريس عندما يرى أن وجه زوجته كما وصف له، وقد يشعر بأنه قد حدثت له خديعة ويحس بالفجيعة فى نفسه إذا كان الأمر غير ذلك[3]، ويكون نتيجة ذلك القطيعة التامة وذهاب الزوجة غاضبة إلى بيت أبيها.[4]

ومن العادات المتبعة وقتذاك تقديم الدليل على بكارة الزوجات للأقارب والأصدقاء باعتبار ذلك دليلا هاما على عفة الزوجة.[5]

والسؤال المطروح هو هل كانت هناك شروط يتم الالتزام بها من حيث حسب ونسب كل من العروسين؟

الواقع أنه من الأمور التى كانت متبعة فى حالات الزواج وقتذاك ضرورة أهلية الزوج وكفاءته الاجتماعية من ناحية النسب والوظيفة بالنسبة للزوجة وأسرتها وقصه زواج الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد ورئيس حزب الإصلاح على المبادئ الدستورية من صفية السادات بنت الحسب والنسب والتى أقامت مصر وأقعدتها فى أوائل القرن العشرين، وكانت صدمة عنيفة للتقاليد الموروثة الخاصة بالبيوتات العريقة فى ذلك الوقت لخير دليل على ذلك. ومرجع ذلك أن الشيخ على يوسف ذلك الرجل العصامى أراد أن يقترن بزوجة ذات حسب ونسب، وقد هداه تفكيره إلى أن يطلب يد صفية صغرى بنات الشيخ السادات والتى رآها خلال تردده على أبيها أثناء عمله كصحفى، وعلى الرغم من موافقة صفية على هذا الزواج فقد رفضه والدها مما دفع صفية إلى الالتجاء لخالها، حيث تم عقد قرانها هناك ولما علم والدها بالأمر رفع دعوى أمام المحكمة الشرعية طالبا التفريق بين الزوجين لعدم أهلية الزوج حيث أنه لا ينتسب إلى نسب رفيع مثله، كما أنه يعمل جورنالجى وهى مهنة لم تكن موضع تقدير فى ذلك الوقت حيث يقوم كما ذكر الشيخ السادات فى صحيفة دعواه على

---

(1) لين : المرجع السابق، ص ١١٠.
(2) علماء الحملة الفرنسية: مصدر سابق، جـ١، ص ٨٤.
(3) تذكر صوفيا لين أنها سمعت أن شابا كان قد خطب لنفسه فتاة بناء على تزكية من صديق له، ثم علم بعد ذلك أنها عوراء وذات منظر كئيب ولا تصلح أن تكون زوجة له، ولما حاول التأكد من ذلك طلب من أسرة العروس إرسال والدته لرؤيتها قبل الزواج فاشترطوا عليه فى نظير ذلك أن يتنازل عن أمواله وأملاكه للعروس قبل أن يسمح لوالدته برؤيتها على أن تجلس فى غرفة مظلمة حتى لا يسهل على أحد معرفة إن كانت العروس تبصر بعين واحدة أو باثنتين.
أنظر: حريم محمد على، ص ١٤٣.
(4) علماء الحملة الفرنسية: موسوعة وصف مصر، جـ١، ص ٨١.
(5) كان يمارس هذا السلوك عامة الشعب والأقباط أما البكوات وكبار الشخصيات والذين حصلوا على قدر من التعليم فقد هجروا هذه العادة. علماء الحملة الفرنسية، مصدر سابق، جـ١، ص ٨٣.

الجاسوسية وبث الشائعات وكشف أسرار خلق الله، وبعد أن نظرت المحكمة القضية فـي ٢٤ يوليو ١٩٠٤ أصدرت حكمها بالحيلولة بين الزوجين، ولكن صفية رفضت طلب المحكمة مما أدى إلى إحداث أزمة وانقسام الرأى العام فى مصر إلى قسمين الأغلبية وعلى رأسهم الزعيم الوطنى مصطفى كامل وقفت ضد هذا الزواج، أما الفريق الثانى وعلى رأسه الخديو عبـاس الثانى فقد كان يساند الشيخ على يوسف.[١]

هذا عن طقوس ليلة الدخلة لدى العامة فماذا كانت عليه عند أبناء الباشوات والذوات؟ كان يندر أن يذهب بنات الباشوات إلى الحمام العمومى قبل الـزواج لوجـود الحمـام فـي منازلهم[٢]، بل كان يسبق ليلة الدخلة نقل جهاز العروس وما قدم إليها من الهـدايا والأمتعـة والجواهر والتحف إلى منزل العريس وسط زفة عبر الشوارع.[٣] تتقدمها جوقـة موسـيقية وألعاب بهلوانية وكان يتبع هؤلاء عربات المدعوين وأثنا عشر جملا على كل منهـا هـودج مغطى بقماش قرمزى وبه مجموعة من الاعلام الصغيرة كما فى مواكب الكسـوة والمحمـل وكان هناك عدد من السقائين لتوزيع الماء على المتفرجين. وكانت الهدايا توضع فى أسـبتة مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب على مخدات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس، هذا عدا الأوانى الذهبية والفضية وفناجين القهوة بزخرفتها الذهبية المحلاة بالجواهر وفصـوص الماس والياقوت، وكان جهاز العروس يطاف به فى كل المدينة تتقدمـه فرقـة موسـيقية[٤]، وخلال ذلك كانت الشوارع وشرفات المنازل التى يمر بها الموكب تزدحم بالأهالى والمـارة للفرجة عليه ، وبالنسبة لحفل ليلة الدخلة فقد كانت العروس تزف فى بدلتها المرصعة بالماس وعلى رأسها التاج الهرمى الذى يتألق بالفصوص البراقة ويصطف الأغوات صفين، وبيد كل منهم شمعدانات ضخمة تضئ شموعها كل ما حولها، وبين هذين الصفين تسير العروس فـي أبهى حلل العرس حيث تتضبط دقات الدفوف النحاسية والطبول على وقع خطواتها. وعنـدما تصل إلى غرفة العرش (الكوشة) تجلس على معقد عال فوق مجموعة مرتفعة مـن الوسـائد المطرزة بالساتان الوردى تنثر وابلا من العملات الذهبية والفضية على الجموع وكذلك بارات فضية مخلوط معها شعير وملح لدرء عين الحسود[٥]، كما تظهر بعض المغنيات والراقصات وقد ارتدين ثيابا حريرية مخططة ووضعن على رءوسهن طـرابيش ذات أقـراص مذهبـة،

---

(١) لتفاصيل ذلك انظر كتابنا دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى فى العصر الحديث، ص ١٢٢- ١٢٥.
(٢) لين: المصريون المحدثون، ص ١١١.
(٣) الجبرتى: عجائب الآثار، جـ٤، مرجع سبق ذكره، ص ٢١٤.
(٤) أحمد شفيق: مذكراتى فى نصف قرن، جـ١، ص ٧١.
(٥) صوفيا لين: المرجع السابق، ص ٢٨٢.

وازدانت ضفائرهن بالنقود المذهبة، وطليت وجوههن بالمساحيق الحمراء والزرقاء، بينما ظهر البعض الآخر وقد أسدلن على وجوههن غطاء خفيفا، وهن يسترسلن فى الرقص والغناء الجماعى الذى يتحدث عن جمال العروس ودلالها مما جعلها فريدة العصر بينما كانت الدفوف النحاسية وصاحات الأيدى والطبول تصاحبهن فى الأداء، ويسير خلف هؤلاء صفان من الأغوات. وهم يحملون الصناديق والسلال التى تتألق فيها الهدايا المقدمة للعروس والتى يتنافس الأمراء والأعيان وذوى الحيثات على التباهى بتقديمها.[١]

وبعد نهاية الحفل تخرج العروس من غرفة العرش وتتوجه إلى غرفتها الخصوصية مثقلة بما ترتديه من ذهب ومجوهرات تساندها أربع جوارى.. وفى عصر اليوم التالى ينتظم موكب زفافها للذهاب إلى سراى زوجها من خلال مهرجانات ضخمة يتقدمها الفرسان والموسيقات العسكرية، ويتم خلالها تزيين الحوانيت والطرق التى تمر عليها زفة العروس وهدم مساطب الدكاكين وغيرها لتوسعة الشوارع ثم رشها بالماء[٢]، كما يتنافس أصحاب الحرف فى المشاركة فى هذه المهرجانات بالتفنن فى إعداد المواكب التى يبرزون فيها أعمالهم والتى كانت بمثابة معرض متنقل يمثل الحياة الصناعية والإنتاجية فى البلاد كما تقوم الجوقات الموسيقية بعزف إلحانها، وتقديم أغانيها بينما يقوم آخرون بحمل شجيرات مزدانه بأكاليل الزهور والتيجان ومزخرفة بالشموع المضاءة، والكرات الملونة البراقة هذا إلى جانب اللوحات العريضة من النحاس المذهب المرفوعة على أقواس وخلف هؤلاء يسير المدعون من النساء المرتديات أجمل الفستانات يرددون مقاطع بعض الأغانى.

وبعد أن تصل العروس إلى بيت الزوجية، يسمح للعريس أن يرى وجه زوجته فى المساء المتأخر لأول مرة.[٣]

هذا عن طقوس الزواج عند المسلمين أما بالنسبة للأقباط فإن الأمر لا يختلف كثيرا، بل ينحصر الاختلاف فى إقامة قداس الزواج الذى يتم مساء فى الكنيسة حيث يرتدى العروس والعريس ملابس جديدة فى هذه المناسبة، ويسير الرجال إلى الكنيسة وهم حاملين الشموع

([١]) يذكر الجبرتى فى وصف حفل زفاف نظلة هانم ما قدم لها من الهدايا والأمتعة وان هذه الهدايا كانت تعرض على أم العروس اولا فإن اعجبتها تركتها وإلا أمرت بردها قائلة هذا مقام فلانه، فتتكلف صاحبه الهدية بزيادتها مع ما يلحقها من كسر الخاطر.
انظر. عجائب الآثار، جـ٤ (المحرم ١٢٢٩هـ/ ديسمبر ١٨١٣).

([٢]) وصف الجبرتى حفل زفاف نظلة هانم على محمد بك الدفتردار وما قدم إليها من الهدايا والأمتعة والجواهر، كما وصف موكب زفافها فى وسط المدينة وما حدث له فقال: " اطبق الجو بالغيام وامطرت السماء مطرا غزيرا حتى تبحرت الطرق وتوحلت الأرض وابتلت الخلائق من النساء والرجال المجتمعين للفرجة.. وتكدرت طباعهم وانتقضت أوضاعهم وزادت وساوسهم وتلفت ملابسهم... ولم تصل العروس إلى دارها إلا قبيل دنو الشمس من غروبها. انظر عجائب الآثار، جـ٤، ص ٢١٥.

([٣]) أكدت ذلك صوفيا لين التى حضرت زفاف زينب هانم ابنه محمد على على كامل باشا فذكرت ان العريس لم ير وجه عروسه إلا فى المساء المتأخر وأنه بعد أن أزاح الحجاب عن وجه عروسه تقهقر إلى الوراء يمعن النظر فيها مدة دقيقة حيث كان يتهيا لتأملها لأول مرة. انظر: حريم محمد على، ص ٣٢١.

والمصابيح بينما تطلق النساء الزغاريد، وبعد أن يوجه القس كلامه للعروسين ويتبادلان خاتمى الخطوبة يقوم أحد الحاضرين للتحدث لمجاملة العروسين فيقارن العروس مثلا بالقمر والعريس بالشمس، وقد يحذو آخرون حذو هذا الرجل وبعد انتهاء هذه المراسيم، تذهب العروس فى طريقها لمنزل العريس(١).

وبالنسبة لزواج اليهود المصريين فقد جرت العادة على تزويج الفتاة فى سن مبكرة، وكانت عملية الارتباط بين الرجل والمرأة تمر بثلاث مراحل هى التعارف والخطوبة ثم الزواج، وخلال فترة التعارف كان والد العروس يعقد ولائم ضخمة، وكان يتم فى إطار ذلك التوقيع على السند الخاص بمرحلة التعارف، وعقب ذلك الحفل كان يحق للعريس أن يلتقى مع الفتاة المتعارف عليها فى أوقات متقاربة، وبالنسبة للخطوبة فكان يلزمها توافر ثلاثة شروط هى أن تتم بموافقة الحاخام وفى حضور عشرة أشخاص يكون من بينهم كاتب المحكمة أو أحد الفقهاء، وأن يتم التوقيع على وثيقة الخطوبة أما عن أهم شروط عقد الزواج فقد تضمنت عدم اقتران الزوج بامرأة أخرى إلا بموافقة زوجته الأولى(٢)، والتزام الزوج بالإنفاق على زوجته، وألا يحق له التمتع بمكاسب زوجته وكان المهر الذى يدفعه العريس لعروسه يدون فى عقد الزواج، وكانت مراسم الزواج تصاحب عادة بعقد الولائم الضخمة، وإقامة الاحتفالات الراقصة.(٣)

إن معظم هذه العادات قد تغييرت تقريبا فى غمار الحراك الاجتماعى الذى طرأ على المجتمع المصرى، فأصبحت الفتاة هى التى تختار عريسها أو توافق عليه، وأصبحت تتمرد على محاولة الأهل تزويجها بقريب منها، وترفض بإصرار الزواج على الطريقة التقليدية، لأنها بما اكتسبته من التعليم والخبرة والتفتح العلمى والثقة بالنفس أصبحت لديها الجرأة على التعبير عن مشاعرها الحقيقية، كما أصبحت مؤهلة لزواج يحقق لها الصعود فى السلم الاجتماعى. يضاف إلى ذلك أن نظرة الفتاة وأسرتها فى اختيار العريس قد تغيرت فبعد أن كان يفضل أن يكون موظفا فى وظيفة ميرى (أى حكومية) حتى تضمن لأسرته معيشة مستقرة ومركزا اجتماعيا مرموقا تطبيقا للمثل المصرى القائل : "إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه" أصبح العريس المنشود بين الفتيات حاليا هو الذى يملك شقة وسيارة وأموالا ويكون

---

(١) وينيفريد بلاكمان: المرجع السابق، ص ٨٢- ٨٣.
(٢) يعقوب لانداو وآخرون: تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية ١٥١٧ - ١٩١٤ ترجمة جمال الرفاعى وأحمد حماد، ص ٣٠٥.
(٣) للتفاصيل انظر: رشاد رمضان عبد السلام: النشاط اليهودى فى مصر ١٨٩٧- ١٩٢٢ رسالة ماجستير غير منشورة، آداب اسيوط ٢٠٠٢، ص ٢٥٨- ٢٧٦.

شخص "نيولوك" New Look ولا يهم أن كان يعمل فى مهنة حكومية أو غير حكومية أو كان قد نال قسطا من التعليم أم لا.

هذا عن مواصفات العروس فى اختيار شريك حياتها أما عن العريس فبعد أن كان يفضل الفتاة التى لا تبرح بيتها، وتكون مسئولة عن تنسيق البيت حتى يعود من عمله فيجده مرتبا نظيفا، وتهتم بتربية أطفالها والعناية بهم وتوهبه جوا منزليا هادئا يستقر إليه، وسنين عسل يتجلى خلالها معدنها الأصيل أصبح همه الأكبر هو أن تكون عاملة تشاركه فى مصاريف المنزل وفى أعباء المعيشة وأن يكون راتبها مقبولا يضاف إلى ذلك أنه بالنسبة لعادات أحياء الأفراح فبعد أن كانت الأسر الغنية تحى أفراح انجالها فى منزلها بحفلات تحييها أم كلثوم أو عبد الوهاب يصر حديثو الثراء على إحياء أفراحهم فى الهيلتون أو الشيراتون على أصوات "شعبولا" ورقصات "سنية شخلع" وأمثالها.

وهكذا تغير الذوق المصرى فى غمار الحراك الاجتماعى التى طرأ على المجتمع المصرى.

ومما سبق يتضح أن أفراح الأنجال لدى المصريين عموما كانت تمثل سواء عند الأغنياء منهم أو الفقراء مكانة هامة تبرز فيها العديد من العادات الموروثة والمستحدثة خاصة وأن البحث عن بنت الحلال الذى تسعد زوجها، وتريح قلبه، وتحفظه بحسن تدبيرها، وتكون سترا له فى الدنيا من الأمور التى تهفو إليها القلوب جميعا، وأن العصر الحاضر الذى نعيشه شهد تطورا حضاريا سريعا قلب الأمور رأسا على عقب فى كافة مناحى الحياة الاجتماعية وتغيير بعض تقاليد المصريين المتوارثة وعاداتهم، وظهور عادات جديدة، حلت مكان العادات القديمة الموروثة.

ثامنا: الموسيقى والطرب فى مصر الحديثة بين الاستمرارية والتغيير

بعد الغزو العثمانى لمصر ١٥١٧م فقدت مصطلحات الغناء المصرية مسمياتها العربية واتخذت مقامات تركية وفارسية وغيرها، وعانت الموسيقى العربية من التشتت والاندثار، وأصبح المستمعون يهيمون "بالبشارف" و"أمان أمان"، كما تحول الغناء إلى صناعة للجوارى اللاتى يحترفن الطرب فى الأفراح ولم تلبث الأمور أن تغيرت، وبدأت يقظة الغناء العربى فى الظهور خاصة بعد أن وفد إلى مصر فى نهاية القرن السابع عشر الملحن الشامى المشهور "شاكر الحلبى" الذى تمكن من أن يعلم المصريين فن التلحين العربى القديم.[١]

كما ظهرت طائفة المنشدين الذين ينشدون شعر التصوف والابتهالات والمديح النبوى فى حلقات الأذكار وإلى جانب ذلك إنتشر الغناء الشعبى وكثر المغنون والمغنيات والضاربون على الدف والطار والعود والأرغول والماهرون فى استخدام المزمار، ومن أشهر مطربى مصر فى أوائل القرن التاسع عشر "مصطفى الصيرفى"، و"ابراهيم الوراق"، و"حسن قشة" و"الحبابى".[٢]

وخلال ذلك انحطت منزلة الموسيقى حتى غدت ممارستها مقصورة على الطبقة الدنيا من الناس لدرجة أن اعتبرت مهنة الغناء ماجنة، وشهادة الفنان باطلة[٣]، وانحصر الغناء فى العوالم والراقصات التى كانت الدفوف النحاسية وصاجات الأيدى تصاحبهن فى أداء الأغانى المرتجلة الجماعية وسط ضجيج كبير.

ورغبة من محمد على فى إصلاح الموسيقى المصرية رأى الاستعانة بالموسيقى الغربية فأنشأ فرقة عسكرية موسيقية أحضر لها من فرنسا ما يلزم الجيش من آلات الموسيقى واستعان بعازفين أوربيين لتعليم المصريين فن الموسيقى العسكرية الغربية[٤]، كما أنشأ محمد على مدرسة لتعليم الموسيقى، وجعل لكل آلاى من الجيش معلما أوربيا للموسيقى[٥]، ورغم ذلك فإن التأثير المطلوب لم يؤت ثماره خاصة وأن قاعدة نقل الموسيقى الغربية بأناشيدها ونغماتها إلى بيئة شرقية جعل من الصعب على المصريين استيعابها.[٦]

---

(١) عبد المنعم الجميعى: تطور الموسيقى والطرب فى مصر الحديثة، القاهرة، الإدارة العامة للاعلام الخارجى بوزارة الثقافة، ٢٠٠٥، ص ٢٠-٢١.
(٢) محمد سيد كيلانى: فى ربوع الأزبكية، القاهرة، دار العرب البستانى، ١٩٥٩، ص ٤٣- ٤٥.
(٣) المجلة الموسيقية العدد التاسع عشر فى ١٦ يناير ١٩٣٧.
(٤) انظر: مؤتمر الموسيقى العربية، عام ١٩٣٢، ص ١٦.
(٥) الرافعى: عصر محمد على، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٣٨، ص ٤٢٠.
(٦) كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر ، جـ٢، ص ١٢١.

ولم تتوقف جهود محمد على بل ظل عازما على إصلاح شمل الموسيقى والطرب فى مصر فشمل بعنايته ملحن عصره "محمد القبانى"، كما أنعم على المغنية "ساكنة" بوسام تقدير لفنها وخلال ذلك الوقت برز الشاعر "شهاب الدين محمد" الذى استطاع تحرير الغناء العربى من الرطانة العثمانية، وجمع مجموعة من الموشحات العربية القديمة بكلماتها ومقاماتها وإيقاعاتها فى كتاب أسماه "سفينة الملك ونفيسة الفلك" رسم فيه لمعاصريه صورة فن التواشيح الأندلسية، مما كان له أكبر الأثر فى نهضة الغناء العربى فى مصر.

وبعد وفاة محمد على عام ١٨٤٩م توقف مشروع النهضة وكادت أعماله تندثر خاصة وأن خطة حفيده عباس الأول كانت تسفيه الجهود التى بذلها جده، ففى عهده أصبحت صناعة الموسيقى والطرب ممتهنة، وظلت صناعة من لا صناعة له ولما جاء عصر سعيد باشا ١٨٥٤- ١٨٦٣م ظلت أحوال الموسيقى على حالها فكانت مزيجا من فنون موسيقية فارسية وتركية ويونانية تتميز بتكرار طويل فى الأداء، وفقر فى تعدد الأنغام واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى تولى إسماعيل أريكة الحكم ١٨٦٣م- ١٨٧٩م فتبدلت الأمور وتغيرت الأحوال خاصة وأن إسماعيل اهتم اهتماما بالغا بالموسيقى والغناء، وكان محبا للحفلات والأفراح[١]، فشجع على الأخذ من الموسيقى الغربية بالإضافة إلى الموسيقى التركية مما جعل الموسيقى المصرية تنشأ فى جو من تعدد الأجناس الموسيقية، وتشكل صياغة لغة جديدة لها بعد أن كانت تتخذ من الموسيقى العثمانية طابعا خاصا بها، وورثت جزءا من نظام مقاماتها العتيدة وإيقاعاتها المتسمة بالرتابة والتكرار الممل لدرجة أن التلحين المصرى كان متصلا بالتلحين التركى بشكل كبير.

ومن هنا كان من الطبيعى أن ينمو فن الطرب فى عهده، فقد استحث إسماعيل المصريين على إحياء موسيقاهم الشرقية وأخذ بيد أهل ذلك الفن الجميل.

ومع أن إسماعيل أرسل بعض مشاهير الموسيقى والطرب إلى استنبول وعمل على إدخال التخت الشرقى واستعمال الآلات الوترية فى الموسيقى المصرية الحديثة[٢]، فإنه حاول إدخال الموسيقى الغربية إلى مصر حتى يتعودها الناس، فانتهز فرصة افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م وشيد دار الأوبرا، كما عهد إلى "فردى" الموسيقار الايطالى بتلحين أوبرا عايدة وخلال ذلك ظهر جيل من المطربين والملحنين والعازفين الجدد مقترنا بظهور جيل من الشعراء الذين لم يتأثروا بطريقة الشعر العثمانى، وردوا الشعر المصرى إلى عصر الديباجة

---

(١) عبد الرحمن الرافعى: عصر إسماعيل، جـ١، القاهرة، النهضة المصرية ١٩٤٨، ص ٢٨٦.
(٢) وزارة المعارف: اسماعيل بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته، دار الكتب ١٩٤٥، ص ٣٦٢.

العربية أيام العصر العباسي الأول وكان رائدهم فى ذلك محمود سامى البارودى[١]، كما بزغ نجم الشيخ "محمد عبد الرحيم" المشهور بالمسلوب الذى يعد خير من أنشد الأذكار الصوفية، ومن أوائل من قام بتأسيس مدرسة غنائية مصرية الطابع بعد أن كانت خليطا من الموسيقى الأندلسية والأنغام التركية واليونانية وعن طريق "المسلوب" أصبح للشعب المصرى موسيقاه الآلية المصرية الصميمة وقد تتلمذ على يد "المسلوب" فحول المغنيين والملحنين أمثال "محمد عثمان" و "عبده الحامولى" ويوسف المنيلاوى وغيرهم من الذين أعادوا للطرب المصرى اعتباره وفى عهدى توفيق وعباس الثانى تراخى الاتصال بين الموسيقى المصرية والتركية حتى جاء "سلامة حجازى" وأعطى للغناء لونه المسرحى، ثم جاء "سيد درويش" فأحدث ثورة فى الغناء تلاشت خلالها وصمة العقم فى التخلف وانقطع الاتصال تقريبا مع الموسيقى التركية.[٢] وبدأت مرحلة الابتكار والتجديد بظهور الموسيقار "محمد على لعبه" الذى كان ضاربا للإيقاع وعارفا للآلات وملحنا، واستطاع أن يخترع قالبا غنائيا جديدا هو قالب الطقطوقة الذى طغى على كل ألوان الغناء، وصار عروس الأفراح والليالى الملاح ثم ظهر بعد ذلك سيد درويش وزكريا أحمد وداود حسنى ورياض السنباطى ومحمد عبد الوهاب وغيرهم، وجاء بعد اختراع الطقطوقة حركة بعث الغناء المصرى الذى قادها سيد درويش واتخذ منها منطلقا لأسلوب جديد فى الغناء الفردى والمسرحى على السواء واستطاع به إرجاع الأغنية المصرية إلى المناخ الصوتى للشعب المصرى خاصة وأن الغناء عموما فى ذلك الوقت كان يحمل المناخ الصوتى التركى.[٣] ثم قام عبد الوهاب بفتح نوافذ الموسيقى الشرقية على الموسيقى الغربية ومزج كل منهما بالآخر، كما لفت الأنظار إلى التراث الشرقى، وأدخل فيه أشكالا جديدة وآلات جديدة لم تكن مستخدمة فى الأغنية العربية من قبل وبذلك تمكن من تغيير وجه الطرب فى مصر منذ منتصف العشرينات، ووضع الأسس المتطورة لفن الغناء العربى كما ظلت "أم كلثوم" تلك المعجزة الفنية الثقافية النادر تكرارها حوالى نصف قرن تسهم إسهاما جوهريا فى بعث الأساليب المتطورة للتلحين والعزف والإيقاع وأعطت لمصر والعالم العربى فنا رفيعا راقيا ثم جاءت "نور الهدى" و"ليلى مراد" و"فايزة أحمد" و"نجاة الصغيرة" وغيرهن من الأصوات الواعدة وكانت بدايتهن تقليد "أم كلثوم" ثم انفردت كل منهن بعد ذلك بطريقتها المستقلة، كما ظهر "عبد المطلب" و"عبد الحليم حافظ"

---

(١) الهلال: عدد يناير ١٩٩٢ دراسة لكمال النجمى تحت عنوان: هؤلاء القاموا صناعة الغناء.
(٢) محورية الموسيقى المصرية، ص ١٢٤.
(٣) الأهرام فى ٢٠٠٣/٧/٣٠.

و"محمد رشدى" وغيره وكان "عبد الوهاب" هو الأستاذ الذى يجب الإقتداء به فى بداية سلم حياتهم. أما الأن فنحن نسمع أصواتا نكراء لم يستفد أصحابها من خبرات من سبقوهم وأصبحت الأحوال الراهنة للموسيقى والغناء فى مصر لا تسر عدوا ولا حبيبا فقد توارت الموسيقى الأصيلة أمام طوفان ما يسمى بالموسيقى الشابة، وحمل معظم الموسيقيين والمطربين من أبناء هذا الجيل لواء ما يسمى بالموجة الجديدة وقطعوا صلتهم بالأجيال السابقة وركبوا موجة الحداثة دون الارتكاز على تراث من سبقوهم لذلك أعطوا إنتاجا موسيقيا منقطع العلاقة بوجدان الناس، فهو ليس دورا ولا موشحا ولا قصيدة ولا موال ولا طقطوقة ، وإنما عبارة عن شذرات هجينة غير غنائية لا تعطى المستمع سوى ضجة عالية تدعوه إلى النهوض مع الآخرين للانهماك فى الرقص الهيسترى.[١]

إن إنقاذ فن الموسيقى والطرب فى مصر يرتكز فى وضع أيدينا على مواطن الضعف المستشرى فى جسد الغناء العربى المعاصر والنوازل التى حلت بساحته وأوشكت أن تقضى عليه.

إن مصر فى حاجة إلى إحياء هذا الفن الجميل مثل حاجتها إلى تأسيس المعارف والاهتمام بالاقتصاد والأمور الصحية وغيرها حتى يكون هناك تناسقا بين جمال الروح والمادة، ويسرى فى الشباب المصرى حب الوطن، وتشحذ هممهم وينجلى الصدأ عن قلوبهم وهذا لا يتأتى إلا بإلمام الجيل الجديد من المطربين والملحنين بقواعد الموسيقى العربية، ومعرفة القوانين الخاصة بسير النغم فيها والأوزان الموقعة عليها، وما يقابل ذلك من الموسيقى الغربية وقواعدها وازمنتها، ثم معرفة فن التدوين "النوتة" وعلم الانسجام الهارمونى.[٢] لقد كشفت مهرجانات الموسيقى العربية التى تقام بصفة دورية عن بريق الأمل، وبأن مصر ولادة بالمواهب الغنائية الواعدة التى يمكن أن تسد الفراغ الموجود على خريطة الأغنية العربية لو امتدت إليها يد الرعاية والعناية الحقيقية من الجهات المعنية بأمور الغناء، وأتاحت لها فرصة الظهور[٣]، فمصر التى أنجبت سيد درويش وأم كلثوم والسنباطى وعبد الوهاب ومحمد فوزى وعبد الحليم حافظ وغيرهم من الرواد قادرة على إنجاب غيرهم من الأصوات السليمة النقية الحلوة التى تستطيع إنقاذ فن الطرب من المنعطف السحيق الذى سقط فيه بعد موجة الغناء الهابط الذى كاد يسحب سجادة الريادة الغنائية من مصر.

---

(١) كمال النجمى: تراث الغناء العربى، ص ١١٧.
(٢) للتفاصيل انظر: عبد المنعم الجميعى، تطور الموسيقى والطرب، ص ١٧٢.
(٣) مصطفى الضمرانى: قضايا ثقافية معاصرة، أضواء على الحركة الثقافية فى مصر، مكتبة الأسرة ٢٠٠١، ص ٧١-٧٢.

تاسعا: المرأة المصرية والتعليم الجامعى

بعد أن أفتتحت الجامعة المصرية رسميا فى ٢١ ديسمبر ١٩٠٨ رأى بعض القائمين على أمرها ضرورة الأخذ بيد المرأة المصرية والارتقاء بها أدبيا وعلميا. ومن أجل ذلك خصصت الجامعة ابتداء من العام الثانى من افتتاحها محاضرات خاصة بالسيدات تشمل تاريخ المرأة على مر العصور، وبالرغم من الحذر الشديد فى اتخاذ هذه الخطوة خشية غضب المحافظين على التقاليد، ومفاجأة الرأى العام بشئ لم يستعد له فان بعض الصحف المصرية باركت ذلك الاتجاه وهللت له وشجعت على دراسة العلوم النسائية للنساء موضحة ان النساء المصريات فى حاجة كبيرة إلى من يصقل أفكارهن ويقوم اعوجاجهن ويرفع عنهن غشاوة الجهل فطالبت جريدة "الظاهر" بانشاء جامعة للنساء حتى يتعلمن ما لهن وما عليهن فقالت "نريدهن متعلمات عارفات بكل ما يجب لهن وعليهن بارعات فى تدبير المنزل والنظر فى شئون أطفالهن، فمن شاء إصلاح مصر وترقيتها حقيقة فليجهر معنا بضرورة لزوم جامعة للنساء يتعلمن فيها علم تدبير المنزل وتربية الأولاد[1]، وقد أيدت اللواء ذلك فطالبت بإنشاء جامعة للنساء موضحة أن إصلاح البلاد لا يتم بدون إنشاء مثل هذه الجامعة. [٢]

ولا يعنى هذا أن اللواء فى مناداتها بإنشاء جامعة للنساء قد تراجعت عما نادى به مصطفى كامل بضرورة فرض الحجاب على المرأة ورفضه لفكرة التحرر من قيودها فقد حددت فى مناداتها بإنشاء هذه الجامعة أن يقتصر التعليم على ما يساعد المرأة فى تدبير شئون منزلها وتربية أولادها وتهذيب أخلاقها ليتكون منها أمهات المستقبل.

ونتيجة لتشجيع بعض الصحف للجامعة الوليدة على السير فى خطاها نحو تعليم المرأة قررت الجامعة إنشاء قسم نسائى بها اقتصر التدريس فيه أول الأمر على محاضرات فى علم نفس المرأة والفلسفة والتربية والتاريخ وبعض الموضوعات العصرية هذا بالإضافة إلى تدريس بعض الموضوعات الأساسية فى علم الصحة والطب. [٣]

ولما كانت الدراسة بالجامعة للرجال فى المساء فقد رأت الجامعة أن تكون الدراسة بها للنساء فى الصباح حرصا على تجنب التلاقى بين الجنسين داخل أروقتها.

وعلى الرغم من تعنت التقاليد وشدتها فى ذلك الوقت فإنه يتضح من وثائق الجامعة الأهلية ان عدد النساء اللاتى خاطرن بدخول الجامعة فى عام ١٩١٠ كان ستة وثمانين قيد

---

(١) الظاهر: العدد ١١٤٩ فى ١٠ سبتمبر ١٩٠٧ تحت عنوان "جامعة النساء".
(٢) اللواء: العدد ٣٣٧٤ فى سبتمبر ١٩١٠ تحت عنوان "جامعة النساء الشرقيات".
(٣) الظاهر : العدد ١١٤٩ فى ١٠ سبتمبر ١٩٠٧.

جميعهن كطالبات مستمعات وكان عدد المصريات منهن خمسا وثلاثين أما الباقى فكن من جنسيات مختلفة، وإذا قسنا ذلك العدد بعدد الرجال فإننا نجد أن عدد الرجال المقيدين بالجامعة فى نفس هذه السنة كان ثلثمائة وسبعة عشر طالبا أى أن عدد الطالبات بالنسبة لعدد الطلبة كانت تزيد نسبته عن الربع وهذه نسبة ليست بالقليلة إذا نظرنا إليها فى ضوء تقاليد ذلك العصر. وقد يدفعنا ذلك إلى أن نتساءل عن نوعية النساء المصريات اللاتى حضرن إلى الجامعة فى ذلك الوقت للاستماع إلى محاضراتها. الواقع أن المواظبات منهن على حضور تلك المحاضرات كن من عقائل البيوتات المصرية منهن "هدى شعراوى" و"صفية زغلول" و"فاطمة عمر" شقيقة عبد العزيز باشا فهمى، هذا بالإضافة إلى عقيلات وكريمات بعض الباشوات أمثال ارتين وقطاوى ورشدى وذو الفقار ولم تكن هؤلاء كل من التحقن بالجامعة مستمعات من بنات مصر بل كانت هناك معهن أميرات من الأسرة المالكة أمثال "فاطمة فاضل" و"عين الحياة". (١)

وقد وصفت احدى النساء حضور المستمعات إلى مبنى الجامعة، فقالت "تقاطرت العربات والسيارات مقلة كرائم السيدات وعقائل البيوتات، وكانت وجهة هذا الجمع الرقيق من الجنس اللطيف سراى الجامعة المصرية فدخلن زرافات ووحدانا إلى البهو العظيم المعد لمحاضرة السيدات. (٢)

هذا عن المستمعات من الطالبات أما عن المحاضرين فقد كان معظمهم من السيدات وذلك حتى لا تضطر المستمعات إلى وضع الحجاب داخل قاعة الدرس وقد حاضر فى هذا القسم النسائى "نبوية موسى" ناظرة المعلمات بالمنصورة وتركزت محاضراتها فى مجال تاريخ مصر الحديث وما يسود العالم من علوم عصرية و"لبيبة هاشم" صاحبة مجلة فتاة الشرق وقد تحدثت عن التربية والأخلاق وأثرهما فى حياة الأمم وطالبت بإيجاد الوسائل اللازمة لتحسين التربية فى المدارس وتعليم الفتيات قوانين الصحة وقواعد الآداب الصحيحة حتى إذا أصبحن أمهات أدركن ما عليهن من خطر الواجبات. (٣)

وحاضرت "رحمة صروف" فى شئون التدبير المنزلى، وحاضرت "ملك حفنى ناصف" (باحثة البادية) فى حقوق المرأة وواجباتها وموقف الإسلام من ذلك كما حاضرت فى موضوعات تدور حول "المقارنة بين المرأتين المصرية والغربية وعاداتهما" وكانت تلقى على

---

(١) للتفاصيل انظر: تقويم جامعة القاهرة ٦٩- ١٩٧٠.
(٢) الجريدة فى ١٧ ابريل ١٩١٠ تحت عنوان "فى الجامعة المصرية".
(٣) مجلة فتاة الشرق: القاهرة ١٩١٠- ١٩١١، ص ١٦٩

مستمعيها النصائح وتبين للحاضرات سئ العادات ومضار الخرافات ومن ذلك ما ذكرته من أن المرأة الغربية تقوم بتغذية طفلها غذاء حقيقيا سريع الهضم، وتتحفظ عليه من موجات البرد والحر بينما نجد المصرية تطعمه أثقل الغذاء وتبادر باعطائه اللحم وما يتعذر هضمه فيصاب بالاسهال والنزلات المعوية، ولا تكترث لنظافة جسده لئلا يحسده أحد، وإذا مرض تم علاجه بالتعاويذ والتمائم، كما تحدثت عن "الزار" فقالت أنه أبو الخرافات ومفسد البيوت، وأنها لا تدرى لماذا اختارتنا العفاريت مسكنا لها، وتساءلت لماذا لم نلجأ إلى أرسطو وابن رشد وفيثاغورث وغيرهم بدلا من أن نلجأ إلى الشيخة رمانة وسعيفة ويوسف مرقع وغيرهم ممن لا يطلبون إلا الخلاخيل والمصوغات وأوضحت كذلك أن كثيرات من المصريات إدعين ركوب العفاريت إياهن، ولما ضربهن رجالهن بسبب ذلك لم تعد اليهن العفاريت ولم يطلبن الزار. [1]

واشترك فى القاء هذه المحاضرات أيضا بعض الأجنبيات مثل الآنسة "كوفرور" المدرسة بمدرسة راسين بباريس واقتصرت فى محاضراتها على علم النفس والأخلاق كما كان يلقى بعض الأطباء من المصريين والأوربيين محاضرات فى حفظ الصحة والعناية بالأطفال. [2]

ولم يقتصر نظام الدراسة بالقسم النسائى على ذلك بل أخذ يتطور بتطور نظام الجامعة وبرامج التدريس فيها ففى عام ١٩١٢ أصبحت الدراسة بهذا القسم تشتمل على محاضرات فى التربية وعادات المصريين وتأثير الإسلام فيها ودولة المماليك، وحروب فرنسا، وأشهر النساء فى التاريخ، وعلم التدبير المنزلى والتدابير الصحية واختيار المنزل وأثاثه والحياة الزوجية وسعادة الأسرة والآداب المنزلية والأخلاق.

وعند مقارنتنا لهذا البرنامج ببرنامج التدريس الذى سبقه يتضح أن كلا من البرنامجين ركز على الاهتمام بمواد تهم حياة المرأة الزوجية والمنزلية والأسرية أكثر من غيرها، وربما كان يرجع هذا إلى أنه لم يكن يتطرق إلى ذهن أحد فى ذلك الوقت قيام المرأة المصرية بالعمل بالمصالح كالرجال بل يقتصر دورها على تدبير شئون المنزل، وتهذيب الأولاد.

وعلى الرغم من إقبال بعض السيدات والأنسات على حضور هذه الدراسات فى الجامعة فإن الرجال المتمسكين بالتقاليد منعوا زوجاتهم وأقاربهم من حضور هذه المحاضرات

([1]) الجريدة: العدد ٩٤٤ فى ١٨ ابريل ١٩١٠.
([2]) الجامعة المصرية: تقرير مجلس الإدارة فى ١٥ مارس ١٩١١، ص ١٢.

ويتضح ذلك من مناشدة بعض النساء على صفحات الجرائد دون أن يذكرن أسماءهن الرجال ألا يمنعوا زوجاتهم وأخواتهم وبناتهم من حضور المحاضرات بالجامعة. (١)

والجدير بالذكر أن إنشاء القسم النسائى بالجامعة قد أثار ثـائرة بعـض المحـافظين فبالرغم من أن معظم المحاضرات كانت تلقيها نساء، وكانت تتركز على التربيـة المنزليـة والحياة الأسرية فقد تجمع بعض الرجال أمام الجامعة للتعرض للنساء ومنعهن من الدخول لأن ذلك سيؤدى من وجهة نظرهم إلى خروجهن على الآداب، ويرفع عنهن صفة العفـاف التـى تتحلى بها كل قابعة بالمنزل، وعندما أرسل "عبد العزيز فهمى" سكرتير الجامعة خطابات إلى نساء الطبقة الواعية يدعوهن للحضور إعتبر بعض الغيورين على الأخلاق العامـة وجـود أسماء نسائية على أظرف الخطابات، فيراها رجل البريد بمثابة عار يلحق بسـمعتهن ومـن الفضائح الكبرى التى لا يمحوها إلا الدم، فأرسلوا خطابات تهديد بالقتل إلـى "عبـد العزيـز فهمى" إذا لم يكف عن هذا العمل. (٢)

وعلى كل حال فإنه نتيجة لحضور بعض النساء المحاضرات فـى الجامعـة حـدثت مناظرات فكرية على صفحات الجرائد بين معارضى تعليم المرأة ومؤيديه وتصارعت الأفكار بينهما فذكر المعارضون أن البلاد فى حاجة إلى إمرأة تحمل ولدها على كتفها لا أن تصـدر الأوامر بقلمها وتدير الشئون العامة فى الدواوين. وأنها من يوم أن تولد إلى يـوم أن تمـوت تنتقل من رعاية رجل إلى رعاية آخر لأن الرجال قوامون على النساء شرعا كما صور بعض هؤلاء للمرأة جمال خدرها وضرورة الاستقرار فيه ورأى بعضهم الآخـر أن سـبب شـقاء الجنس البشرى حواء التى أغوت آدم(٣)، ولم تقتصر معارضة تعليم المرأة على الكتـاب بـل عارضه أيضا أمير الشعراء فقد شبه "أحمد شوقى" المرأة المصرية بالطير من حيث ضـعفها وتقيدها بمشيئة الرجل، وأنه يجب على النساء التمسك بالحجاب صونا لعفـافهن وذلـك فـى قصيدته الموسومة بين الحجاب والسفور فأوضح لهن فى شخص عصـفور الكناريـا أنهـن محجوبات منحبسات لنفاستهن والخوف عليهن من عاديات الخارج وضـرب لهـن الأمثـال للتحريض على الخضوع للرجل فقال:

صداح ما ملك الكنـــــار	ويا أميـــــــر البلبـــــل
حرصى عليك هـــــوى	ومن يحرز ثمينـــا يبخـــل

(١) وزارة التعليم العالى: المرأة المصرية فى التعليم العالى ١٩٧٥، ص ١٩.
(٢) إجلال خليفة: الحركة النسائية الحديثة، قصة المرأة العربية على أرض مصر، ص ٨٤.
(٣) صحيفة العفاف: ابريل ١٩٢١ وديسمبر ١٩٢٢.

شهد الحياة مشوبـــــــة	بالرق مثل الحنظـــــــــل
أن طرت عن كنفـــــــى	وقعت على النسور مثل الجهل[1]

وقد ردت أحدى النساء على هذه القصيدة معاتبة أمير الشعراء فقالت حكمت على أيها الشاعر بالأسر ونصحتنى بالصبر ولم تدر أنى فقدت كل صبر فى حبسك إياى بدون داع فلم يعد لى شعور ولا إدراك بعد أن اغتصب منى حقى الطبيعى الذى دونه قتل النفس وازهـــاق الأرواح أيها الشاعر نسبت حالتى هذه إلى الطبيعة، وما هى إلا نتائج حبك لأسرى، أســرتنى لأحررك، أحزنتنى لأفرحك، أناشدك الحق هل سمعت نحيبى داخل القفص وهل راقك منظرى مكبلا بتلك السلاسل الحديدية. [2]

وعلى كل حال فإن أمر مهاجمة سفور المرأة لم يقتصر على الرجال بـــل أيـــد ذلـــك بعض النساء حتى اللائى أصبح لهن بعد ذلك شأن فى مجال التعليم الجامعى ومـــن هـــؤلاء الدكتورة "عائشة عبد الرحمن" فقد ذكرت فى بداية عهدها بالكتابة عن انطباعاتها عن نســـاء القاهرة عندما رأتهن لأول مرة فى مقال تخيلت فيه أنها تخاطب صديقة لها فتقول "ســتذهبين إلى القاهرة وتدخلين فى دنيا جديدة وتشعرين بحال غريبة فتثور فى نفسك ثورات كامنـــة لا عهد لك بها إذ تجدين الفتيات عاريات إلا ما يستر عوراتهن.. كأنهن بين جدران مخادعهن أو من وراء ستار".

أما مؤيدو تعليم المرأة فقد ذكروا أن انحطاط المرأة المصرية يعتبر دليلا على انحطاط الرجل، وان المرأة خلقت مساوية للرجل فى كل شئ وأنه يجب أن تنال من الحقوق ما ينالـــه الرجال تماما.

وعلى كل حال فقد أدى احتجاج المعارضين لحركة التجديد وكانوا فى ذلك الوقت قوة لا يستهان فيها، إلى ايقاف التدريس بالفرع النسائى بالجامعة خلال العام الدراســـى ١٩١٢ – ١٩١٣[3]، وظل الحال على هذا المنوال فترة طالت إلى ما بعد أن أصبحت الجامعة المصرية تابعة للحكومة فعلى الرغم من حصول بعض الفتيات على البكالوريا التى تؤهلهن للالتحـــاق بالجامعة فإن الطريق كان شائكا وأبواب الجامعة كانت مغلقة فى وجوههن ولولا مساندة بعض قادة الفكر من الرجال فى ذلك الوقت أمثال "أحمد لطفى السيد" و"طه حسين" لما تحققت للمرأة

(١) احمد شوقى: الشوقيات جـ١ ، القاهرة ١٩٥٠، ص ٢١٤- ٢١٦.
(٢) الجريدة: العدد ٩٨٥ فى ٦ يونيو ١٩١٠.
(٣) الجامعة المصرية: تقرير مجلس الإدارة فى ٢٩ ابريل ١٩١٣، ص ١٣.

فرصة التعليم الجامعى وتفاصيل ذلك أن بعض الفتيات لجأن إلى "لطفى السيد" مدير الجامعة يطلبن مساواتهن بالرجال فى التعليم الجامعى، وان بعض عمداء الكليات وأساتذتها طلبوا أن تقبل الفتيات الحائزات على البكالوريا فى كلياتهم، وكان "طه حسين" هو أول من عرض على "لطفى السيد" قبول الطالبات فى الجامعة، وحين سأله "لطفى السيد" هل قانون الجامعة يمنع دخول البنات أجابه بأن القانون يقول أن الجامعة للمصريين ولم يحدد النوع، يضاف إلى ذلك أن بعض الصحف طالبت بضرورة أن يشمل التعليم الجامعى الفتيات ولكن الموقف لم يكن سهلا فقد كانت هذه المسألة شائكة خصوصا وان أنصار هذا الرأى بالنسبة للرأى العام ككل كانوا قلة وكان الأمر يستلزم التريث والتزام التكتم وعدم مناقشته أو عرضه على الرأى العام حتى لا يثور المتزمتون ويتعقد الموقف، وفى غفلة من هؤلاء وضعت الجامعة الرأى العام والحكومة أمام الأمر الواقع عندما فتحت كلية الآداب أبوابها للطالبات ودخلتها أربعة هن "سهير القلماوى" و"فاطمة سالم سيف"، و"فاطمة فهمى خليل"، و"زهيرة عبد العزيز".

ويتضح ذلك فيما كتبه "لطفى السيد" فى مذكراته إذ يقول لا أخفى أننا قبلنا الطالبات أعضاء فى الأسرة الجامعية فى غفلة من الذين من شأنهم أن ينكروا علينا اختلاط الشباب بأخواتهن فى الدرس. [١]

وعلى كل حال فإن هذا الإجراء كان بمثابة ثورة فكرية وتعليمية أحدثت ضجة شديدة فى أوساط المحافظين ولكن سنة التطور الاجتماعى كانت فوق هذه الضجة التى كانت سحابة صيف لم تلبث أن ذهب بها الزمان وأصبحت فى خبر كان.

فسارت كليات الحقوق والعلوم والطب- وكانت هذه الكليات التى تضمها الجامعة فى ذلك الوقت – على منوال كلية الآداب فوافقت كل منها على قبول الطالبات فدخلت الحقوق الطالبة "نعيمة الأيوبى" أما كلية العلوم فقد التحقت بها ثمانية طالبات منهن "نفيسة سماحة" و"عايدة انطون" والتحقت بكلية الطب أربع طالبات هن "نفيسة محمد"، و"فاطمة حسن"، و"زينب ابراهيم"، و"حكمت البدرى" ومع أن التحاق الطالبات بهذه الكليات كان أمرا طبيعيا إلا أنه أثار الكثير من النقاش والجدل داخل الجامعة وخارجها، وقد فقدت المرأة معضديها داخل الجامعة نتيجة لاقالة الدكتور "طه حسين" من عمادة كلية الآداب فى عهد وزارة صدقى[٢]، ثم تقديم "لطفى السيد" استقالته من منصبه كمدير للجامعة عام ١٩٣٢ احتجاجا على تدخل السلطات فى شئون الجامعة بنقلها "طه حسين" إلى وظيفة خارج الجامعة على غير ارادتها وقد

---

(١) احمد لطفى السيد: قصة حياتى، القاهرة، كتاب الهلال، مايو ١٩٨٢، ص ١٨٣.
(٢) للتفاصيل انظر: كتابنا: حسين والجامعة المصرية.

يعزى إلى ذلك تأخر دخول الفتيات للكليات الأخرى بعض الوقت فقد ظلت كلية الهندسة وكلية الزراعة ممتنعين عن قبول الفتيات فترة وسارت على هذا المنوال كلية التجارة ولكن لم تلبث اليقظة الزاحفة ان طغت على الأفكار القديمة فغزت المرأة تلك الحصون التى كان يحتكرها الرجل ففتحت أبواب هذه الكليات للطالبات فدخلنها واستطعن أن يحصلن على نتائج تبعث على التفاؤل وتدريجيا ضمت كليات الجامعة الفتيات ولم يتأخر فى ذلك سوى كلية دار العلوم التى لم تفتح أبوابها للفتيات إلا فى العام الدراسى ١٩٥٣ – ١٩٥٤ أى بعد ضمها إلى جامعة القاهرة.

وإلى جانب إتاحة التعليم العالى للفتيات بجميع صوره وتخصصاته رؤى ضرورة توافر نوعية معينة من التعليم الجامعى تفى باحتياجات الأسر المحافظة التى لا ترغب فى اختلاط بناتها مع الشبان ومن هنا أنشئت كلية البنات عام ١٩٥٠ وأصبحت احدى كليات جامعة عين شمس عام ١٩٥٦ وكانت قبلا معهد التربية للمعلمات وفى العام الدراسى ١٩٦٢/١٩٦٣ أنشئت كلية البنات الاسلامية جامعة الأزهر وبذلك دخلت المرأة مجالا جديدا من التعليم العالى والتعليم الدينى. (١)

وأخذ عدد الطالبات اللائى يلتحقن بالجامعة فى التزايد فبعد أن كان عددهن فى عام ١٩٢٩ وهى السنة التى قدر لهن فيها السماح بدخول الجامعة سبعة عشر طالبة تجاوز الآن ١٣٨ الف طالبة.

وبعد أن كان عدد الملتحقات بالجامعة فى عام ١٩٢٩ ثمانية بكلية العلوم وأربعة بكلية الآداب وأربعة بكلية الطب وطالبة واحدة بكلية الحقوق أصبح عددهن فى كليات الآداب فقط حتى عام ١٩٧٩ (٢٤) ألف طالبة. (٢)

وعن اختلاط الطالبات بالطلبة داخل الجامعة فقد تحاشت الطالبات فى أول دخولهن الجامعة أى صلة تربطهن بالطلبة، ودخلن قاعات المحاضرات مغطيات الرؤوس وامتنعن عن الاقتراب من الأماكن التى يتواجد فيها الطلاب وتجاهلن التحيات الموجهة إليهن، ورفضن الاشتراك فى مناقشة الأساتذة خلال الدرس، وقد حاول الدكتور طه حسين اثناء عمادته لكلية الآداب تشجيع الاختلاط بين الطالبات والطلبة ففى الحفل الذى اقامته الكلية فى نادى الجامعة بمناسبة النجاح الذى أحرزه "مشروع القرش" فى فبراير ١٩٣٢ نشرت جريدة الأهرام صورة

---

(١) وزارة التعليم العالى: المرأة المصرية والتعليم العالى، ص ٤٤.
(٢) المركز القومى للبحوث التربوية: المرأة والتعليم فى جمهورية مصر العربية، ص ٤٩.

تظهر طلبة الكلية حول عميدهم "طه حسين" وقد جلست كل طالبة بجانب طالب[١]، مما أثار الرأى العام وتوتر موقفه من الجامعة أكثر مما كان فحمل أحد أعضاء مجلس النواب حملة شديدة فى البرلمان ضد د. طه حسين وموقفه من هذا الاختلاط وعلى كل حال فان رهبة الطالبات من الاختلاط بزملائهم الطلاب لم تستمر طويلا ففى أول محنة تعرض لها استقلال الجامعة بفصل الدكتور طه حسين على غير إرادته من الجامعة خرجت الطالبات من عزلتهن وثرن مع الثائرين، وارتفعت أصواتهن لأول مرة تخطب وتحمس وتدعو إلى النضال انقاذا لاستقلال الجامعة من تلاعب الأهواء[٢]، وكان اشتراكهن فى المظاهرات دفعا لزيادة حماس الطلاب، كما ظهرت لدى بعض الطالبات القدرة على اقناع زملائهن الطلبة للعدول عن بعض المواقف ويكفى للتدليل على ذلك أنه فى أثناء الاضراب نادى عميد الحقوق الطالبة "نعيمة الأيوبى" ودعاها إلى اقناع زملائها بوقف الاضراب والعمل على إعادة النظام فعادت الأمور إلى نصابها.

وبدأت طالبات الجامعة يتطلعن إلى المزيد من الحرية فمارسن الألعاب الرياضية خصوصا لعبة التنس وبدأ ذلك فى كلية الآداب عندما ظهرت طالبة فى ملعب التنس.

ورغم ثورة الراى العام على هذه الحرية التى أتيحت لفتيات الجامعة، ورغم الاحتجاجات الشديدة التى وصل مداها إلى القصر الملكى بخصوص ممارسة الطالبات للألعاب الرياضية فى الجامعة فقد استمرت المسيرة النسائية نحو المزيد من الحرية فأخذت ملاعب الجامعة تكتظ بالطالبات من مختلف الكليات، ولم يقتصر ذلك على التنس بل تطرق إلى كرة السلة وغيرها من الألعاب.

ورغم كل ذلك فقد كانت بعض الطالبات يحسبن ألف حساب لمعارضى تحررهن داخل الجامعة ويتضح ذلك فى تأخر دخولهن اتحاد الطلاب بالجامعة، فبالرغم من أن هذا الاتحاد منح حق العضوية للطالبات إلا أنهن لم يرشحن أنفسهن فى عام ١٩٣١، رغم تشجيع البعض لهن، وقد أعربت إحدى الطالبات عن سبب ذلك بقولها "أنى أجد فى ذلك مجازفة كبرى لما تكنه قلوب المعارضين من تهكم وسخرية. [٣]

ولكن هذه الرهبة لم تستمر طويلا فقد شاركت الطالبات الطلاب فى أنشطتهم الاجتماعية فعندما أنشئت جماعة النهضة الاجتماعية فى كلية العلوم عام ١٩٣٧ بهدف جمع

---

(١) الأهرام: العدد ١٦٩٤٥٩ فى ٢٣ فبراير ١٩٣٢.
(٢) مضابط مجلس النواب: الجلسة التاسعة عشرة فى ٧ مارس ١٩٣٢، ص ٢٥٨.
(٣) صحيفة الجامعة المصرية: العدد الرابع ابريل ١٩٣١، ص ٥٦- ٥٨.

التبرعات من الطلاب الأغنياء وتوزيعها على زملائهم الفقراء وأقيمت سوق خيرية فى الجامعة من أجل هذا الغرض قامت الطالبات بعرض أشغال من صنعهن فى هذه السوق وساهمن فى جمع التبرعات من الآخرين.

يضاف إلى ذلك قيام الفتيات بالاشتراك فى المناظرات والمحاضرات التى أقيمت داخل وخارج الجامعة.

وعلى كل حال فقد أدى دخول الفتاة المصرية الجامعة إلى إثبات وجودها، وبأنها لا تقل قدرة وكفاءة عن الفتاة الأوربية، كما أنها لا تقل ذكاء ومقدرة عن الرجل.

وفى عام ١٩٣٣ تخرجت أول دفعة من طالبات الجامعة المصرية وكانت مكونة من نعيمة الأيوبى من كلية الحقوق وسهير القلماوى، وفاطمة سالم، وفاطمة خليل من كلية الآداب ولم يقتصر الأمر على ذلك بل أن كلية الآداب ضمت ثلاثة منهن كنواة لأعضاء هيئة التدريس بها وهن سهير القلماوى فى اللغة العربية ودرية فهمى للانجليزية وفاطمة سالم للدراسات القديمة. [1]

وقد اثبتت خريجات الجامعة من الفتيات القدرة على منافسة الرجال فى الحصول على الدرجات العالية وتولى المناصب الأكاديمية فى الجامعة نفسها، وإذا نظرنا إلى المكانة التى تحتلها المرأة فى الجامعة حاليا يتضح أنها تشغل جميع المناصب الأكاديمية فيها على اختلاف أنواعها ابتداء من وظيفة معيد إلى رئيس قسم وعميد.

ولم يقتصر الأمر على ذلك بل واكبه ايفاد الفتيات المصريات فى بعثات إلى الخارج للتأهيل فى التخصصات غير المتوافرة فى الجامعات، وكذلك التخصصات العالية التى تؤهلن للتدريس فى الجامعات إلى جانب التأهيل اللغوى فى اللغات الانجليزية والفرنسية لاعداد مدرسات وطنيات يحللن محل الأجنبيات.

وبعد أن أثبتت الفتاة الجامعية مقدرتها على المساواة بالرجل كان عليها أن تواجه معركة أخرى وهى الحصول على وظيفة والخروج إلى معترك الحياة العملية ولكن بعض العائلات استنكرت ذلك ورأت أنه من الخير للفتاة الجامعية ألا تزج بنفسها فى ميدان العمل من غير تسلح ولا استعداد وأنه من الأفضل بعد تخرجها الاستفادة بها بتزويجها لتكون نواة صالحة للبيت المصرى الحديث خصوصا وأن مشاكل المتعلمين المتعطلين ستزداد سواء إذا ما شاركت الفتاة الرجل فى الحياة العامة.[2]

---

(١) المقتطف: أول يناير ١٩٣٧، ص ٢٤.
(٢) الدستور: العدد ٣٩٣ فى ١٦ ابريل ١٩٣٩.

يضاف إلى ذلك أن المعارضين لسفور المرأة وخروجها إلى مجال العمل قاموا بحملة شديدة لوقف تيار حصول المرأة على وظيفة واتبع بعضهم فى ذلك الأسلوب اللاذع التى يستنهض همم الرجال ويدفعهم إلى معارضة تشغيل النساء ونقتطف فى هذا المقام بعض ما جاء فى مجلة كل شئ والدنيا فى يوليو ١٩٣٢ فأعلا توقيع فضولى ذكرت هذه الأبيات

حلقت رجالكم اللحى	لما علا أمر النساء
والآن ترتزق النساء	وتأكلون بلا عناء
فليلحق الموسى الشوارب	أنها منكم براء[١]

وبالرغم من كل ذلك فقد كان هناك رأى آخر يرى أنه لا مانع من اشتغال الفتاة بعد تخرجها لتجاهد بجانب الرجل فيستفيد منها المجتمع أكثر من ركونها إلى الحياة المنزلية لأنه لا معنى أن تعد الفتاة للحياة، ثم تحرم من العمل بعد هذا الاعداد.

وتحفظ البعض نحو هذا الموضوع فرأى توجيه الفتيات بعد تخرجهن إلى الأعمال التى تتناسب مع قدراتهن والتى يختلفن فيها عن الرجال، وأخيرا رجحت كفة المؤيدين لدخول المرأة مجال العمل فعندما رغبت "نعيمة الأيوبى" أول خريجات كلية الحقوق فى العمل بالمحاماة ترددت لجنة قبول المحامين فى الموافقة على قيد اسمها فى أول الأمر، ثم انتهى الخلاف بين أعضائها بانتصار جبهة المؤيدين لقبولها وعلى كل حال فالملاحظ أن الذى دافع عن المرأة المصرية وتعليمها الجامعى ثم خروجها إلى مجال العمل ومساواتها بالرجل كان الرجال لا النساء أصحاب الشأن فى هذا الموضوع ويبدو ذلك واضحا من الالتماسات التى قدمت إلى القصر الملكى والتى يعرب فيها أصحابها عن استيائهم من المحاضرات التى يلقيها بعض الرجال مثل محمود عزمى أفندى والدكتور ميخائيل فرج ومحمد توفيق دياب، داخل الحرم الجامعى، ودعوتهم للمساواة بين المرأة والرجل وعلى كل حال فإنه بمضى الوقت دخلت المرأة مجال العمل، وعملت فى جميع الوظائف العامة وأصبحنا نسمع عن أسماء مصريات برزن فى كافة ميادين الحياة حتى وصلن إلى منصب الوزارة.

والسؤال الذى يطرح نفسه هو هل خروج المرأة إلى مجال العمل بحكم حركة التطور والانتقال التى يمر بها المجتمع قد أثر على شخصيتها الاجتماعية إيجابا أم سلبا؟

---

(١) كل شئ والدنيا: عدد ٩ يوليو ١٩٣٢.

لقد أظهرت دراسة نفسية اجتماعية حديثة أن خروج المرأة إلى مجال العمل برغم ما قد يترتب عليه من آثار سلبية على أدائها كزوجة وكأم أى على أدوارها التقليدية كأنثى فإنه قد أضاف ادوارا جديدة إلى أدوارها السابقة فأدى إلى إنضاج شخصيتها، وزاد من ثقتها فى نفسها وأكسبها قدرا من المرونة وحسن التصرف فى المواقف الاجتماعية التى تتعرض لها يضاف إلى ذلك أنه كلما زاد مستوى التعليم عند المرأة زادت قدرتها على التخلص من الآثار السلبية لخروجها إلى العمل ومكنها من التخلص من آثار الصراع الذى ينشأ لديها نتيجة لأدوارها المتعددة خاصة فى ظل ظروف مجتمع يمر بمرحلة انتقالية كمجتمعنا. (١)

وهكذا أسهم التعليم الجامعى فى إعداد المرأة المصرية إعدادا أتاح لها الخوض فى كافة مناحى الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية فى مصر والتجاوب مع حركة تجديد المجتمع والتفاعل معها، ولكن يجب أن يعترف النساء بأن وراء ذلك كانت جهود بذلها بعض الرجال الذين وقفوا بجانب المرأة ودافعوا عن حقوقها.

وكذلك استطاعت الجامعة تحويل النصف الآخر من المجتمع إلى قوة مثقفة عاملة ومنتجة فى كافة ميادين الحياة، تساهم فيما يصبو إليه الوطن من مراقى التقدم بين الأمم الناهضة.

---

(١) د. محمد سلامة آدم: المرأة بين البيت والعمل، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢، ص ٨٥.

عاشرا: السينما المصرية إلى أين؟

السينما من أحدث الفنون التى توصل إليها الإنسان، والسينمائيون رافد مهم من روافد نشر الثقافة فى المجتمع المصرى. وتاريخ السينما سجل حافل بحياة الإنسان، ومرآة عاكسة لتاريخه، وعن طريقها يرتفع الذوق العام ويتماسك المجتمع إذا أحسن استخدامها، وعن طريقها أيضا تكمن المخاطر على العقلية المصرية إذا لم يحسن إبرازها للحقيقة.

وقد اختلف مؤرخو السينما المصرية فى تحديد نشأتها خاصة وأن بداياتها الحقيقية تبناها الأجانب، وإن كان الرأى السائد هو بداية عام ١٨٩٦ أى فى نفس العام الذى اخترعت فيه شركة "لوميير" الفرنسية الفن السينمائى حيث كان الأجانب يستحضرون الأشرطة السينمائية من أوربا ويقومون بعرضها فى المقاهى وصالات العرض المصرية وكانت الإسكندرية أسبق من القاهرة فى عرض هذه الأشرطة خاصة وأن معظم الأجانب كانوا يستقرون بها.

وقد اقتصرت العروض السينمائية التى قدمت خلال هذه الفترة على عروض لمناظر طبيعية تعرض معظمها لمظاهر الحياة فى أوربا.

ونظرا لحداثة فن السينما وغرابته بالنسبة للمشاهدين فقد كانت تحدث بينهم طرائف عجيبة فعلى سبيل المثال نذكر أنه عند عرض فيلم "الأمواج"، وظهور أمواج البحر مندفعة على الشاشة وكأنها تقترب من المشاهدين ترك الجالسون فى الصفوف الأمامية أماكنهم هاربين من مقاعدهم خشية أن تبتل ملابسهم، وحدث نفس الشئ تقريبا فى فيلم "لحظة وصول القطار" فعندما ظهرت صورة وصول القطار إلى إحدى المحطات فى باريس فزع المشاهدون وهم يرون القطار يقترب منهم فتركوا أماكنهم فزعين.

وإلى جانب ذلك فقد قام السينمائيون الأجانب بتصوير بعض الشرائط عن مظاهر الحضارة المصرية القديمة ومشاهد من الحياة فى مصر الحديثة وقاموا بعرضها على الشاشة وكان منها "قناطر النيل، و"الحمير فى سقارة" و"السياح على ظهور الجمال فى الأهرام" و"ميدان العتبة الخضراء".[١]

وقد برز الإيطاليون فى ميدان السينما المصرية خاصة فى مجال الإنتاج والإخراج وكان من أبرزهم "توجو مزراحى".

---

[١] للتفاصيل انظر د. عبد المنعم الجميعى: تاريخ السينما المصرية، القاهرة، مؤسسة ابن خلدون ١٩٩٨، ص ٥-١٢.

وظل النشاط السينمائى مقتصرا على الأجانب حتى قيام الحرب العالمية الأولى حيث هاجر معظمهم إلى بلاده، ونتيجة لذلك اقتحم بعض المصريين مجال السـينما فتكونـت فـى الإسكندرية شركة سينمائية مصرية إيطالية قامت بإنتاج ثلاثة أفلام هـى "شـرف البـدوى" و"الزهور القاتلة" و"نحو الهاوية" وقد شارك الممثل المصرى "محمد كريم" فى تمثيل الفيلمـين الأولين كما هجر بعض الممثلين المصريين خشبة المسرح وانتقلوا إلى السينما فقامت فرقـة "فؤاد الجزايرلى" التى كانت تعمل فى أحد المسارح بحى الحسين بتمثيل فيلم سينمائى بعنوان "لوريتا" كما قام الثنائى المسرحى "على الكسار" وأمين صدقى بإنتاج فيلمين قصـيرين همـا "الخالة الأمريكانية" والخاتم السحرى".

وفى عام ١٩٢٣ قام السينمائى المصرى "محمد بيومى" بإنشاء شركة سـينمائية فـى الإسكندرية أنتجت أفلاما إخبارية قصيرة منها "عودة سعد زغلول من المنفى" و"موكب الكسوة وسفر المحمل" كما قام باخراج "جريدة آمون".

وإلى جانب ذلك فقد اهتم المسئولون عن التعليم بإدخال السينما إلى المدارس كوسـيلة تعليمية يمكن للطلاب عن طريقها استيعاب دروسهم وفى عام ١٩٢٦ أسست "عزيزة أميـر" أول شركة مصرية للإنتاج السينمائى باسم "ايزيس فيلم" كما تمكنت مـن إخـراج أول فـيلم مصرى روائى طويل باسم "ليلى" والذى يعتبر البداية الحقيقية للسينما المصـرية كصـناعة وطنية.

وخلال تلك الفترة تبنى "طلعت حرب فكرة قيام "بنك مصر"، بتأسيس "شركة مصـر للتمثيل والسينما" رغبة منه فى تمصير هذه الصناعة ونتيجة لذلك تم افتتاح هذه الشركة فـى ٢٩ مارس ١٩٢٧ وكان باكورة إنتاجها فيلم "زينب" المأخوذ من قصة "الدكتور محمد حسنين هيكل" كما اوفد طلعت حرب كوكبة من الشباب المصرى إلى أوربا لينهلوا من منابع فنـون السينما بها. وخلال ذلك برزت مشكلة ظهور ممثلات فى الأفلام السينمائية خاصة وأن ظهور المرأة على شاشة السينما فى ذلك الوقت كان يعد تهتكا وعارا، كمـا اعتبـره الـبعض مـن المحرمات وأنه من الصعب السماح بمناظر التقبيل فى السينما وان من يفعل ذلك من الفتيات لن يتزوجن.

يذكر "يوسف وهبى" فى مذكراته أنه نتيجة لعدم توفر العنصر النسائى خلال الإعـداد لتمثيلية "روميو وجوليت" أنه تم توزيع دور "جوليت" على ابن أحد الأعيان، ولما علم والد هذا

الشاب بأن ابنه يقوم بدور أنثى ثار وقام بصفعه على الملأ لذلك اقتصر الدور النسائى فى السينما على الممثلات الأجنبيات خاصة الأرمنيات لمدة تزيد عن ربع قرن.(١)

ونتيجة لاندفاع عجلة التطور قامت بعض الفتيات المصريات بالمشاركة فى أدوار سينمائية رغبة منهن فى إثبات وجودهن فظهرت "بهيجة حافظ" إحدى بنات الطبقة الراقية ومثلت فيلم "زينب " متطوعة وبلا أجر رغبة منها فى ممارسة فن التمثيل والإعلاء من شأنه وتبعها بعد ذلك "عزيزة أمير" و "آسيا داغر" و"فاطمة رشدى" و"إحسان صبرى" وغيرهن من الفتيات المصريات.

وفى عام ١٩٣٢ ونتيجة لتحول السينما من مرحلة الفيلم الصامت إلى مرحلة الفيلم الناطق تحول معظم رجال المسرح إلى السينما فأنتج "يوسف وهبى" فيلما باسم "أولاد الذوات" بالاشتراك مع "أمينة رزق" وبدأت الأغانى تظهر فى الأفلام فنزل "محمد عبد الوهاب" بأشرطة "الوردة البيضاء" فى عام ١٩٣٣ ثم "يوم سعيد" و"دموع الحب" و"يحيا الحب" و"رصاصة فى القلب" وكذلك نزلت "أم كلثوم" بشريط "نشيد الأمل" وغيره، وأعقب ذلك ظهور "ليلى مراد" و"رجاء عبده" و"فريد الأطرش" و "نور الهدى" و"نجاة على" و"عبد العزيز محمود" وغيره مما دفع بالإنتاج السينمائى إلى الأمام وازداد إقبال الجمهور على الأفلام.(٢) وخلال ذلك قام "طلعت حرب" بافتتاح "ستوديو مصر" فى أكتوبر ١٩٣٥ مما كان له أثره فى تطور صناعة السينما، وصياغة تشكيل ملامحها وفى خروج الفيلم المصرى إلى الخارج وظهور المجلات السينمائية.

وقد بدأ "ستوديو مصر" بانتاج أول أفلامه فى عام ١٩٣٦ بالفيلم الغنائى "وداد" بطولة "أم كلثوم" وأحمد علام، وخلال ذلك حاولت السينما المصرية أن تعكس المشكلات الاجتماعية خاصة العلاقة بين الرجل والمرأة فظهرت أفلام "غرام وانتقام" ليوسف وهبى، و"فاطمة" لأحمد بدرخان كما حاولت السينما معالجة مشاكل العمل والعمال فظهرت أفلام "ابن البلد" و"العامل" لحسين صدقى فى عام ١٩٣٤ و"الأبرياء" الذى تطرق إلى مضار الطفولة المشردة على المجتمع وإلى جانب ذلك فقد حاولت السينما المصرية أن تبرز مشكلات البيئة المصرية، وإبراز الشخصيات الشعبية مثل الجزار، والفران، والحانوتى فظهرت افلام "الحانوتى" و "بياعة التفاح" و"طاقية الإخفاء"، كما بدأت فى إنتاج أفلام كوميدية مثل "سلامة فى خير" لنجيب الريحانى.

---

(١) للتفاصيل انظر مذكرات يوسف وهبى: القاهرة، دار المعارف، د.ت ، ص ٢٤.

(٢) على شلش: النقد السينمائى فى الصحافة المصرية، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ، د.ت، ص ٤٩.

وإلى جانب ذلك فقد وجد السينمائيون فى التاريخ مجـالا خصـبا لأعمـالهم، فأخـذ السينمائى من التاريخ ما يريده ومن الأفلام التى استوحت موضوعاتها من التاريخ فيلم "شجرة الدر" الذى ظهر فى عام ١٩٣٥ وفيلم "صلاح الدين" الذى ظهـر فـى عـام ١٩٤١ وفـيلم "مصطفى كامل" الذى ظهر فى أوائل الخمسينات، وفيلم "جميلة الجزائرية" الذى ظهـر عـام ١٩٥٩.

وبفضل ستوديو مصر زادت شركات الإنتاج وازداد عدد الأفلام، ومع ذلـك وعلـى الرغم من الانتعاش المفتعل الذى برز فى أعقاب الحرب الثانية، وبالرغم من تطور السـينما وتعلق الناس بها خلال هذه الفترة فقد كانت تدار من قبل بعض أثرياء الحـرب الـذين كـان هدفهم الأساسى الربح، لذلك اقتصرت الحركة السينمائية وقتذاك على أفلام الإمتاع والتسـلية وقصص الحب والغرام.

السينما المصرية فى أعقاب ثورة يوليو ١٩٥٢:

وبعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ تنبهت حكومة الثورة إلى أهمية مدى تأثير السينما فـى المجتمع، فعملت على جعلها مدرسة لتنمية الوعى القومى[١] لذلك قام الفنان "حسين صـدقى" بتقديم فيلم "يسقط الاستعمار" كما أضاف المخرج "محمد كريم" إلى فيلم "زينب" مناظر تؤكد أن المريضة "زينب" ستتوجه للعلاج فى الوحدة الصحية الجديدة التى أنشأتها حكومة الثورة مشيرا بذلك إلى انجازات الثورة فى هذا المجال.

وفى محاولة من رجالات الثورة لضم صفوف السينمائيين إليها صدر فى عام ١٩٥٤ تشريع يقضى بفرض ضريبة إضافية تخصص حصيلتها لدعم السينما، كما شجعت على انتاج أفلام يتقمص بطلها شخصية ضابط وكان من أبرز هذه الأفلام فيلم "الله معنا" الذى يتحدث عن قضية الأسلحة الفاسدة، ويتهم الملك بارتكاب الجريمة فى حق الجيش وفيلم "رد قلبى" الـذى تعرض لإبنة الباشا التى تحب ابن الجناينى الذى التحق بالكلية الحربية والتى كان يصعب عليه الزواج منها لولا قيام الثورة.

وإلى جانب ذلك قامت حكومة الثورة بإنشاء جهاز "مؤسسة دعم السينما" فـى عـام ١٩٥٧ هدف رفع المستوى الفنى والمهنى للسينما.[٢]

---

[١] الكواكب فى ١١ نوفمبر ١٩٥٢.
[٢] عبد المنعم الجميعى: مرجع سابق، ص ٢٨.

تأميم صناعة السينما:

واستمرت أجهزة الدولة فى اهتمامها بفن السينما ورعايته حتـى جـاء عـام ١٩٦٢ فقامت الدولة بتأميم السينما والإشراف على إنتاجها وعروضها بحجة ضرورة مسايرة النمط الاشتراكى، وخلال ذلك تعرضت السينما لمشاكل عديدة نتيجة للتخبط فى سياستها مما أسـهم فى هبوط مستوى الأفلام وخنق روح الإبداع واستمرت الأمور على هذا المنوال حتى حدثت هزيمة يونيو ١٩٦٧م فظهر تيار فى السينما يدعو إلى التغيير، كما ظهر تيار يسعى لعـرض أحداث تاريخ مصر القومى سينمائيا من خلال قصص وروايات بعض الأدباء المتميزين مـن أمثال "نجيب محفوظ" الذى كانت قصة "بداية ونهاية" أول ما ظهر له على الشاشة، كما أتاحت الحكومة نوعا من الحرية ورفعت شعار النقد الذاتى مما دفع السينما إلى إنتاج أفـلام تـدين الاتحاد الاشتراكى علانية مثل فيلم "ميرامار" وعلى الرغم من كثافة الأفلام الجادة خلال هـذه الفترة فان السينما لم تنج من الأفلام الهابطة مثل "الراجل دا هايجننى" و"المراهقات" و"بيـت الطالبات" و"شنبو فى المصيدة" و"العتبة جزاز" و"شنطة حمزة" و"انت اللـى قتلـت بابايـا" و"عفريت مراتى" و "رضا بوند" و "سكرتير ماما" وغيره.

السينما فى عصر الانفتاح:

وفى أعقاب انتهاء المرحلة الناصرية ومجئ الرئيس السادات تحولت البلاد من مرحلة التحول الاشتراكى إلى الانفتاح وتم إعطاء الضوء الأخضر للسينمائيين بـالتعرض لمراكـز القوى فظهرت أفلام "زائر الفجر" و"الكرنك" و"وراء الشمس" و"أسياد وعبيد" و"إحنـا بتـوع الأتوبيس" و"القطط السمان" وغيره وعند تحليلنا لهذه الأفلام يتضح أنها بعرضها لمراكز القوى حاولت إثارة الوعى بين الناس وذكرتهم بما كان يتم فى السجون.

وفى مواجهة أفلام الانفتاح ظهرت بعض الأفلام التى تبين الآثار السلبية للانفتاح على المجتمع المصرى ، وأهم الأفلام التى تعرضت فيها السينما لهذه القضية كان فيلم "انتبهوا أيها السادة" الذى كانت له أصداء مدوية بين الناس، كما تناول فيلم "شقة فى وسط البلد" تفاقم أزمة الإسكان وآثارها السلبية، وإلى جانب ذلك فقد تعرضت السينما لحرب اكتوبر ١٩٧٣ وآثارها فخرجت أفلام "الرصاصة لا تزال فى جيبى"، و"حتى أخر العمر" و"العمر لحظة".

وعند تقييمنا لهذه الأفلام يتضح أنه بجانب محاولاتها بث روح معانى الوطنية والفداء وحب الوطن فإن نهايتها غالبا مثيرة للحزن كما حدث فى فيلم "العمر لحظـة" حيـث مـات الضابط والجندى بعد أن ترك كل منهما حبيبته فى انتظاره.

والأن وبعد ان تركت السينما لقاعدة حرية المنافسة فإن خطورة العمل السينمائى على فكر الجماهير، وتأثيره المباشر الذى قد يتعارض أحيانا مع أداب المجتمع وتقاليـده تقتضـى ضرورة أن يتم رسم الطريق للفيلم المصرى بما يتناسب مع قيم المجتمع وأخلاقياته.

أننا ننشد سينما تسعى لتقديم الفكر والمتعة الفنية معا، وتساعد على حل قضايا المجتمع ومشاكله وطموحاته وانكساراته، وتطمح إلى تغيير الظـواهر المنحرفـة، وتحـارب الفكـر المريض والمعتقدات البالية، والأذواق غير الراقية، ولا تغلق نفسها على ثقافة دون أخرى بل تكون رسالة حضارية للإبداع والتنوير، ولوحدة الفكر والثقافة، وتلتزم الصدق فى النقل عـن الواقع، وتبتعد عن مفاهيم وقيم الثقافة التجارية التى ينحصر هـدفها علـى الـربح وتنمـى الإحساس بالجمال وغرس الذوق أكثر من تشجيعها للعنف والقسوة، وتدفع الإنسان المصـرى إلى الحب الأسرى والعادات المصرية الأصيلة التى تقدس احترام الأبنـاء والأبـاء وتكـون مدرسة ترسم بألوانها وشخصياتها على الشاشة صورة متفائلة لمجتمع الأسرة الواحد البعيـد عن التعصب والذى يظلله التسامح والسلام الاجتماعى، والقيم الثقافية النبيلة وتتميز بالأصالة التى تنأى بنفسها عن السوقية والزيف والابتذال وإذا تم تحقيق ذلك يمكـن أن يشـهد الفـن السينمائى فى مصر تطويرا ومزيدا من الإضافة والتجديد والإبداع الواعى الذى يساعد علـى إثراء ثقافة المصريين، ويبرز دور مصر الحضارى فى العالم العربى، ويكون سفيرا لمصـر فى هذه البلاد. [١]

---

[١] عبد المنعم الجميعى: مرجع سابق، ص ص ٥١- ٥٢.

حادى عشر:المقاهى[١] والصالونات الأدبية فى مصر خلال القرنين التاسع عشر والعشرين

ترتبط هذه الدراسة أكبر الارتباط بتاريخ المجتمع المصرى فهى معرض بديع لتاريخ مصر الاجتماعى والسياسى والثقافى خاصة وأنها تمت بأكبر الصلات للعديد من زعماء مصر وكبار مفكريها الذين كانوا يتخذون من المقاهى والصالونات منتديات لهم يتجمعون حولها لمناقشة أمور الوطن وبحث الحلول الكفيلة للتخلص من مشاكله. كما أنها كانت موقعا مفضلا للعامة والتجار والصناع والزائرين الغرباء. وإلى جانب ذلك فإنها تتصل بتاريخ العادات الشعبية بتراثها الكبير الذى خلفته لنا الأجيال السابقة، وتكشف عن الينابيع الأصيلة للأدب الشعبى والفنون الشعبية وللعقول المفكرة التى كانت تعنى بالفكر والأدب وكتبت بعد أن دار الزمن دورته ما يعبر عما فى وجدان الشعب المصرى، وشخصيته المميزة على مر العصور، والتى كانت ذخيرة حية، ومنطلقا للأجيال الحاضرة التى رأت فيها مصر بعيون صادقة جمعت بين الأصالة والمعاصرة.

وإلى جانب ذلك فإن هذه الدراسة تتعرض لحياة الأفراد العامة، كما تتعرض لبعض الظواهر الأخلاقية والثقافية التى تتشابك فيها الملامح الانسانية للمصريين بكافة أشكالها وألوانها والتبادلات والألفة الاجتماعية المتصلة بها لدرجة أنها قدمت لنا المجتمع المصرى فى أثوابه المختلفة زاهية وقاتمة بل وبالية فى أحيان أخرى.

ويبدو أن المؤرخ تقى الدين المقريزى (١٣٦٤- ١٤٤١م) كان أول من فطن إلى أهمية هذا الموضوع فقضى أعواما طويلة من حياته فى خططه التى تعد من أنفس المصادر فى تاريخ مصر الإسلامية، والتى لم ينس فيها ذكر المقاهى والمنتديات التاريخية، فقدم لنا مجموعة من الصور الاجتماعية والشعبية الفريدة ثم جاء على مبارك وسار على منواله فقدم "الخطط التوفيقية" تلك الموسوعة الهامة التى أخرج فيها لمصر المعاصرة- من غمر الأحقاب

---

(١)ترجع نشأة المقاهى إلى أصول شرقية نقلت فكرتها إلى أوربا عن طريق طبيب ألمانى يدعى "ليونارد راوفولف" كان قد زار حلب فى أوائل القرن السادس عشر، وجلس على مقهى، وشرب أول قدح من القهوة فى حياته ولما عاد إلى بلاده نقل هذه الفكرة إليها. كما عرف الأتراك فكرة المقهى بعد فتوحاتهم للبلاد العربية حيث ظهر فى القسطنطينية أول مقهى فى عام ١٥٥٤م أما فى مصر فقد عرفت المقاهى فى أوائل القرن السادس عشر. وقد تطورت المقاهى بعد ذلك، وتفنن أصحابها فى تأثيثها وتزويدها بمختلف أدوات التسلية والترفيه، كما أصبحت من منتديات السمر والسياسة والثقافة والأدب.
للتفاصيل انظر: الرسالة العدد ٢١٧ فى ٣٠ أغسطس ١٩٣٧، ص ١٤٣٦ تحت عنوان "تاريخ المقاهى".

البعيدة، والأثار المنسية والأطلال الدارسة- صورا فياضه واضحة مزجت الماضى بالحاضر.[١]

وقد أحصى على مبارك عدد المقاهى فى القاهرة وحدها فى عام ١٨٨٠م فكان عددها ١٠٦٧ مقهى، وكان أكبر عدد منها فى منطقة الأزبكية حيث بلغت ٢٥٢ مقهى، ثم جاءت منطقة بولاق فى المرتبة الثانية حيث بلغ عدد المقاهى بها ١٦٠ مقهى،وبالنسبة لمنطقة الجمالية فكان يوجد بها١٤٢ مقهى، وعن منطقة عابدين فقد بلغ عدد المقاهى بها ١٠٢ مقهى أما المستشرق الانجليزى "ادوارد وليم لين" Edward William Lane فى كتابه: The Manners and customs of the Modern Egyptians.[٢]

فقد ذكر أن بالقاهرة أكثر من الف مقهى، وأن المقهى كان عبارة عن غرفة صغيرة ذات واجهة خشبية على شكل عقود، وفى داخلها مقاعد متشابهة على جانبين أو ثلاثة، كما أوضح أن المقاهى كان يرتادها أفراد الطبقة السفلى والتجار وتزدحم بهم عصرا ومساء، ويقدم القهوجى القهوة بخمس فضة للفنجان الواحد، وأنه كان يحتفظ بعدد من آلات التدخين من نرجيلة، وشيشه، وجوزة، وكان الموسيقيون والمحدثون يترددون على بعض هذه المقاهى خاصة فى المناسبات الدينية[٣]، وكان يمر على هذه المقاهى القرداتية ولاعبى الثعابين التى ترقص على أنغام المزمار لعرض ألعابهم، كذلك تشاهد الغوازى وهن يرقصن بمصاحبة الموسيقى والغناء تحت أضواء القناديل.[٤]

وربما ارتبط تعداد مقاهى القاهرة بالتوزيع الجغرافى للسكان والتركيبة الاجتماعية لهم فى ذلك الوقت فالأزبكية مثلا ارتبطت بأنها مكان للترفيه كما أنها كانت مكانا للندوات الأدبية ومن هنا تزايد عدد المقاهى بها خاصة حول البركة حيث كان يتجمع الأهالى. وبالنسبة لبولاق فكانت شبيهة بالأزبكية نظرا لوقوعها على النيل حيث كان يجتمع الناس حوله، أما بالنسبة للجمالية فقد كانت ملتقى الأسواق فى ذلك الوقت ومن البديهى تواجد المقاهى بها. وقد انقسمت المقاهى فى القاهرة إلى قسمين بلدية وافرنجية وكان هناك أيضا مقاهى للنوبيين تعد بمثابة وكالات أنباء بالنسبة لهم فى القاهرة يعرفون من خلالها أخبار عائلاتهم وما يدور فى

---

(١)محمد عبد الله عنان: مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، ص ٧٠- ٧٣.

(٢)طبع فى لندن عدة طبعات وترجمة عدلى طاهر نور إلى العربية تحت عنوان المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم فى القرن التاسع عشر، وقد أعادت الجامعة الأمريكية بالقاهرة طباعته والتقديم له فى عام ٢٠٠٣ تحت عنوان: " An Account of the Manners and Customs of the modern Egyptians.

(٣)ادوارد وليم لين: المصريون المحدثون – ترجمة عدلى طاهر نور، ص ٢٤٨.

(٤)جيرار دى نرفال: رحلة إلى الشرق- ترجمة كوثر البحيرى، ص ١٢٤.

بلادهم[١]، كما كانت توجد مقاهى للصعايدة، ومقاهى أخرى لأصحاب المهن والحرف المختلفة الذين كانت تربط بينهم التبادلات الاجتماعية المتصلة والألفة الاجتماعية، فكان يوجد فى حى باب اللوق مقاهى للمنجدين كانوا يجلسون إليها ومعهم أدوات التنجيد، وكان فى حى القلعة مقاه خاصة لكل طائفة من طوائف عمال المعمار مثل البنائين والمبلطين والنجارين والنقاشين، والمبيضين وغيرهم من أصحاب الحرف التى ليس لها دكاكين وإلى جانب تلك المقاهى أو المنتديات الشعبية سنتعرض للمنتديات الارستقراطية أى الصالونات الأدبية، تلك التى كان يؤمها فئة رفيعة المستوى من كبار رجالات مصر الذين نقشت أعمالهم بحروف بارزة فى سجلات الفكر المصرى المعاصر، وفيما يلى نعرض للأدوار التى لعبتها المقاهى ثم نتبعها بالصالونات الأدبية.

أولا: المقاهـــــــــى:

١-الدور الاجتماعى والفكرى:

لقد ضمت المقاهى والمنتديات خلال هذه الفترة مزيجا مختلفا من طبقات المجتمع المصرى فكان منها الأزهرى المعمم، ومنها الأفندى المطربش، ومنها التاجر والموظف، ومنها أرباب الحرف والأعمال اليدوية، كما كان منها بعض العاطلين وأفراد الطبقة السفلى الذين يغرمون بالسخرية من عباد الله بهدف المتعة وكان لهؤلاء وهؤلاء ضروبا شتى من الطباع، وألوانا متباينة من التصرفات بعضها بغرض التسلية والتسرية وبعضها الآخر بهدف كسب الرزق والاحتيال عليه، بل وبعض منها بغرض كسب الإعجاب، وهناك من كان غرضه الهرب من الحياة الزوجية والبعد عن حياة الأسرة، بل كان هناك من يذهب لتناول المشروبات وقرقرة الشيشة وتدخين النرجيلة التى كان يهيئها صاحب القهوة، ومنهم من كان يذهب للاشتراك فى جلسات الحشيش والقمار[٢]، والمسكرات أو الفرجة فى مجالس الرقص والفجور[٣]، ومنهم من كان يقوم بممارسة الألعاب المسلية التى تعتمد على الحظ مثل لعب الورق والدومنو، والشطرنج والنرد[٤]، وغيرها مع أصدقائه بغرض قضاء بعض الوقت معهم ينفحهم فيه من الأحاديث حلوها ومرها ومنهم من لا عمل له إلا الطواف بالمقاهى بحثا عن المتعة ومشاهدة الراقصات والوقوف على من يعرف من الناس والتحدث إليهم فى الأسباب

---

(١)عبد المنعم شميس: قهاوى الأدب والفن فى القاهرة، ص ١٥.
(٢)ادوارد وليم لين: المصريون المحدثون، ص ٢٤٨.
(٣)محمد عمر: حاضر المصريين أوسر تأخرهم، ص ٢٦٠.
(٤)اللعبة المعروفة بالطاولة.

الدائرة فى البلد[١]، ومنهم من يجلس فى مقهى قريب من دار محبوبته ينتظر ساعات طوال على أمل أن يلمح لون ثوبها الحريرى الأخضر خلف المشربية[٢]، أو يرى خيالها الذى يلتصق بذاكرته، وربما تذهب معاناة انتظاره سدى. ومنهم من كان يتخذه مكانا للتأليف الذى تعتمل فيه باستمرار التبادلات الاجتماعية المتصلة والألفة الاجتماعية، ومنهم من يرغب فى سماع صوت العود والقانون الذى يملأ الفضاء وسط تأثير البخور الممتزج بالعود والند، ومنهم من يذهب إليها لمشاهدة القرادتية ولعبه صراع الديكه والحواة الذين كانوا يقابلون بالترحاب كعناصر تسلية والبهلوانات والراقصات الذين يقدمون رقصات شعبية ساخرة فى تلك الأمكنة بالإضافة إلى أصحاب الثعابين الذين يجعلونها ترقص على أنغام المزامير وسط أصوات يلعلع أصحابها تيها وعجبا، ومنهم من يذهب إليها للانصراف عن مشاكله الحقيقية إلى غيبوبة القصص الخرافية والحكايات الوهمية فيستمع إلى الأدباتية وقصص القصاصين بل وفى أحيان أخرى يستمعون إلى شعراء الربابه الذين يقصون قصص القدماء والسير الشعبية ذات المضمون الأدبى المؤثر مثل قصص زناته، والسيرة الهلالية، وسيرة الظاهر بيبرس، وأخبار النبى أيوب، وقصة سيف بن ذى يزن ، والسلطان حسن، والسيرة المحمدية وغيرها من السير التى تعيد إلى الأذهان ذكرى بطولات الأجداد، ومنهم من كان يذهب إليها للترفيه عن نفسه بمشاهدة عروض العرائس المتحركة "القراقوز" وعروض خيال الظل وسماع المطربين[٣]، ومنهم من كان يرى فيها تجمعا يؤمه أهل الفكر وأعلام السياسة والصحافة ومجلسا للدعاية البارعة والروح المصرية المرحة ومقصدا للأدباء والشعراء وهواة الأدب ما بين أصيل ودخيل وصاحب موهبه، وصاحب حيل وألاعيب ، ومنهم أصحاب المواهب من الشبان الذين تألق نجم بعضهم، وأصبحوا يتبارون بمساجلاتهم ويكتبون وينظمون ويتناقشون فى علومهم وفنونهم، وتقوم المجادلات بينهم حول المعركة بين القديم والجديد أو فى المقارنة بين حافظ وغيره من الشعراء أو التغنى بالشعر والأدب على السواء، خاصة بعد أن ضاقت البيوت عن استضافة مثل هؤلاء الأصدقاء، وتلك المجموعات الكبيرة من الناس ذات الأهواء المختلفة والمواهب المتعددة، وبذلك أصبحت المقاهى والمنتديات تلعب دورا كبيرا فى الحياة الاجتماعية المصرية، خاصة وأنها كانت مجالا لاطلاق النكت العذبة، التى يهيمون بها

---

(١) عبد العزيز البشرى: المختار، جـ٢، ص ١٨٧.

(٢) توفيق الحكيم: عصفور من الشرق، ص ٦٠.

(٣) كانت مقاهى القاهرة تتبع تقليدا فنيا لجذب الرواد واغرائهم بالجلوس الطويل حيث كان لكل مقهى مطرب خاص به يذهب الناس إليه خصيصا للاستماع إليه، لكن هذه المظاهر اندثرت بدخول الراديو والتلفزيون إلى مصر.

ويتسابقون إليها كما كانت مجالا للأحاديث الأدبية، والفكاهة الحلوة التى لو جمعت فى كتب لجاءت لنا بكم كبير من المجلدات المفيدة.

ففى الاسكندرية التى لم تخل شوارعها وحاراتها من المقاهى البلدية خلال القرن التاسع عشر والتى استمر الاقبال عليها فى التزايد من جانب الطبقات الدنيا، كانت هذه المقاهى تتكون من مساطب للجلوس لعمل القهوة والشاى ثم تطورت وأصبحت تشتمل على مقاعد ومناضد مصنوعة من الخشب يمر من خلالها الجرسون بخفة وسرعة حاملا بمهارة صينية مملوءة بفناجين القهوة الصغيرة، كما كان يمر بائع العرقوس وعصير الليمون الذى كان يمسك بصاجات من النحاس يضربها ببعضها مثبتا على كتفه حمالات تعينه على حمل الآناء النحاسى، وأكواب وضعها فى حزام حول وسطه وأثناء ذلك ترتفع أصوات بائعى الفاكهة والخضروات وهم يروجون لبضاعتهم وأمام المقهى يمكن أن تسمع فرقعة سوط هوى على ظهر حمار يجر عربه كارو بصعوبة(١)، أما المقاهى الأفرنجية فكانت كبيرة، وكان يرتادها الموسرون أصحاب الحلل المفصلة والطرابيش والمشهورة منها القهوة الفرنساوية بميدان محمد على وقهوة أوربا فى حارة رأس التين، وقهوة البرادى فى حارة البوسطة الفرنساوية فى ساحل البحر، وقهوة البحر، وقهوة المدرسة المشرقية وقهوة الحظ، وقهوة مغنى التى يلعب فيها التياترو وغيرها.(٢)

وكان هؤلاء يجلسون إلى موائدهم بالساعات يرقبون حركة الناس فى الشارع وهم يشربون القهوة التركية وفى يدهم منشه يحركونها دائما لطرد الذباب، وفى اليد الأخرى كانت المسبحة المصنوعة من الكهرمان وأحيانا كانوا يقرأون الأهرام بينما يقوم ماسح الأحذية بتلميع أحذيتهم وقد لعبت هذه المقاهى دورا هاما فى تكوين مجموعة من أبرز المفكرين الذين قادوا الحركة الثقافية فى مصر وكانوا من اعلام نهضتها، وكان كل مقهى منها عبارة عن مجتمع صغير يضم ضروبا شتى من الطباع وألوانا متباينة من التصرفات، وحياة زاخرة بالأفكار والأحداث والشخصيات. ففى مقاهى أزقة وأحياء الاسكندرية القديمة نشأ الأديب والسياسى عبد الله النديم الذى أضحك الناس وأبكاهم حيث اختلط بالحمالين والسقائين وأصحاب المزاج الذين يسخرون بكل شئ؛ ومن كل شئ سخرية موجعة كأنها السياط التى تجلد ظهر المجتمع.

لقد تعايش النديم مع هؤلاء واستمع إليهم وشاركهم السخرية من أوضاع المجتمع المقلوبة وكانت كتاباته فى مجلته "التنكيت والتبكيت" من أروع الأدلة على ذلك فتحت عنوان

---

(١) استر تسميرلى: حياتى فى مصر ، مذكرات فتاة سويسرية عاشت فى الاسكندرية، ترجمة محمد ابو رحمه، ص ٥٥.
(٢) على مبارك: الخطط التوفيقية، جـ٧، ص ص ٢٠٠- ٢٠١.

"تخريفة الجنون فنون" أعطى النديم صورة كاريكاتورية لجو مقهى مصرى جلس عليه أحد المحتالين يقرأ أكاذيب سماها قصة عنتره فاجتمع إليه الكثير من الرعاع والهمج الذين ولعوا بسماع الأكاذيب والخرافات وقد دعا النديم هؤلاء إلى الانتباه إلى مشاكلهم الحقيقية بدلا من ضياع وقتهم فيما لا ينفعهم[١]، وذلك بأسلوب واقعى جذاب يحمل بين دفتيه التنكيت والتبكيت معا.

وإلى جانب ذلك تعرض النديم لتجربته الشخصية مع الادباتية الذين كانوا يمرون على المقاهى فذكر أنه كان جالسا فى مقهى الصباغ المجاور للمسجد الأحمدى بطنطا ذات مرة فمر عليه أحد الأدباتية المحترفين بطبلته وطرطوره ووجهه المدهون بالجير يبغى منه قرشا بقوله:

أنعم بقرشك يا جندى	والا إكسنا أمال يا أفندى
إلا أنا وحياتك عندى	بقى لى شهرين طوال جيعان

ولما كان جيب النديم خاويا فى ذلك الوقت، ولا يملك قوت يومه فقد تحركت فيه أريحته ورد مرتجلا:

أما الفلوس أنا مديشى	وأنت قلت لى: أنا ما أمشيشى
يطلع على حشيشــــى[٢]	أقوم أملــــــص لك لو دان !

وتستمر المبارزة نحو ساعة ينهزم بعدها الأدباتى أمام النديم[٣]، وفى مقاهى الاسكندرية الشعبية بدأ الشيخ سلامه حجازى منشدا ، كما برزت موهبه سيد درويش الموسيقية عندما كان ينتقل من مقهى إلى آخر حيث تنطلق حنجرته بالغناء والشدو ممسكا عوده ليعزف عليه عزفا يصاحب صوته كمطرب فى مقاهى الإسكندرية الشعبية وهو يتوسط تخته وخلال ذلك تصادف أن استمع إلى صوته الممثل أمين عطا الله صاحب الفرقة التمثيلية

---

(١) التنكيت والتبكيت: العدد الأول فى ٦ يونيو ١٨٨١ ، ص ١٠-١١.
(٢) اى يخرج عن صوابه لأن الحشاش يتصرف غالبا تصرفات غير طبيعية.
(٣) احمد امين: زعماء الاصلاح فى العصر الحديث، ص ٧٨.
ومن الفنون الشعبية التى كانت معروفة فى مقاهى القاهرة أيضا فن القافية وهو فن يقوم على مباراة كلامية بين شخصين يطلب احدهما من صاحبه أن يدخل معه فى قافيه، وعندما يقول الأول كلاما لاذعا فى وصف صاحبه يقول له الأخر (ايش معنى) أى ماذا تقصد فيرد عليه الشخص الأخر ردا لاذعا أيضا، ومن شروط هذه المباراة الا يغضب أحد الطرفين، وقد اشتهرت قهوة بجوار جوامع السيدة نفيسة بهذا اللون من فنون المقاهى. ومن المعروف أن الفنان نجيب الريحانى بدأ حياته التمثيلية بتقليد هذا اللون من الفنون.
انظر: عبد المنعم شميس: مرجع سابق، ص ٢١-٢٢.

المشهورة وقتذاك فأعجب بصوته، وعرض عليه الالتحاق بفرقته ليغنى بين فصول المسرحيات كما أخذه معه إلى سورية ولبنان حيث نمت موهبته الموسيقية[1]، ولمع نجمه.

وإلى جانب ذلك فقد بدأ فى قهوة "زوانى" بالإسكندرية أول لقاء بين الجمهور والأشرطة السينمائية عام ١٨٩٦ حيث أقيمت حفلة كانت الأولى من نوعها فى القطر المصرى، وكانت عبارة عن فنون سينمائية شملت فيلما فرنسيا قصيرا.[2]

وعن أهم مقاهى القاهرة خلال تلك الفترة نذكر: مقهى الفيشاوى: [3] الذى أنشئ فى عهد الخديو إسماعيل بالقرب من مدخل خان الخليلى الضيق من جهة الحرم الحسينى الذى يختزن فى ذاكرته أكثر من قرن ونصف من تاريخ مصر حيث جلس معظم أدباء ومفكرو مصر وصحفيوها على اختلاف أجيالهم وعقلياتهم وتباين ثقافتهم حول موائد الشاى الأخضر والأحمر، والشيشة العجمى كل مع من يأنس إليه، فنجد منهم الشيخ الأزهرى القح، والأديب الذى ملأ جعبته بالنوادر، والحديث عن العقاد والمازنى وهيكل وطه حسين والزيات وأحمد أمين وغيرهم والصحافى الذى يتحدث عن نجوم السينما والمسرح ويتطرق إلى يوسف وهبى، وجورج أبيض، وأمينة رزق.

وكانت السهرات الطيبة فى هذا المقهى تكثر فى شهر رمضان، فتستبدل أكواب الشاى بأكواب الزبيب والمكسرات، كما يتزايد فى حلقات الفيشاوى أعداد رجال السياسة والأدب والصحافة فنجد لطفى السيد باشا، وهيكل باشا، وفكرى أباظة، ولطفى جمعه، ونجيب محفوظ والكثيرين من أساتذة الجامعة ومشايخ الأزهر وأعضاء مجلس النواب كل منهم يطلب السمر، والاستعانة على السهر حتى السحور. وبعد أن يأتى العيد يعود الوضع إلى مستواه، ولا يبقى بالفيشاوى إلا الذين يعكفون عليه من الصحفيين والأدباء والشعراء[4] والذين تتبعث من خلالهم الاتجاهات والتيارات الأدبية والفنية والفكرية المختلفة وعند قيام الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ظل مقهى الفيشاوى المكان الذى يستقبل الراغبين فى السهر، حيث لم يكن فى القاهرة كلها مقهى ساهرا طوال الليل فى ليالى الغارات سوى مقهى الفيشاوى الذى كان يغلق أبوابه

---

(1) للتفاصيل أنظر. عبد المنعم الجميعى: تطور الموسيقى والطرب فى مصر الحديثة، ص ٥٩.

(2) الأهرام عدد ٦ يناير ١٨٩٦ والجدير بالذكر أن مقاهى الاسكندرية كانت الموقع الخصيب الذى يلجأ إليه المقامرون من المصريين والأجانب الذين ما لبثت أن تنتهى لقاءاتهم بعد نهاية المقامرة بتشاجرهم، واعتداء بعضهم على الأخر.
أنظر الجريدة العدد ١٣٨٣ فى ١٩١١/١٠/٢.

(3) مؤسس هذا المقهى هو محمد فهمى الفيشاوى، والذى كان من المشرفين على أعداد الحفلات الخديوية، والذى أهدته احدى الأميرات مجموعة من الحجرات شكلت المقهى. القاهرة العدد ٢١٧ فى ٨ يونيو ٢٠٠٤.

(4) الرسالة ١٩٣٩ ص ٤٠٤ ـ ٤٠٥

على رواده الذين يمارسون لعبه الدومينو ويحتسون الشاى الأخضر دون إحساسه بالقلق الذى تثيره الغارات الجوية من وقت لأخر.[١]

والجدير بالذكر أن هذا المقهى شهد أول لقاء للتعارف بين الشاعر بيرم التونسى والملحن زكريا أحمد هذا الثنائى الذى كان له الفضل فى تطور الأغنية العربية ولاسيما القصائد التى شدت بها كوكب الشرق أم كلثوم. كما شهد هذا المقهى قفشات الشاعر كامل الشناوى يستهدف بها الشاعر عبد الحميد الديب .

وإلى جانب ذلك فقد أبدع نجيب محفوظ ثلاثيته بين القصرين والسكرية وقصر الشوق بين جنبات هذا المقهى[٢]، حيث استلهم منه أفكار وأحداث هذه الروايات وغيرها.

وعلى الرغم من أن هذا المقهى قد اكتسب شهرة كمجلس مفضل للمثقفين والفنانين، كما ارتبط بأسماء العديد من الشخصيات التاريخية، فقد تبدلت أحواله مع اختلاف أحوال الزمان، وبنيت أمامه عشرات المحال التجارية والمطاعم مما حجبه عن المشهد الحسينى، كما اختفت الندوات التى كانت تقام فيه، ويتقلص رواده من أهل الفن والأدب بسبب الزحام الشديد وفضول باعة اللب والسودانى والشحاذين وغيرهم.[٣]

ونذكر مقاهى حى الأزبكية التى لعبت دورا كبيرا فى حياة كثيرين من رواد نهضتنا الأدبية والفكرية، فقد كانت مسرحا لأدباء مصر، حيث كانوا يرتادون المقاهى والمراقص المنتشرة على وجه البركة خاصة "كازينو سانتى" وكثيرا ما يجعلون مما يشاهدون من لهو موضوعا لكتاباتهم عن هذا العالم الغريب خاصة وأن العديد من هذه الأماكن كانت عبارة عن مراقص ومغانى وأندية للقوادين وتجار الأعراض وبؤرة للحشاشين وبائعى المخدرات، ومجمعا لطلاب اللهو الحرام، وكان أصحاب المقاهى يتنافسون فى اجتذاب الجماهير، فيتخذون وسائل مختلفة لإغراء الناس بالجلوس فى مقاهيهم . فمنهم من يستأجر الفتيات الجميلات من بنات الهوى، ومنهم ما يستأجر القصاصين لتسلية الناس بالقصص الطويلة والحكايات اللطيفة، والنوادر الطريفة والملح المطربة والنكات المنعشة، وكان القصاصون يجلسون فوق دكة مرتفعة، ويأتون بحركات تناسب المقام، أما عن المستمعين فكانوا يجلسون على أقفاص من سعف النخيل فى ضوء مصابيح الزيت الخافتة[٤]، وخلال ذلك ينشد القاص بعض الأزجال

---

(١)محمد عبد الواحد: حرائق الكلام فى مقاهى القاهرة، ص ١٩٣.
(٢)القاهرة العدد ٢١٧ فى ٨ يوليو ٢٠٠٤.
(٣)محمد عبد الواحد: مرجع سابق، ص ٢٠٢.
(٤)جيرار دى نرنفال: مرجع سابق، ص ١٢٤.

والموشحات والمواويل أو الشعر العامى فى سيرة الظاهر بيبرس، وهز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف وغيرها.[١]

ومنهم من يستأجر أحد المطربين للغناء، وكانت أشهر المقاهى التى تدعو المطربين للغناء بها مقهى "عثمان أغا" الذى عمل به عبده الحامولى، وأقبل الناس من كل صوب على سماع صوته الرخيم، ومقهى "نزهة النفوس" الذى عملت فيه منيرة المهدية فى مطلع حياتها الفنية، ومقهى "الكازار" الذى عملت به الأختان "قمر وليلى"[٢]، ومقهى "سانتى" الذى عملت به أم كلثوم[٣]، وكان شاعر النيل حافظ إبراهيم كثيرا ما يخرج إلى حديقة الأزبكية ليجلس تحت دوحه حانيه متهدله الأغصان كان يسميها شجرة البؤساء، وكان ينظم أبياتا ويكتب كلمات يدونها، ويلتقى ببعض أصدقائه ليتحادثون فى أمور الأدب والثقافة.[٤]

وإلى جانب ذلك فقد كانت مقاهى وجه البركة مجمعا للنصابين والمحتالين الذين يتصيدون أهل الريف القادمين إلى القاهرة ويبتزون أموالهم وكان سماسرة البورصة يتخذون من هذه المقاهى أماكنهم وينصبون شباكهم للقادمين من الريف إلى القاهرة ولما كانت المحكمة المختلطة تقع فى ميدان العتبة القريب من البركة فقد انتشر وكلاء المحامين الأجانب فى المقاهى الواقعة بتلك الناحية يصطادون أرباب القضايا من المصريين وغيرهم.[٥]

ونتيجة لما أشيع عما يحدث فى هذه المقاهى من مخالفة للآداب العامة فقد اعتبر معظم رجال الدين الجلوس فى المقاهى شيئا لا يليق بالكرامة، ولا يناسب الوقار الدينى، وانكروا على الطلاب ذهابهم إليها حتى كان شيوخ الأزهر يبثون العيون ليقبضوا على كل طالب يجلس على القهوة ويقدموه للعقاب بحجة أن المقاهى تجمع الصغار والكبار والأراذل الذين يروجون الأكاذيب ويغتابون الناس ويلعبون الشطرنج وألعاب الميسر ورأوا أن ذلك يخل بالمروءه ويسقط الشهادة ويدنس العرض[٦]، واستمرت الأحوال على ذلك لفترة لدرجة أنهم نعتوا فندق شبرد بخمارة شبت.

وإلى جانب ذلك نذكر مقهى المضحكخانة وهى قهوة قديمة يرجع تاريخها إلى عهد محمد على وتقع فى شارع الخليفة بحى السيدة زينب، وكان يطلق عليها "المضحكخانة الكبرى" وقد أختير الشيخ حسن الآلاتى رئيسا لها ملقبا بالشيخ العتيد، وكان يؤمها أهل الفكر

---

(١)محمد كيلانى: فى ربوع الأزبكية ، ص ص ٢٥- ٢٦.
(٢)شريف عفت: تاريخ لأل قبحا، ص ٨١.
(٣)عبد المنعم الجميعى: مرجع سابق، ص ٧٧.
(٤)محمد كامل جمعه: حافظ إبراهيم، ص ٥٤.
(٥)كيلانى: مرجع سابق، ص ص ٩٨-٩٩.
(٦)محمد سيد كيلانى: مرجع سابق، ص ٢٣.

والأدب وكثير من ذوى الحيثيات يتشاورون فى أمور وطنهم، ومن هؤلاء نذكر الشيخ أبو نصر المنفلوطى وأحمد سمير، وأمين فكرى.

وقد وصف الشيخ حسن الآلاتى هذا المقهى بقوله "اتخذنا مركزا أمينا، وحصنا حصينا وهى قهوة لطيفة فى شارع الخليفة ولما تم الانتظام، ورضينا بهذا المقام سمينا هذه الجلسة الغراء بالمضحكخانة الكبرى، وشاع صيتها فى البلاد، واشتهرت بين العباد، وقد ظلت هذه القهوة ملاذا لأهل الأدب والظرف فترة طويلة من الزمان، وبين أرجائها كانت تتردد الملح العذبة والقفشات الطريفة، ومنها كانت تصدر النكات الحلوة التى تدوم طويلا على ألسنة الناس".[١]

وفى باب الخلق ذلك الميدان الذى يمر به الطريق الواصل إلى الحسين، والسيدة، والإمام، وفيه كانت تقام دار الكتب وجدت "قهوة باب الخلق" التى كانت منتدى "للصحفيين والأدباء قضوا به العديد من السهرات العامرة، والمجالس الحافلة التى حملت العديد من الذكريات فخلال عمل حافظ إبراهيم بدار الكتب كان ينسل إلى هذا المقهى مع صحبه وأخوانه أمثال أمام العبد، وصاحب الصاعقة، ومنشئ الحماره يقطع وقته فى جد القول وهزله.[٢]

وكان يجلس فى هذا المقهى الشيخ محمد المهدى، وحفنى ناصف والشيخ محمد الخضرى، وبعض طلاب الأزهر، ومدرسة المعلمين الناصرية يتحدثون فى الدين والسياسة، واللغة والأدب كما ارتاد هذا المقهى طه حسين، وأحمد حسن الزيات، وبعض المتمردين على حواشى الأزهر ومتونه، واستمر طه حسين يرتاد هذا المقهى، وبعد أن تمرد على أخوانه راح ينعتهم بأدباء باب الخلق.[٣]

وفى هذا المقهى كانت تعقد الندوات التى كان يحضرها أحمد مخيمر والهمشرى وطاهر أبو فاشا والشاعر أحمد فتحى وعبد الرحمن الخميسى.[٤]

وفى مقهى بشارع قصر النيل قرب من الجامعة القديمة[٥] كان طه حسين يجلس عليه قبل أن تبدأ المحاضرات بساعة أو أكثر وفيها كان يدور الحوار والأحاديث بين الطلاب وفيها تلقى طه حسين بعض دروس اللغة الفرنسية من أحد زملائه.[٦]

---

(١) جمال الدين الرمادى: عبد العزيز البشرى، ص ١٠٥-١٠٦.
(٢) محمد كامل جمعه: المرجع السابق، ص ٥٣.
(٣) الرسالة: العدد ٣٠٤ فى أول مايو ١٩٣٩ تحت عنوان "الأندية الأدبية فى مصر"، ص ٨٦٦.
(٤) نعمان عاشور: مع الرواد: ص ١٠.
(٥) مقر الجامعة الأمريكية الحالى.
(٦) طه حسين: أديب،

وعن مقهى الكتبخانة المواجهة لمبنى دار الكتب بشارع محمد على فقد كانت مؤثثه على الطراز العربى، وبها كان المكتب غير الرسمى لشاعر النيل حافظ إبراهيم والذى كان لا يصعد مكتبه فى دار الكتب إلا قليلا وكانوا يحضرون له الأوراق الرسمية التى يجب وضع توقيعه عليها فى هذا المقهى وهو يشرب القهوة ويدخن الشيشة، وهو غارق فى كتابه قصائده وإعادة ترتيب بعض كلماتها حتى يتلوها على أصدقائه أمثال ولى الدين يكن، وخليل مطران، وعبد العزيز البشرى، وفؤاد الصاعقة وحفنى ناصف والبابلى وغيرهم ليتبين آراءهم فيها، كما كان يتعرض لأحوال مصر الاجتماعية مازجا ذلك بالنوادر والفكاهات، وفى كان يطعن فى فنه فذلك الكسر الذى لا يجبر، والذنب الذى لا يغفر. كما كان بعض موظفى دار الكتب يتسللون إلى المقهى لاحتساء الشاى والتدخين حيث لم يكن مسموحا لهم بذلك داخل الدار، وربما لذلك لم نسمع عن حرائق بسبب مواقد صناعة الشاى وأعقاب السجائر فى دار الكتب وغيرها، كما يحدث الآن وخلال ذلك كان أدباء دار الكتب وشعرائها ومنهم أحمد رامى يقضون وقتهم فى قرض الشعر وسط ضجيج رواد المقهى.

ومن رواد هذا المقهى أيضا الشيخ الشربتلى أحد أعلام الصحافة المصرية ومجموعة من محررى الحوادث والقضايا الذين كانوا يجتمعون كل صباح فى المقهى انتظارا لنظر القضايا فى محكمة باب الخلق القريبة من المقهى وبجوارها مديرية أمن القاهرة.[١]

ولم يقتصر أمر المقاهى على المبارزات الفكرية والشعرية بين روادها بل كانت تقام مباريات أخرى أكثر إثارة بين الديوك، حيث يحتشد عشرات المتسابقين من الباشوات والبكوات والأجانب وغيرهم لمشاهدة هذه المباريات.

وفى مقهى ايزافيتش بميدان التحرير توافد الفنانون والمفكرون والمثقفون من كل لون فقد تردد عليها المؤرخ محمد صبرى السربونى والمهندس حسن فتحى، وأبو بكر سيف النصر الذى كان يشبه الملك فاروق كثيرا، وتوافد عليها رجال الحركة الشيوعية، كما توافد عليها المحامون، وكبار الموظفين وأعيان الريف الذين كانوا يترددون على وزارات الحكومة ومصالحها فى حى لاظوغلى.

وفى مقهى الحرية[٢]، بميدان الأزهار بباب اللوق وسط القاهرة كان يتردد عليه المازنى وزكريا أحمد ومحمود الحفنى، وبيرم التونسى وإبراهيم ناجى ونعمان عاشور والعديد من الأدباء أو المتعلقين بهواية الأدب وكانت به أماكن لجلوس النساء، كما كان يرتاد هذا

---

(١) محمد عبد الواحد: مرجع سابق، ص ٢١٣- ٢١٦.
(٢) بنى على انقاض منزل احمد عرابى، وقد افتتح فى عام ١٩٣٦.

المقهى البكوات ورجال الفن. وقد جلس على هذا المقهى من الضباط الأحرار أنور السادات وبعض زملائه الذين التقوا بهذا المقهى، واتفقوا فيه على العديد من القرارات الحاسمة.

وبعد قيام ثورة يوليو اختفى الطابع الكلاسيكى لهذا المقهى، واختفت أوجه الأبهه فيه ولم يعد يتردد عليه سوى عشرات الزبائن معظمهم من الشباب والحرفيين الذين يحيلونه إلى قطعة من الصخب المجنون.[١]

وارتبط مقهى ريش بتفريخ العديد من المشروعات الأدبية والفكرية فقد ولدت فيها فكرة إصدار مجلة الكاتب المصرى التى تولى رئاسة تحريرها الدكتور طه حسين ومجلة الثقافة الجديدة التى رأس تحريرها رمسيس يونان كما طفت من خلال ريش فوق سطح الثقافة المصرية حركات فكرية نشطت مع العائدين من الخارج وخاصة من فرنسا، وكان معظمهم من مؤيدى الاشتراكية بمختلف مدارسها.

وابتداء من عام ١٩٦٣ كان نجيب محفوظ يعقد ندوة اسبوعية صباح كل يوم جمعة بمقهى ريش، ومنذ ذلك الوقت أصبحت المقهى مقصدا لجيل جديد من الأدباء والمثقفين منهم صلاح جاهين وعبد الرحمن الابنودى ورشدى اباظة وعباس الاسوانى وكمال الملاخ ونجيب سرور وغيرهم.

وإلى جانب ذلك فقط ارتبط هذا المقهى بعروضه الفنية ففى صالة مقهى ريش عرضت فرقة عزيز عيد فصولا من مسرحياتها فى عام ١٩١٨، وجاء صالح عبد الحى وزكى مراد ومنير مراد والشيخ محمد ابو العلا كما جاءت أم كلثوم بملابسها البدوية المتواضعة متنكرة فى صورة فتى للغناء.[٢]

وقد تردد على هذا المقهى من الفنانين اسماعيل يس ورشدى أباظة، وتوفيق الدقن، وفاطمة رشدى وصلاح منصور وأنور منسى "زوج المطربة صباح" التى تشاجرت معه على المقهى واستدعت له الشرطة.

وفى مقهى عبده الدمرداش بالدراسة كان يتم جذب الرواد واغرائهم بالجلوس الطويل عن طريق الغناء، فقد كان عبده الدمرداش – هو نفسه صاحب القهوة- من أشهر المغنيين الشعبين فى أواخر الاربعينات من القرن الماضى لدرجة أن مواويله كانت تنتشر فى جميع أنحاء مصر بسرعة البرق، وفيما كان يقوم صبيانه بخدمة رواد المقهى كان هو يصدح

---

(١) محمد عبد الواحد: مرجع سابق، ص ٦٣.
(٢) محمد عبد الواحد: مرجع سابق، ص ١٢٥- ١٢٨.

بمواويله التى تشنف الأذان والذى كان يقوم بتأليفها وتلحينها بجانب تأديتها، وكان يجلس على هذا المقهى العديد من الفنانين.[١]

وفى حى الحلمية كان هناك مقهى يرتاده الأدباء والمفكرون واختلط بين جدرانه الأدب بالسياسة، وكان من رواده حسين رشدى باشا، وأحمد شوقى، وحفنى ناصف، وحافظ ابراهيم، والمازنى.[٢]

وفى مقهى عبد الله التى توسطت ميدان الجيزة، وكانت تعد أقرب المقاهى إلى الجامعة، وارخصها سعرا، وأكثرها احتكاكا بالحياة اليومية للجماهير العديدة من أبناء الشعب خاصة وأنها قهوة شعبية تتميز برصيف متسع يطل على ميدان الجيزة وتقع على رأس الشارعين الرئيسيين الممتدين إلى داخل الجيزة تحيطها المحلات التجارية والمطاعم من الجانبين، وكانت لا تغلق أبوابها على مدار الليل والنهار وتظل مضاءة حتى الصباح، ويستطيع الجالس فيها أن يراقب الحركة الكاملة للميدان الواسع الذى تتقاطع عنده أربعة شوارع رئيسية، أحدهما إلى الاهرامات والآخر يؤدى إلى كوبرى عباس والثالث يمتد حتى أبواب الجامعة، والرابع يؤدى إلى القاهرة وقد اكتسب هذا المقهى شهرته من خلال حلقات الأدباء والمثقفين والمفكرين فى الخمسينات حيث اجتمع فيها هؤلاء يشربون الشاى والقهوة ويقرأون لبعضهم البعض آخر ما توصلت إليهم قرائحهم من انتاج، وتدور بينهم فى بعض الأحيان المعارك الفكرية التى شكلت ملامح هذا الوهج الذى يطلق عليه الثقافة المصرية الحديثة وقد ضمت هذه المجموعة الدكتور عبد الحميد يونس، وأنور العداوى، والدكتور كامل حسين، ورجاء النقاش، ولويس عوض، وصلاح عبد الصبور، ونعمان عاشور، ورشاد رشدى، وأحمد رشدى صالح، وأحمد عبد المعطى حجازى، وزكريا الحجاوى ومجموعته، والشاعر محمود حسن اسماعيل وتلاميذه من الشعراء الجدد كما وفد إلى هذا المقهى من الأساتذة العائدين من الخارج محمد القصاص، ومحمد مندور العائدان من باريس والدكتور عبد القادر القط العائد من انجلترا.[٣] والذين كانوا يسارعون إلى قهوة عبد الله لقضاء الليل فى حوارات متصلة ومناقشات حول حياتنا الأدبية والفكرية، وحول الفلسفة الوجودية التى كانت مسيطرة على الغرب وقتذاك والواقعية الاسلامية المستندة على التراث الشعبى.

---

(١) خيرى شلبى: صحبة العشاق رواد الكلمة والنغم، ص ص ٤٣- ٤٤.

(٢) الرسالة: العدد ٢٩٢ فى ٦ فبراير ١٩٣٩.

(٣) نعمان عاشور: مع الرواد، ص ص ١١-١٣.

وفى هذا المقهى أيضا كان يجتمع الشباب من النقاد والشعراء، فقد أتى إليه أمل دنقل على استحياء بصحبه عبد الرحمن الابنودى قادمين من الصعيد بحثا عن فرصة بين أوساط المثقفين بالقاهرة.(١)

وفى مقهى (سان سوسى) بلا هموم تركزت جلسات رواد الأدب الشعبى حيث ارتبط هذا المقهى برواد الفنون والآداب الشعبية، كما كان يتدفق عليه العديد من الصحفيين الكبار ومن المترددين عليه دواما رشدى صالح ونعمان عاشور وعلى الراعى، والثلاثة يمثلون روافد هامة فى دراسات الفولكلور، وفن المسرح وفى النقد الأدبى(٢). ونظرا لأن هذا المقهى كان قريبا من ستوديوهات شارع الهرم فقد كان يحفل غالبا بكبار الممثلين أمثال يوسف وهبى، وأنور وجدى، وليلى مراد، وزينب صدقى، ومحمد عبد القدوس وغيرهم.(٣) والذين كانت جلساتهم والصحبة معهم تمتد عند مشارف الفجر أحيانا. يضاف إلى ذلك أن بعض السياسيين والشعراء كانوا يفضلون الجلوس على هذا المقهى.

وعرفت الجيزة أيضا قهوة كتكوت التى لم يكن زبائنها من نوع واحد فقد تردد عليها نماذج عديدة فى أوقات مختلفة. ففى الصباح الباكر كان يتردد عليها بعض كتبه المحامين، ورواد المحكمة الذين كانوا ينتظرون النظر فى قضاياهم، وفى الظهيرة كان يجلس عليها بعض الطلاب المزوغين من مدارسهم، وبعض عمال استديو مزراحى السينمائى وفى المساء كان يقصدها بعض الموظفين، وفى الفترة الأخيرة من الليل كانت هذه القهوة تشهد مجموعة الأدباء والصحفيين الذين يظلون بها حتى قرب طلوع الفجر.

واستمرت قهوة كتكوت فى تأدية دورها حتى ماتت بعد موت صاحبها بأشهر قليلة، وتحولت بعد ذلك من منتدى لجلسات الفكر والثقافة إلى محل للأحذية من كل المقاسات.(٤)

وفى مقهى رابض تحت سفح الهرم الأكبر تعرف أمير الشعراء أحمد شوقى على الموسيقار محمد عبد الوهاب وأخذ فى الاهتمام به ورعايته، فعبد الوهاب لم يطرق سمع شوقى إلا فى هذا المقهى الذى كان يرتاده كل يوم جمعه فى فصل الشتاء. فبعد أن لفت الشيخ عبد العزيز البشرى نظر شوقى إلى فن عبد الوهاب بقوله "أما يا باشا فيه جدع اسمه عبد الوهاب صوته زى الخص أحب أنك تسمعه، طلبه شوقى وغنى عبد الوهاب أمامه "فتفنن به

---

(١)محمد عبد الواحد: مرجع سابق، ص ٢٢٤.
(٢)سمير سرحان: على مقهى الحياة، ص ١٣.
(٣)نعمان عاشور: مرجع سابق، ص ١٣.
(٤)محمد عبد الواحد: مرجع سبق ذكره، ص ٢٥٥- ٢٦١.

شوقى وحمله على ملازمته".[١] مما يوضح دور هذا المقهى فى لقاء شوقى بعبد الوهاب وفى مقهى "الاسبلندر بار" تلك المقهى الارستقراطية كان يحتكرها الأعيان وكبار الموظفين. وفى طابق علوى بهذه القهوة نظم خليل مطران شاعر الأقطار العربية كثيرا من شعره، وترجم فصولا من رواية عطيل[٢]، وفى هذا المقهى كان حافظ ابراهيم يجالس أبناء سوريا ويتندر معهم ويطرفهم بطرائفه أمثال طنوس والدكتور شلبى شميل وسليم سركيس.[٣]

وفى مقهى بار اللواء الذى كان يواجه المبنى القديم لجريدة الأهرام فى شارع مظلوم بوسط القاهرة كان يجلس محررو الكشكول ومحررو السياسة الاسبوعية ورئيس تحرير الأهرام الأستاذ داود بركات وزملاؤه، كما كان الشيخ عبد العزيز البشرى وحافظ ابراهيم ومحمد البابلى والعديد من رجالات الفكر والصحافة يترددون كذلك على هذا المقهى ومعهم جماعة من أهل الأدب يجتمعون للأسمار وتبادل ألوان المفاكهات[٤] والأحاديث الجديدة والساخرة وطرائف النوادر ويحظون بالطعام الدسم والشراب المعتق الذى يجود به عليهم الظريف محمد البابلى.[٥]

وإلى جانب ذلك فقد كان يجلس على هذا المقهى حمد الباسل عضو الوفد الشهير والذى كانت تطلق عليه بعض الصحف (أبوزر) حيث كان طربوشه طويل (الزر) لا يفارق رأسه.[٦]

وفى قهوات شارع خيرت كانت تعقد الندوات الأدبية بين الحين والآخر، وتناقش فيها المقالات الأدبية التى تنتشر فى الصحف، والمرايا الانتقادية التى كان الشيخ البشرى يكتبها فى أقطاب السياسة والأدب.

وفى هذه المقاهى جلس حافظ إبراهيم، وأمام العبد والمنفلوطى، وعبد الرحمن شكرى، وابراهيم عبد القادر المازنى كما شهدت اجتماعات الأدباء الذين كانوا يكتبون فى المجلة الأسبوعية مصباح الشرق التى كان ابراهيم المويلحى يغذيها باظرف المفاكهات.[٧]

وعن مقهى انديانا ذلك المقهى المشرفة على ميدان الدقى فقد كان روادها من المثقفين الذين خرجوا من بيئة شعبية وتمكنوا بعلمهم من احتلال مراكز اجتماعية مرموقة، وأصبحوا

---

(١) جمال الدين الرمادى: عبد العزيز البشرى، ص ٨٩.
(٢) الرمادى: مرجع سابق، ص ٩٣.
(٣) محمد كامل جمعه: مرجع سابق، ص ٥٤.
(٤) الرمادى: مرجع سابق، ص ٩٥.
(٥) محمد كامل جمعه: مرجع سابق، ص ٥٤.
(٦) محمد عبد الواحد: مرجع سابق، ص ١٤-١٥.
(٧) الرمادى: مرجع سابق، ص ص ٩٣- ٩٤.

نجوما للصحافة والأدب، ومن هنا فقد اهتموا بمشاكل الطبقة الوسطى بصراعاتها وبنزوعها نحو التسلق وبأزماتها الاجتماعية الخاصة.[١]

وبالنسبة لمقهى ركس[٢]، بشارع عماد الدين فكان عنوانا دائما لفنانى المسرح ومطربيه، وللفنانات الأجنبيات، كما حرص رواد مسارح عماد الدين على ارتياده فقد كان مكانا دائما لمقابلة نجيب الريحانى لأفراد فرقته الذين ادمنوا مساومته على أجورهم، كما كان مكانا مفضلا للفنان استيفان روستى يضاف إلى ذلك أنه كان يحلو لأبناء الطبقات الراقية من الأطباء والسياسيين الجلوس على هذا المقهى.

وإلى جانب ذلك فقد كانت مقاهى الأزهر والحسين تشهد المناقشات الحادة فى علوم الفقه والتفسير، كما تشهد الساعات الطويلة فى شرح الفية بن مالك، وحاشية الصبان، والأشمونى، وكتاب الجمهرة لابن دريد وغير ذلك من علوم الأزهر، كما كانت تشهد المساجلات الأدبية حول شعر الجارم وعلى محمود طه وايليا أبو ماضى وبشارة الخورى وغيرهم من أعمال الشعر.[٣]

يضاف إلى ذلك أن هذا المقهى كان قبله لطلاب الثقافة والعلم والوراقين والخطاطين والنساخين والباحثين عن كل طريف ومفيد من الكتب سواء بالاقتناء أو بالاستنساخ. هذا عن الدور الفكرى والاجتماعى للمقاهى والذى عبر عن وجدان الشعب المصرى، وغاص فى أعماقه، ومس قلبه مسا رقيقا دقيقا وعبر عما يجيش فى نفوس أبنائه من رغبات وأمنيات وكان بمثابة مراكز اشعاع مضيئة فى كافة أنحاء مصر بعد أن ضاقت البيوت عن استيعاب الأصحاب واستضافة الأصدقاء.[٤]

أما عن الدور السياسى للمقاهى فهذا ما سنتعرض له.

٢-الدور السياسى:

ومن المقاهى التى كان لها دور سياسى قهوة البوسطة التى كانت تقع فى ميدان العتبة الخضراء بالقرب من مصلحة البريد بالقاهرة، والذى تغير اسمها بعد ذلك وأصبحت تعرف بقهوة متاتيا[٥]، إذ كان يؤمها لفيف كبير من أقطاب الفكر والسياسة والأدب وإلى جانب ذلك فقد ارتبط هذا المقهى بنشاط جمال الدين الأفغانى فى مصر ذلك النشاط الذى يعد فصلا هاما

---

(١)سمير سرحان: على مقهى الحياة، ص ١٣ وما بعدها.
(٢)أنشئ فى عام ١٩٣١ وإدارة الخواجه اليونانى جناكليس بعد أن اشتراه من الخواجه داود عدس.
للتفاصيل أنظر: محمد عبد الواحد: مرجع سابق، ص ٩٧-٩٨.
(٣)الرمادى: عبد العزيز البشرى، ص ص ٩١-٩٢.
(٤)محمد عبد الواحد: مرجع سابق، ص ٥١.
(٥)كانت تحتل مكانا بارزا وسط القاهرة أسفل عمارة شاهقة بين ميدانى العتبة والموسكى.

من فصول الفكر السياسى فى تاريخ مصر الحديث. فكان الأفغانى الذى حمل بين جنباته أفكارا لتحريك الشعور الوطنى والنهوض بالاسلام والمسلمين والوقوف فى وجه الاستعمار والمستعمرين، يطيب له الجلوس فيها، عصر كل يوم إلى ما بعد المغرب حيث كان يلتف حوله طلابه ومريدوه على هيئة نصف دائرة يناقشونه فى أدق المسائل وأعقد الأمور(١)، ويتعلمون منه أهمية الإصلاح الاجتماعى وأهمية الخطابة والصحافة فى ترقية الأمم حتى أصبحوا فيما بعد من أعلام النهضة المصرية ومن هؤلاء: الصحفيين الشاميين، أديب اسحق، وسليم النقاش، والشاعر محمود سامى البارودى الذى لعب دورا رئيسيا فى الثورة العرابية بعد ذلك، والشيخ محمد عبده الأزهرى المستنير، الذى حاول التوفيق بين السلفية والتحديث، وعبد الله النديم خطيب الثورة العرابية والرجل الثانى بعد أحمد عرابى، وسعد زغلول، الذى قاد ثورة ١٩١٩، وأصبح أول رئيس وزارة ينتخبه الشعب، ويعقوب صنوع رائد المسرح العملاق والصحفى الذى أطلق قلمه دون تقيد بقانون أو رقيب.

وخلال الجلسات فى هذا المقهى لم ينقطع الأفغانى عن شرب الشيشة وتوزيع السعوط بيمناه والثورة بيسراه حيث سخر حديثه فى خدمة مطالب الشعب المصرى، والدفاع عن حقوقه وقضاياه فكانت كلماته تغلى لها الدماء "إنكم معاشر المصريين قد نشأتم على الاستعباد وتربيتم على الاستبداد.. هبوا من غفلتكم.. وأصحوا من سكرتكم.. عيشوا كباقى الأمم أحرارا أو موتوا مأجورين شهداء!" و .. "أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت ما يسد الرمق ويقوم بأود العيال.. لماذا لا تشق قلب ظالميك؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون أتعابك؟!".

ولم يتوقف نشاط الأفغانى فى هذا المقهى حتى قبض عليه فى جنح الظلام بعد خروجه منه واقتادته الشرطة تحت الحراسة إلى السويس حيث ركب سفينة خرجت به من مصر منفيا إلى الهند فى عهد الخديو توفيق ومع ذلك فقد استمر تلاميذه من جلساء هذا المقهى يشعلون الحماس فى النفوس حتى نجحوا فى الهاب شرارة الثورة العرابية.

وفى هذا المقهى تم الاتفاق بين عثمان جلال وابراهيم اللقانى على إصدار جريدتهما الأدبية الحرة "نزهة الأفكار" فى عام ١٨٦٩م والتى لم يظهر منها غير عددين ثم احتجبت(٢)،

---

(١) احمد امين: زعماء الاصلاح فى العصر الحديث، ص ٧٨.
(٢) انسطاكى الياس عطارة: تاريخ تكوين الصحف المصرية، ص ٢٥٧.

بعد أن خشى الخديوى إسماعيل من عواقب لهجتها المتشددة وتلميحاتها اللبقة وجرأتها فى سبيل الحق.[١]

يضاف إلى ذلك أن رياح ثورة ١٩١٩ هبت من هذا المقهى حيث جلس أبطالها على مقاعدها البالية ، ولم يتوقف النشاط السياسى فى تلك الفترة على مقهى "متاتيا" بل كان هناك مقهى "يلدز" القريب من حديقة الأزبكية والذى كان يتوافد عليه طلائع المفكرين الأحرار من مصر والعالم العربى ومنهم عبد الرحمن الكواكبى الذى فر من الاضطهاد العثمانى فى بلاد الشام إلى مصر، وعاش فى القاهرة معززا يكتب على صفحات جريدة المؤيد حلقات كتابة "طبائع الاستبداد" كما كان يتوافد على هذا المقهى محمد كرد على، ومحمد رشيد رضا، ومحمد عبده وسعد زغلول. وفى هذا المقهى التف حول الكواكبى مجموعة من رجالات حركة "تركيا الفتاة" الذين كانوا يتطلعون إلى اليوم الذى تتخلص فيه أوطانهم من ربقة الذل والهوان، وقد سرت أفكار الكواكبى فيهم وباتت كلماته عن الاستبداد بمثابة المشاعل التى تهديهم إلى طريق الخلاص، مما دفع السلطان عبد الحميد إلى التخلص منه.

ومما يروى حول مصرعه أنه فى مساء الخميس ١٤ يونيو ١٩٠٢ جلس الكواكبى فى مقهى يلدز إلى جانب أصحابه وأصدقائه وفيهم السيد رشيد رضا والأستاذ محمد كرد على، وإبراهيم سليم النجار وشرب قهوة مرة، وبعد نصف ساعة أحس بألم فى أمعائه وظل يقئ ثم أصيب بنوبة قلبية فارق على أثرها الحياة.[٢]

ويكاد أصحاب الروايات المختلفة يجمعون على أنه "ذهب ضحية الغدر والدسيسة بتدبير من أبى الهدى الصيادى أو من جواسيس السلطان عبد الحميد".

وبالنسبة لقهوة "بار اللواء"[٣] التى كانت تقع أمام بناية جريدة الأهرام القديمة بشارع مظلوم فى قلب القاهرة فقد كانت منتدى لأهل الفكر والأدب والصحافة.

وعلى الرغم من أن صورة الزعيم الوطنى مصطفى كامل صاحب اللواء كانت تتصدر هذه القهوة الكبيرة، وبالرغم من أن العديدين من رجالات الحزب الوطنى كانوا من روادها فقد ارتادها العديد من رجال السياسة والأحزاب الأخرى لاسيما حزب الأحرار الدستوريين، كما كان يجلس عليها محررو الكشكول والسياسة الاسبوعية يضاف إلى ذلك أن أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام كان يترك مكتبه فى الجريدة ليتخذ من إحدى مناضد

---

(١) الرمادى: مرجع سابق، ص ٩٢.
(٢) عباس العقاد: عبد الرحمن الكواكبى، الرحالة ك، ص ١١٣.
(٣) كان اسم جريدة اللواء التى أسسها مصطفى كامل فى عام ١٩٠٠ قد انتشر فى القاهرة وغيرها وأطلق على بعض المدارس والصيدليات والمحلات التجارية وغيرها.

هذه القهوة مكتبا له حتى يجمع من حوله الأدباء والشعراء[١] حيث كانت تكتب قصائد الشعر، وتسمع الأخبار وإلى جانب ذلك، فقد كان حافظ إبراهيم يلتقى فى هذا المقهى بالصحفيين، أمثال داود بركات، وتوفيق فرغلى حيث يتمتع بمجالسه الظريف محمد البابلى، ويحظى بطعامه الدسم، وشرابه المعتق الذى كان يأمر به فور حضوره، ثم تدور الأحاديث الجدية والساخرة وطرائف النوادر بينهم.[٢]

والجدير بالذكر أن العائلة الأباظية كان لها ركن ركين فى هذه القهوة وكان من أشهرهم فؤاد باشا أباظة الذى كان رئيسا للجمعية الزراعية، وفكرى أباظة المحامى والصحفى الشهير، والوزير إبراهيم الدسوقى أباظة باشا الذى كان يلتف حول مائدته أدباء البؤس من أمثال عبد الحميد الديب ومصطفى حمام وغيره[٣] ، وكان من رواد هذا المقهى أيضا الدكتور محمد حسين هيكل والشيخ عبد العزيز البشرى وابراهيم عبد القادر المازنى والدكتور محمود عزمى الصحفى الشهير الذى تولى منصب عمادة كلية الحقوق وأنشأ قسم الصحافة فى كلية الآداب وحمد الباسل عضو الوفد.

وبالنسبة لمقهى الفيشاوى فقد كان الثوار من الشباب خلال ثورة ١٩١٩ وما بعدها يتظاهرون بأنهم يرتادونه لتناول الشاى الأخضر بينما كانوا يجتمعون سرا لتدبير تحركاتهم الثورية ضد جيش الاحتلال.

وارتبط مقهى ريش بعشرات الأسماء الشهيرة على الصعيدين السياسى والثقافى فخلال ثورة ١٩١٩ كانت مكانا يجتمع فيه دعاة الثورة والمهتمين بشئونها، وفيها كانت تتخذ القرارات وترسم الأهداف فقد كان زعماء ثورة ١٩١٩ يلتقون على ريش كما وجدت فيها ماكينة لطبع المنشورات، وعلى ريش أيضا قرر الجهاز السرى لثورة ١٩١٩ أن يغتال يوسف وهبه باشا رئيس الوزراء ، ونتيجة لذلك أحاط الجنود البريطانيون بهذا المقهى أكثر من مرة وأجروا تفتيش الجالسين به بحجة ضبط المنشورات الثورية.[٤]

وفى نهاية العهد الملكى تجمع الضباط الأحرار، وكان إعداد منشورات الثورة وخطب رجالاتها وبعض تحركاتها السياسية تتردد بين ردهاتها.[٥]

---

(١) عبد المنعم شميس: مرجع سابق، ص ١٠٠.
(٢) محمد كامل جمعه: المرجع السابق، ص ٥٤.
(٣) محمد عبد الواحد: مرجع سابق، ص ٢٦٩.
(٤) عبد الرحمن الرافعى: ثورة ١٩١٩، ص ٢٠٩- ٢١١.
(٥) محمد عبد الواحد: مرجع سابق، ص ١٢٤- ١٢٨.

وإلى جانب ذلك فلا يمكن أن نغفل فى معرض الحديث عن ثورة ١٩١٩ دور مقهى جروبى القديم[١] الذى كان بمثابة نقطة التجمع لرجالات الثورة حيث كان يجتمع فيه بعض رجالات الحركة الوطنية، كما كانت تذاع منه أخبار الثورة، وتنظم المظاهرات وتوزع المنشورات، وتدبر الخطط[٢] مما ضايق الانجليز وأدى إلى قيام جنودهم باقتحامه فى العاشر من مايو ١٩١٩ والاعتداء على رواده، كما أخذوا يفتشون الجالسين جزافا بحجة العثور على أسلحة أو ضبط منشورات سرية وكرروا هذا الهجوم والتفتيش أكثر من مرة.[٣] ولما لم يوفقوا فى مبتغاهم أصدرت السلطة العسكرية البريطانية أوامرها بحظر الاجتماعات فى المقاهى، واعتبار أى شخص يشترك فى مثل هذه الاجتماعات مخلا بالنظام والقانون، كما اعتبر أى اجتماع يعقد فى مقهى، ويحضره أكثر من خمسة أشخاص وتلقى فيه خطب أو يحدث فيه ما يعكر صفو الأمن العام يؤدى إلى غلق هذا المقهى فى الساعة السادسة مساء فى المخالفة الأولى، وإلى الغلق النهائى فى المخالفة الثانية.[٤]

ومع كل ذلك فقد ظلت أنشطة هذا المقهى فى التزايد، كما تزايد عدد رواده لدرجة أن شاعر النيل حافظ إبراهيم قد طلب من هؤلاء الرواد أن يتخففوا عنه شيئا فشيئا وذلك فى قوله:

وما بال قومى لا ينزلون

بغير جروبى وبار اللواء[٥]

ولم يتوقف الأمر على هذا المقهى، بل كان لمقهى الحلمية دور مميز خلال الثورة، حيث أنطلقت منه خططها مما جعل الانجليز يضيقون به ذرعا، فاعتدوا على رواده أكثر من مرة، كما قاموا بتفتيشهم بحجة ضبط المنشورات الثورية.[٦]

يضاف إلى ذلك أن قهوة أحمد عبده التى ذكرها نجيب محفوظ فى روايته "بين القصرين" كانت تعج بالثوريين الذين امتلأت قلوبهم بالغضب من الانجليز وتصرفاتهم خاصة بعد نفيهم لسعد زغلول إلى مالطة فبعد أن ضاق فهمى بمجلسه "نازعته نفسه إلى الاجتماع بأخوانه فى قهوة أحمد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه إلى الاعراب عما

---

(١)مكان هذا المقهى حاليا شارع عبد الخالق ثروت.
(٢)الرمادى: مرجع سابق، ص ٩٤.
(٣)عبد الرحمن الرافعى: ثورة ١٩١٩، جـ١، ص ٢٠٩.
(٤)نفسه، ص ٢٧-٢٨.
(٥)ديوان حافظ ابراهيم، جـ١، ص ٢٢٤.
(٦)الرسالة: العدد ٢٩٢ فى ٦ فبراير ١٩٣٩.

يضطرم فى قراراتها من الاحساس والرأى. هناك يسمع إصداء الغضب المتقد فى قلبه، ويستأنس بايماءاته الجسورة الملتهبة فى جو باهر من التعطش إلى الحرية الكاملة، مال إلى اذن ياسين، وهمس: إلى قهوة أحمد عبده، فتنفس ياسين من الأعماق".[١]

أما بار الأنجلو بشارع شريف[٢] فقد ضم كبار الساسة والكتاب وأصحاب الأعمال على اختلاف انتماءاتهم الحزبية، ونزعاتهم السياسية، فكان يجلس فيه محمد حسين هيكل الدستورى، وحافظ عوض الوفدى، وفكرى أباظة نصير الحزب الوطنى وغيرهم من السياسيين الذين كانوا يلتقون فى هذا المقهى الفسيح تجمعهم فناجين القهوة فى الصباح والسهر والنميمة فى المساء، كما كان الدكتور على ابراهيم والشيخ عبد العزيز البشرى يقصدانه خلال بعض الامسيات حيث يمتد بهم السهر إلى ما بعد منتصف الليل. [٣]

ومن هذا المقهى كانت تخرج الأخبار السياسية، وعلى موائده كانت تحاك الخطط وتشكل الوزارات، وتحاك المؤامرات لاسقاطها، وبعد أن امتد النشاط الشيوعى فى مصر خلال الحرب العالمية الثانية كانت أغلب جلسات زعماء هذه الحركة المفضلة على رصيف قهوة "ايزافتيش" حيث كتبت قصائد وتوهجت قصص حب، ودارت معارك فكرية وسياسية وأدبية.

لقد كان هذا المقهى يحتل موقعا متفردا وسط ميدان التحرير ويملكه مهاجر يوغسلافى من البوسنة فر من بلاده بعد انفراد تيتو بالسلطة واستطاع أن يجعل من هذا المقهى أشهر مقهى فى مصر قبيل الخمسينات من هذا القرن.

ومن أبرز رواد هذا المقهى سيد خميس والأبنودى وإبراهيم فتحى وأمل دنقل وسيد حجاب وبهاء طاهر.

لقد ارتبطت ايزافيتش ببعض المواقف السياسية، فقد كانت شاهدا على مظاهرات الطلاب فى فبراير ١٩٤٦ رافعين لافتة "أين الغذاء والكساء يا ملك النساء" وحركة الطلبة عام ١٩٦٨ أثناء المطالبة بمحاكمة المسئولين عن النكسة ،وعلى اعتصام الطلبة عام ١٩٧١ للمطالبة بضرورة حسم المعركة مع اسرائيل[٤] هذه نماذج عن دور المقاهى الفكرى والسياسى فى المجتمع المصرى خلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

---

(١)بين القصرين: ص ٣٣٨.
(٢)فى مكانه حاليا البنك المركزى المصرى.
(٣)الرمادى: مرجع سابق، ص ٩٦.
(٤)محمد عبد الواحد: مرجع سابق، ص ٨١ وما بعدها.

ثانيا: الصالونات الأدبية:

أما عن المنتديات والصالونات الأدبية أو تلك الأندية الارستقراطية التى كانت تجذب إليها صفوة قادة الرأى وأقطاب الفكر والتى كان للفكر والأدب مجالس خاصة بها، فقد ظهرت فى أواخر القرن التاسع عشر وانتشرت فى مطلع القرن العشرين ومن أهمها: صالون نازلى فاضل وصالون مى زيادة وصالون هدى شعراوى وصالون العقاد وصالون طه حسين وغيره.

صالون نازلى فاضل:

أما صالون نازلى فاضل ابنه الأمير مصطفى فاضل شقيق الخديو اسماعيل فقد كان يعد من أبرز هذه الصالونات وأشدها تأثيرا فى الحركتين الأدبية والسياسية خلال الثلث الأخير من القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين حيث ضم بين جنباته صفوة القوم فى مصر أمثال شريف باشا، ورياض باشا، ولطيف باشا سليم، وعمر باشا لطفى، وشاهين باشا وغيرهم ممن تألفت منهم هذه الجماعة التى عرفت باسم جمعية حلوان السرية ثم الحزب الوطنى بعد ذلك.[١]

كما قام هذا الصالون بجهد كبير فى تغيير فكر واتجاهات جماعة الشيخ محمد عبده، تلك الجماعة التى بدأت جذورها منذ حضور الأفغانى إلى مصر، وازدهرت بفكر ونشاط الشيخ محمد عبده نفسه كما ضم هذا الصالون بين جنباته قاسم أمين وسعد زغلول، واللقانى وابراهيم الهلباوى، وأحمد فتحى زغلول، وابراهيم المويلحى، وأديب اسحق، والشيخ على يوسف، وحسين رشدى وغيرهم من قادة الفكر والرأى والسياسة الذين أدوا دورا متميزا فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر، هذا إلى جانب أنه كان يضم بين جنباته كبار رجال الاحتلال البريطانى فى مصر أمثال "اللورد كرومر" والمستشرق "رونالد ستورز".

وفى هذا الصالون كانت تناقش مسائل الإصلاح الاجتماعى ويتدارس خلاله الفكر الراقى، وفيه احتدم النقاش بين نازلى فاضل والشيخ محمد عبده بعد أن قام قاسم أمين بالرد على كتاب "الدوق داركور" الذى حمل فيه على نساء مصر بكتاب الفه بالفرنسية اسماه "المصريون"[٢] ونشره فى عام ١٨٩٤ ناقش فيه وضع المرأة فى المجتمع الاسلامى، ونفى مقوله أن الحجاب يمثل سجنا للمرأة ودافع عن موقف الإسلام من تعدد الزوجات، وهاجم

---

(١) للتفاصيل انظر: عبد المنعم الجميعى: عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية، ص ٣٠-٨١.
(٢) قام حفيد قاسم امين بترجمة هذا الكتاب بناء على توصية من احمد لطفى السيد، وقام الهلال بنشره فى سبتمبر ١٩٩٥.

السفور والمصريات اللاتى يقلدن الافرنجيات مما ضايق نازلى التى كانت تجالس الرجال فى صالونها، واتهمت الشيخ محمد عبده بالتفريط فى الدفاع عنها بوصفه أحد رواد هذا الصالون، مما دفع قاسم أمين إلى أن يوضح أفكاره حيال هذا الموضوع فكتب كتاب تحرير المرأة، ذلك الكتاب الذى تسبب فى هز المجتمع المصرى من الأعماق وأثار العديد من المعارك الفكرية والاجتماعية والدينية فى ذلك الوقت.

صالون مى زيادة:

وعن صالون "مى زيادة"[١] الأديبة الشاعرة القوية الحجة وصاحبة القلم[٢] التى اهتمت بتحرير المرأة واعطائها حقوقها السياسية والتى عاشت على ضفاف النيل وتالق نجمها، ونالت من الشهرة ما لم تنله أديبة مثلها فى عصرها خاصة وأنها اتقنت فن المقال والخطابة والنقد بالإضافة إلى تفتح مواهبها الشعرية لدرجة أن مجلسها كان متحفا لألوان مختلفة من الألحان والشعر والأحاديث الأدبية وقلما خلا من كبار الأدباء والمثقفين فقد تزاحم على الاقتراب منها أبناء جيلها من الأدباء والمثقفين، وكبار الشخصيات خاصة وأنهم من الجيل الذى لم يتعود على اختلاط امرأة تكشف عن وجهها وهى فى بهجة الصبا، وعذوبه الأنوثة تناقشهم وتبادلهم أطراف الحديث بأسلوب لبق، وجرأة مثيرة للدهشة تتحدث خلالها عن تحرير المرأة وأهمية افساح المجال أمامها فى العلم والعمل.[٣] وعن هذا الصالون نذكر أنه كان كعبة لرجال الفكر ومنارة للثقافة المعاصرة والفن والشعر والأدب قصده أناس عديدون منهم من يتحدث العربية بلهجة قاهرية، ومنهم من يتحدثها بلهجة حلبية، ومنهم من يتحدث الانجليزية، ومنهم من لا يحلو له الحديث إلا بالفرنسية فقد قصد هذا الصالون عدد غير قليل من الرجال وفيهم أكثر من أعزب عاش حياته بلا زوجة، وفيهم المتزوج ومنهم من هو من لبنان وسوريا كخليل مطران، وداود بركات وجرجى زيدان وانطون الجميل وشبلى شميل ويعقوب صروف ونجيب هواوينى، وبعضهم من مصر كلطفى السيد، وعباس العقاد، ومصطفى عبد الرازق ومصطفى

---

(١) اسمها الحقيقى مارى الياس زيادة، وقد ولدت بالناصرة فى عام ١٨٨٦ من أب لبنانى وأم فلسطينية، ورحل والدها إلى القاهرة فى عام ١٩٠٨ حيث أسس مجلة المحروسة.

(٢) كتب عباس العقاد عن صالون مى زيادة بقوله "جعلت مى" مباحثها كلها سمرا مؤنسا، وصيرت الدنيا كلها غرفة استقبال لا يصادف فيها الحسن ما يصدمه ويزعجه، أو هى صورتها متحفا جميلا منضودا لا تخلو زاوية من زواياه من لباقة الفن، وجودة الصنعة، فان كان للمنظر من مناظر الدنيا حسنة ورواؤه ففيهما الكفاية، وعليهما مزيد من مهارة التنسيق، وبراعة الترتيب تجود به الأنسة من عندها وان لم يكن له هذا النصيب من الحسن والرواء فلن يحرم فى المتحف المكان الممهلة، ولا الإطار المحلى، ولكنه ينالهما وعليهما مزيد من مهارة التنسيق، وبراعة الترتيب ايضا: غطاء موشى سمين وكن من شئت... ثم اقرأ كتابة الأنسة مى لا تجد فيها ما يغضبك أو تظن أنه مناقضة مصوبة اليك فى هوى نفسك ومنزع فكرك، وليكن لك رأيك فى أسلوب الكتابة أو نمط التفكير أو صيغة التعبير، فما من كاتب إلا وللناس فى أسلوبه وتفكيره وصيغ تعبيره أراء لا تتفق. أما الانسان فى "مى" ذلك الكائن الشاعر الكامن وراء الكاتب منها والمفكر والمعبر- فلا يسع الأراء المتفرقة إلا أن تتفق فيه وتصافحه مصافحة السلام والكرامة".

(٣) عباس العقاد: أنا، ص ١٦.

صادق الرافعى وأمين واصف، وأحمد شوقى، وحافظ إبراهيم، والشيخ عبد العزيز البشرى، ومصطفى صادق الرافعى، ومنصور فهمى، والدكتور على إبراهيم وطه حسين وغيرهم حيث كانوا يتبادلون كل عصر ثلاثاء اسبوعيا فى شقتها الملاصقة لجريدة الأهرام(١) بشارع أبو السباع(٢) والقريب من سينما مترو وسينما ميامى أشهى الأحاديث الأدبية والفكرية، والأبيات العذبة من الشعر الرصين، والنوادر الطريفة والدعابات الحلوة، والسمر المؤنس فى منازع الفكر والأدب والفن(٣)، وكان الجميع يحاولون كسب ودها والظفر بمرضاتها فى تحفظ واحتياط(٤) وهى تستثير عواطفهم إذ تتلطف معهم وتقترب وتبتعد من الواحد منهم بعد الآخر كما كانت تفتح من خلال صالونها أبواب التحاور فى موضوعات فكرية شتى، وكانت "مى" كثيرا ما توجه هذا الحوار.ومما يذكر أن طه حسين سمع فى هذا الصالون ولأول مرة نقد "مى" لرسالته فى الدكتوراه عن أبى العلاء.(٥)

ولم يسمع أن أحدا تخلف عن موعد الثلاثاء فى صالون "مى" بل كان الكل يحاول أن يسبق الآخر فى الوصول إلى الصالون حتى يحظى بدقائق متفردة مع "مى" خاصة وأنها كانت تستطيع أن تشعر كل رجل حولها على اختلاف العمر والثقافة أنه رجلها وأنه اسعد حالا، وأطيب نفسا، ولعل بعضهم كان يخرج من ندوة صالونها وهو يحسب أنه ظفر من ودها والتفاتها بأكثر مما ظفر سواه ثم لا يجد بعد ذلك مما ظن وتوهم شيئا.(٦)

لقد أحبها مصطفى صادق الرافعى وكتب من وحيها أوراق الورد وقال فيها أمير الشعراء أحمد شوقى شعرا(٧) ووصف ملامحها كامل الشناوى وإلى جانب ذلك فقد ألهمت جبران خليل جبران التى خفق قلبها له وأحبها العقاد واحبته ثم وقعت الفجوة بينهما، وتغنى بها الشاعر اسماعيل صبرى وبمجلسها فقال:

روحى على دور بعض الحى هائمة	كظامى الطير تواقـا إلى الماء
إن لم أمتع "بمى" نظرى غـــــدا	أنكرت صبحك يا يوم الثلاثـاء

وعلى الرغم من ذلك فإنه لشئ يثير الدهشة أن تكون "مى" قادرة على الزام محبيها حدودا لا يتجاوزونها وقيودا لا يكسرونها، فقد كانت تتلهى وتتسلى وتستعيض بالحب الصادق بهذه الباقة من العواطف التى كان يقدمها لها أكبر رجال الفكر الذين يحفون بها، ويسارعون

---

(١) محمد عبد الله عنان: ثلثا قرن من الزمان، ص ١١٨.
(٢) شارع عدلى حاليا.
(٣) شوقى ضيف: مع العقاد.
(٤) فتحى رضوان: عصر ورجال، جـ١، ص ٣٣٠.
(٥) مذكرات طه حسين ص ٤٦.
(٦) فتحى رضوان: مرجع سابق، ص ٣٣٠.
(٧) كامل زهيرى: مائة امرأة وامرأة، ص ٢١٠- ٢١٣.

إلى أهداء أرق العبارات إليها متنافسين على خطب ودها وكسب رضاها فى معركة صامته لا يشهر فيها أحد منهم سيفه إذ لا أمل فى الكسب.[١]

وظل هذا الجو الفكرى المرح فى صالون "مى" وتلك المناقشات والمساجلات على حالها حتى قامت ثورة ١٩١٩ وشملت كافة طبقات الأمة، فتغيرت مناقشات الصالون واختفى أغلب رواده حيث شغلهم العمل الثورى بعد أن نزلت الثورة إلى الشارع، واجتاحت أفكارها المقاهى والمنتديات، وبدأ الناس يلوكون سمعه ساسة عابدين والآستانة، وقصر الدوبارة.[٢]

وبعد انتهاء الثورة عادت أمور صالون "مى" إلى حالها وشاركت "مى" ضيوف صالونها فى كل حديث ومناقشة.

وقد ظل هذا الصالون قبلة للأدباء ومكانا محببا لدى العديد من المثقفين حتى تعرضت صاحبته لمرض وبيل ، اضطرها إلى أن تغلق على نفسها باب بيتها، ولم تعد ترى أحدا من رواده الذين لم يسمعوا عنها بعد ذلك إلا مايتعلق بمرضها ثم استفحاله والذى توفيت على أثره فى اكتوبر من عام ١٩٤١

وأصبح صالونها ذكرى بعد أن كان أثرا[٣] وبذلك انطوت صفحة كاتبه من ألمع كتاب العربية أمتازت عن غيرها فى كتاباتها بموسيقية وشاعرية. واستطاعت بأسلوبها الفريد أن تكون مصدر إلهام رجال كثيرين احبوها، وظنوا جميعا أنها احبتهم، فأسعدهم هذا، وحرك وجدانهم فأسدوا إلى الأدب العربى أيادى بيضاء.[٤]

وفى رثائه "لمى" أشار شاعر الأقطار العربية جبران خليل جبران إلى صالونها فقال:

قد تولى رفاقنا وبقينــــــــــــا	يعلم الله بعدهم ما لقينــــــا
أقفر البيت أين ناديك يا مى	إليه الوفود يختلفونـــــــــا
صفوة المشرقين نبلا وفضلا	فى ذراك الرحيب يعتمرونا
فتساق البحوث فيه ضروبـــا	ويدار الحديث فيه شجونـــا
وتصيب القلوب وهى غراث	من ثمار القلوب ما يشتهينا

(١) فتحى رضوان: مرجع سابق، ص ٣٣٤.
(٢) فتحى خليل: سلامة موسى، وعصر القلق، ص ٧٥.
(٣) الرمادى: مرجع سابق، ص ٨١.
(٤) فتحى رضوان: مرجع سابق ، ص ٣٣٨. ويذكر أنيس الخورى المقدسى انه لو جمعت الأحاديث التى دارت فى ندوة "مى" لتألفت منها مكتبة تقابل العقد الفريد ومكتبة الأغانى فى الثقافتين الاندلسية والعباسية.
أنظر: الفنون الأدبية وأعلامها، بيروت، ١٩٦٠، ص ٤٦٨.

صالون هدى شعراوى:

وعن صالون هدى شعراوى فقد أسست فى بيتها صالونا نسائيا بحتا لم يتردد عليه من الرجال غير القليل منهم إبراهيم الهلباوى وكانت هدى تدعو إلى هذا الصالون مى زيادة ولبيبه هاشم صاحبة مجلة فتاة الشرق، وملك حفنى ناصف باحثة البادية[١]. وكانت جلسات هذا الصالون تعقد فى الثلاثاء من كل أسبوع وقد نوقش فيه العديد من الأمور الأدبية والسياسية كما تبنى المواهب وهى لازالت فى براعمها.[٢]

صالون العقاد:

وعن صالون العقاد الذى كانت تعقد جلساته فى بيته يوم الجمعة اسبوعيا فى مصر الجديدة بشارع السلطان سليم رقم ١٣ فقد احتشدت فيه العديد من العقول التى حددت ملامح هذا الجيل وهيأت الجو الأدبى والفلسفى لقضايا كبرى ولم يكن لجلساته موضوع محدد بل دارت فيها موضوعات شتى من التاريخ والأدب والفلسفة والفن والسياسة والفكاهة والنوادر فى كل فروع المعرفة الإنسانية خاصة وأن العقاد لم يتخصص فى أى شئ بل كان عقله موسوعة.[٣]

وكان من رواد صالون العقاد زكى نجيب محمود وعبد الرحمن صدقى ونعمان عاشور وصلاح عبد الصبور وسنية قراعة وجاذبية صدقى وأنيس منصور والعديد من المفكرين العرب وغيرهم ومن مقعده استطاع العقاد أن يتوغل بأفكاره فى قلوب مريديه ويخاطبهم بلغة المنطق والواقع بجرأة وإصرار، يتكلم فى الأدب، ويناقش فى الفلسفة والسياسة، وينقد الكتب على أسس من دراساته العميقة والجميع يستمعون وكأنهم أدباء أثينا القديمة فى حضرة أفلاطون أو أرسطو.[٤]

صالون طه حسين:

أما صالون طه حسين فقد كان يعقد مساء كل أحد فى بيته بالزمالك حيث كان يستقبل هو وزوجته سوزان كبار رجالات وسيدات الثقافة والمجتمع، وضيوف مصر من المفكرين

---

(١) كامل زهيرى: مرجع سابق، ص ٢٠٨.
(٢) أنظر: مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة هدى شعراوى، ص ٧-٨.
(٣) أنيس منصور: فى صالون العقاد كانت لنا أيام.
(٤) محمد نصر. أدباء فى صور صحفية، ص ١٧٢

يتناقشون فيما يحلو لهم من حديث فكرى خاصة ما كان يدور فى كتبه، وفى القضايا التى كان يثيرها من أجل حرية الرأى، والجديد فى الفكر المعاصر.[1]

وكان من زوار هذا الصالون د. حسين فوزى صاحب السندباد المصرى، والدكتور أحمد ابراهيم رئيس ديوان المحاسبة والدكتورة سهير القلماوى، ويوسف السباعى وغيره وظلت ظاهرة الصالونات الأدبية مستمرة حتى وقتنا الحالى كما ظل الزخم الثقافى الذى تحمله مستمرا، حيث تبناها بعض الأدباء والمثقفين الجدد فأقيمت بشكل بدورى أما فى منازل بعضهم أو فى مؤسسات ثقافية ومهنية مثل صالون النديم الذى تتبناه نقابة الصحفيين بالقاهرة والصالونات الأدبية والعلمية التى تقام فى المدن الكبرى مثل المنصورة وغيرها والتى تتعرض لموضوعات رئيسية تتم مناقشتها.

ومما سبق يتضح أن المقاهى والصالونات الأدبية كانت حياة زاخرة بالأفكار، والأحداث، والشخصيات ممن صنعوا الحياة الفكرية والثقافية والسياسية فى مصر وكانوا بمثابة عقول الأمة وصناع وجدانها. وأن هذا الوهج قد إختفى بكل مباهجه فى هذه الأيام، ولم يعد فى القاهرة من مقاهى الأدب والفن سوى القليل، فقد تحولت المقاهى إلى أسواق مفتوحة للباعة المتجولين، كما امتلأت المقاهى بالعمال المتعطلين عن العمل والموظفين المحالين إلى المعاش، وإلى جانب ذلك فقد انتشرت ظاهرة مقاهى الانترنيت التى فى حاجة إلى اشراف الدولة نظرا لأنها يمكن تضر الشباب أكثر مما تفيدهم، كما ظهرت مقاهى الخمس نجوم فى الفنادق والمراكب السياحية والتى تلعلع فيها اصوات الديسكو والكاريوكى.

كما لم نعد نسمع عن معركة فكرية أو قضية سياسية داخل مقهى أو صالون يمكن أن تساعد على قلب رتابة حياتنا خاصة وأن عصر التلفزيون بصخبه وبرلمجه وثقافة الساندوتش السريعة قد أغلقت هذا الباب بالضبة والمفتاح إلى حد كبير. كما أن معظم المجلات الثقافية والأدبية والفنية قد خلت من المبارزات الفكرية بين التيارات الأدبية والاتجاهات الفنية والمدارس الفكرية المختلفة.

---

(1) كمال الملاخ: طه حسين قاهر الظلام، ص ١٧٨.

ثانى عشر: مجتمع القاهرة ١٩١٧- ١٩٤٤ كما صورته ثلاثية نجيب محفوظ

تعدد الجوانب فى كتابات نجيب محفوظ دفعت بالعديد من المتخصصين خصوصا الأدباء والفنانين والصحفيين إلى الانكباب على هذه الكتابات ودراستها، وإبداء الرأى ووجهات النظر حولها.

أما عن المؤرخين والدارسين للتاريخ فإنهم لم يطرقوا باب هذه الكتابات بالدراسة، وإن كان معظمهم قد قرأها، وربما كان ذلك لتشككهم فى أن المادة الروائية تصلح أساسا لكتابة التاريخ.

والهدف من هذه الدراسة هو تلمس الخيوط التى حاكها نجيب محفوظ فى وصفه لمجتمع القاهرة فى فترة ما بين الحربين، وتسجيله لواقع البيئة المصرية بشقيها الاجتماعى والسياسى، ثم محاولة الاجابة على التساؤلات الآتية:

هل يمكن أن يصلح الأدب الروائى مادة يعتمد عليها فى كتابة التاريخ؟ وما هى الخيوط التى يمكن أن يتلمسها المؤرخ من وصف أديب للمجتمع الذى يكتب عنه؟ وهل اعتمد نجيب محفوظ فى كتابة رواياته على الدراسات التاريخية الجادة؟ وهل كان نجيب محفوظ أديبا لطبقة بعينها؟ أم كان أديبا لكل طبقات المجتمع ، وهل قدم نجيب محفوظ فى ثلاثيته حلولا للمشكلات التى طرحها أم تعرض لها دون أن يقوم لها حلولا؟

وقبل أن نتعرض لإطار الثلاثية الاجتماعي والسياسى ينبغى لنا أن نتعرف على كاتبها.

ولد نجيب محفوظ فى حى الحسين أكثر أحياء القاهرة شعبية فى عام ١٩١٢، من أسرة متوسطة لا تتمتع بشئ من الثراء، ولم يكن لها سوى الدخل المحدود الذى يعود على ربها من عمله، وعايش هذه البيئة، وعاصر مشاكلها، واهتم بقراءة الروايات البوليسية فى مراحل حياته الأولى، ودرس الفلسفة فى المرحلة الجامعية بكلية الآداب حتى تخرج منها فى عام ١٩٣٤ ثم أخذ يحتطب بنفسه ثقافته الحرة، فأكثر من الاطلاع على انتاج رواد الأدب فى مصر، وتأثر بشكل خاص بكتابات سلامة موسى، ثم واصل قراءاته للآداب الأجنبية، واطلع من خلالها على مناهج كتابة الرواية المختلفة[١]، مما كان له أكبر الأثر فى ثقافته الفنية التى أعانته على كتابة الرواية بالمستوى الرفيع الذى بلغته، وشهد له به معظم نقاد الأدب العربى

([١]) محمد صالح الشنطى: الرواية العربية فى مصر عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٧٦، رسالة دكتوراه غير منشورة، ص ٢٣، والشعب فى ٥ مايو ١٩٥٩ مقال للأستاذ احمد عباس صالح، تحت عنوان "فى الرواية العربية".

الحديث وغيرهم. يضاف إلى ذلك أنه ظل مغرما بقراءة التاريخ المصرى، والاستعانة به فى كتابة رواياته، وقد يرجع ذلك إلى تأثره بالتيار القومى الذى اتجه المثقفون المصريون إلى أحيائه كرد فعل لتغلغل الثقافة الأوربية والاحتلال البريطانى، وربما يرجع أيضا إلى أنه عاصر فى فترة شبابه الإكتشافات الهامة للعديد من الآثار الفرعونية.

والثلاثية – بأجزائها الثلاثة – انتهى نجيب محفوظ من كتابتها قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو بثلاثة شهور، وكانت حين دفع بها إلى المطبعة فى المرة الأولى عبارة عن رواية واحدة فى مجلد واحد، غير أن اعتراض الناشر على ضخامتها واقتراحه بتقسيمها جعل نجيب محفوظ يقسمها إلى ثلاثة أجزاء.

وهكذا ظهرت الرواية ثلاثية مكونة من : بين القصرين، وقصر الشوق، والسكرية. (١)

وعن الفترة الزمنية التى شملتها أجزاء الثلاثية يتضح أنها شملت ثلاث فترات منفصلة فرواية بين القصرين جرت حوادثها من أكتوبر ١٩١٧ إلى ابريل ١٩١٩، ورواية قصر الشوق وقعت أحداثها من يوليو ١٩٢٤ إلى ٢٣ أغسطس ١٩٢٧، أما عن رواية السكرية فقد جرت أحداثها ما بين يناير ١٩٣٥ إلى صيف ١٩٤٤.

وقد اعتمد نجيب محفوظ فى كتابة ثلاثيته على ذاكرته التى اختزنت تلك الأحداث إبان طفولته، وعلى أقوال شهود عيان هذه الفترات، هذا بالإضافة إلى بعض الصحف. (٢)

والثلاثية فى مجموعها تنتمى إلى أدب القضايا الفكرية الذى يبلور قضية أو أزمة معينة، يقوم بتجسيدها أكثر مما يستهدف تحليلها(٣)، وتستند عبر السياق على أدلة اجتماعية وبراهين تاريخية تأتى فى ثنايا الرواية وتؤدى وظيفتها، وتقحم نفسها على اهتمام القارئ، دون أن تمنعه من مواصلة قراءته الأدبية.

ومحور الثلاثية يدور حول أسرة مصرية من طبقة محددة تتكون من ستة أفراد عاشت فى أحد أحياء القاهرة القديمة المتاخمة لمسجد سيدنا الحسين فى شارعى بين القصرين، وقصر الشوق، وحارة السكرية، عبر ثلاثة أجيال من الآباء والأبناء والأحفاد، لكل منهم فكره الخاص ورؤيته للمستقبل.

وللثلاثية وجهان: أحدهما يحمل طابعا اجتماعيا تمثل فى تصوير الواقع الاجتماعى للقاهرة فى فترة ما بين الحربين من خلال شريحة معينة من طبقات المجتمع المصرى ممثلة

---

(١) جهاد عبد الجبار: ثلاثية نجيب محفوظ، رسالة ماجستير غير منشورة، ص ٦.

(٢) نفسه.

(٣) غالى شكرى: المنتمى، دراسة فى أدب نجيب محفوظ، القاهرة، دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٦٩، ص ٦٤.

فى أسرة أحد التجار التى يتوزع صراعها فى الحياة بين التمسك بالتقاليد من ناحية التمرد الخفى عليها والتطلع إلى الحرية فى مختلف أشكالها من ناحية أخرى.

أما الوجه الآخر فيتمثل فى تصوير نجيب محفوظ للأحداث السياسية الكبرى فى مصر من جهة، ولمسار الحركة الوطنية المتمثلة فى ثورة ١٩١٩ وأهدافها من جهة أخرى.

وليس معنى ذلك أن وجهى الثلاثية الاجتماعى والسياسى منفصلان، بل كثيرا ما تكون المشكلة السياسية متفرعة من مشكلة اجتماعية وبالعكس.

وعن القضايا الاجتماعية التى صورها نجيب محفوظ فى ثلاثيته فقد هدف منها إلى رصد حركة المجتمع المصرى من خلال تتبعه لحياة أسرة التاجر احمد عبد الجواد اليومية، وتفاعلها مع مجتمعها الصغير من ناحية، ومع الأحداث السياسية التى مرت بها مصر بين الحربين من ناحية أخرى، كما صور القضايا التى كانت تشغل اهتمام الطبقة الوسطى، وتتبع تطور مفاهيمها وقيمها.

فقد تتبع نجيب محفوظ هذه الأسرة من خلال واقع المجتمع المصرى الملئ بالمتناقضات، ومن خلال التقاليد المتوارثة بمثالبها ومشاربها، ومحاولات الكبار والصغار التمرد عليها، ولكن بطريق خفى ، فقدم القاهرة المعزية، وكأنها عالم تراكمت فيه عادات وتقاليد تحاول فرض نفسها على ساكنيها، وتحدد سلوكهم، كما صور لنا نماذج من التفكير رسمت صورا للقديم والجديد، والتقليد والتجديد، والجمود والتحرر. والتخلف والتقدم، وكان الصراع بين هذه الأطراف هو أحد سمات الحياة والحركة فى الثلاثية.

وعن شخصيات الثلاثية فقد ربطها الكاتب بمحيطها الاجتماعى، وبمنظور صور فيه الانسان المصرى تصويرا بارعا حمل فى ثناياه ما يدور فى أعماق النفس البشرية من خير وشر، ومن أحاسيس ومشاعر متضاربة، كما صور ما يدور فى واقع مجتمع القاهرة فى النصف الأول من القرن العشرين من عادات وتقاليد تتجاذبها عوامل التجديد من جهة، وعوامل المحافظة على القديم من جهة أخرى، فرب الأسرة سى السيد، كان مثالا للرجل الشرقى الذى يدير بيته بطريقة استبدادية، بينما فى خارج منزله يحيا حياة مختلفة، سواء فى دكانه من خلال عالم التجارة، أو فى مجالس الأنس والسهر والخليلات والعوالم التى يحياها ليلا، ورغم ذلك فهو يحرص على أن يمسك بزمام أسرته يحركها كما يشاء، ويلقى الاحترام الكامل من زوجته وأولاده، ويحاول أن يظهر أمامهم بمظهر الجد والصرامة والاستقامة، بالرغم من أنه كان صورة للعبث والمجون خارج بيته، لدرجة أن أبناءه لم يتعرفوا على وجهه

الباسم إلا بعد أن دخل أحدهم عليه دكانه فجأة فرآه يمازح أحد أصدقائه، ويستمر الأمر على ذلك حتى يكشف أحد الأبناء النقاب عن الجانب الخفى من حياة أبيه حين رآه صدفه من ثقب الباب فى بيت زبيدة العالمة، وهو يهرج ويضرب بالدف بين الخليلات والأصدقاء، فتتغير نظرته إلى والده.

وأمينة الزوجة كانت مثالا للمرأة المحجبة المطيعة لزوجها، والتى تحبه، وتعتبر نفسها خادمة له، وتخشى غضبه، وتحاول تجنب أى مخالفة لرأيه، ومع ذلك يتغلب عليها الجانب الدينى، وتدفعها نوازع الايمان والشوق لرؤية مسجد الحسين إلى القيام بمغامرة خطيرة وخيمة العواقب بزيارتها الحذرة له، دون أوامر من زوجها مما كلفها الكثير[1]، حيث خرجت من بيت زوجها مطرودة وذهبت إلى بيت أمها بالخرنفش.

وهكذا صور نجيب محفوظ الصراع بين النوازع الدينية داخل نفس أمينة وبين تمسكها بالتقاليد التى تقضى باطاعة أوامر زوجها، وتغلب النزعة الدينية على التمسك بالتقاليد.

وعن بنات الأسرة فقد صورهن نجيب محفوظ بالمحجبات المحافظات على التقاليد المتوارثة التى تقضى بألا تخرج الأبنة من بيت أبيها إلا إلى بيت زوجها، ولا من بيت زوجها إلا إلى القبر، ومع ذلك كن يحاولن اختلاس النظر من حين إلى آخر من المشربية لمشاهدة ما يحدث فى الشارع ومن يمر به من الشباب.

كما تعرض نجيب محفوظ من خلال هذه الأسرة إلى أحد التقاليد المتوارثة فى الأسرة المصرية ، وهى زواج البنت الكبرى قبل الصغرى، فصور البنت الكبرى فى غير جمال أختها الصغرى الشقراء، وكانت النتيجة الطبيعية لذلك أن تقدم الخطاب لخطبة الصغرى، بينما لم يتقدم للكبرى أحد منهم، مما أدى إلى تعطيل أمر زواج الصغرى وخيبة أملها رغم حبها لضابط البوليس التى كانت تراه ويراها من المشربية، كما أدى أيضا إلى إصابة البنت الكبرى باضطراب فى سلوكها وفى تعاملها مع أفراد أسرتها، مما أثر فى مجرى حياتها لعدم تقدم أحد لخطبتها ولإحساسها بابتعاد راغبى الزواج عنها.

أما عن أبناء أسرة عبد الجواد فقد صورهم نجيب محفوظ شأنهم فى ذلك شأن أبناء معظم الأسر المصرية من حيث اختلاف التكوين والمشارب، رغم أن الأرضية الاجتماعية التى أنبتتهم واحدة، فكان منهم الكسول الخامل المحب للهو، الذى يقنع بعمل كتابى فى احدى المدارس الابتدائية يذهب إليه مكرها، وفى طريق عودته يعبث ويتفكه أثناء وقوفه عند بائع

---

(١) نجيب محفوظ: بين القصرين، القاهرة، مكتبة مصر ، د.ت، ص ١٢٨- ١٢٩

البسبوسة، ويشارك فى كل شئ مشاركة سلبية بالقلب واللسان دون العمل، ومنهم الجاد الـــذى درس الحقوق بشغف، وتمنى أن يبلغ من التعليم أحسنه، واتخذ من السياسة والوطنية قبلة لـــه تختفى أمامها كل مغريات الحياة، ومع ذلك تلتهب عاطفته فى حبه الشديد لمريم بنت الجيران، فيقابلها فوق السطوح، ويغازلها خلال اللقاء الليلى بينهما، ومنهم الصبى الصغير الذى يـذهب إلى المدرسة مكرها وتتناقض أفكاره بين الأحاديث التى يسمعها فى المدرسة وتلك التى تطرق أذنه من أمه فى المنزل، ومنهم اليمينى الذى يتمثل فيه فكر الأخوان المســلمين، ويجـد فيـه الطريق للإصلاح، ومنهم اليسارى الذى يرى فى الحل الماركسى السبيل إلى الحياة الأفضل.

ومن خلال ذلك يبرز نجيب محفوظ تأثير الوراثة على أبناء الأسرة، فيصور ياسـين وقد ورث عن أبيه ازدواجيته فى الحياة، وان كانت بصورة مختلفة، فازدواجية الأب كانـت مقسمة بين حياته الجادة فى البيت، وحياة اللهو خارجه، أما ازدواجية ياسـين فبـرزت فـى حرصه على مظهره وأناقته، رغم إهماله لثيابه الداخلية اهمالا ملحوظا.(1)

بمعنى أن كل منهما كان يختلف فى ظاهره عن باطنه كما صوره، وقد ورث عن أمه هنية تلك المرأة اللعوب حبها للملذات، وسرعة الملل من الزواج، فبعد أن زوجه والـده مـن زينب ابنة صديقه محمد رفعت، سئمها قبلما ينتهى شهر العسل، ويرجع إلى خليلاته مثل "نور الجارية" وغيرها، وكانت الفضيحة الكبرى حين ضبطته زوجته متلبسا، ورغم فداحـة هـذه الخيبة التى منى بها "ياسين" فى حياته الزوجية، ورغم نفوره من رتابة هذه الحياة، فقد وضعه نجيب محفوظ داخل غلاف الرجل الشرقى الذى يجد فى الزوجة المستقر والملاذ والرعايـة، ومن هنا فإنه لم يفكر لحظة فى قطع حياته بزوجته نهائيا.

ومن خلال هذه الأسرة أيضا يتطرق نجيب محفوظ إلى عادة الحسـد السـائدة بـين المصريين، وبخاصة إذا كان الحاسد ليس له ولد، والمحسود كثير الأولاد، فصور اصطحاب "أحمد عبد الجواد" لأبنائه إلى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة لالتماس البركة، وخشية الأم من أن تصيب عين الحسود أحدا من أبنائها عند زيارتهم لمسجد الحسين بصـحبة والـدهم، وحيرتها بين استحسان زيارة أبنائها للمسجد من ناحية، وخشيتها مـن أن يحسـدهم حاسـد، وتدعو الله أن يقيهم شر عين الحسود من ناحية أخرى.

وعن الحب بين الرجل والمرأة، وعدم تأثيره القوى فى هز الفوارق الطبقية بين أبناء المجتمع اشارت السكرية إلى وقوع أحد أفراد الأسرة سى السيد فى حب فتـاة ارسـتقراطية

(1) نجيب محفوظ: بين القصرين، ص ٤٠.

تفوقه مالا وجاها، ولكنها رفضت الزواج منه لأن مرتبه يقل عن خمسين جنيها، رغم علاقة الحب الملتهبة من جانبه تجاهها، وفضلت عليه أبن المستشار الذى يتفق وطبقتها مما جعله يعترف "بأن القلب فى أهوائه لا يعرف المبادئ، وهيهات أن تتعارض المبادئ الشعبية مع الحب الارستقراطى"، يضاف إلى ذلك أن هذا الفارق كان له أثره بصورة معاكسة فى علاقته بسوسن أبنة عامل المطبعة، فرغم حبه الشديد لها فإن اسرته لم توافق على زواجه منها بسهولة، كما أنها رفضت زواج أخيه من ابنة زنوبة العوادة لعدم أهلية هذا الزواج.

ورغم هذا التصوير فى تأثير الفوارق بين الطبقات بحيث يكون لكل طبقة مكانتها فى الزواج فإنه من غير المنطقى اطلاق هذا القول على علاته، ففوارق الطبقة وفوارق السن أيضا لم تكن وحدها هى التى تجعل من الزواج غاية مستحيلة خصوصا إذا تواجد حب متبادل بين رجل وامرأة، فقد كانت التجربة العاطفية بين كمال وعايدة قائمة على طرفين متناقضين تماما، فالجانب العاطفى عند "كمال" تمثل فى الوفاء والعطاء والعشق الروحى[١]، أما "عايدة" فقد كان المطلب الأول عندها هو شغفها بأن تكون فتاة أحلام كل ما يتصل بها من الشباب، وشتان ما بين فكر كل منهما.[٢]

بهذا التناقض بين ما ترغبه النفس البشرية وما ترهبه، صور نجيب محفوظ الانسان المصرى تصويرا قال الدكتور طه حسين عن صاحبه: "إن نجيب محفوظ أصبح فقيها بالنفس الانسانية بارعا فى تعمقها وتحليلها قادرا على أن يطلع قارئه على أسرارها ودقائقها".[٣]

وحين نرجع إلى ما كتبه نجيب محفوظ عن الأسرة المصرية من حيث سيطرة الأب على اسرته، وخضوع المرأة لزوجها خضوعا كاملا وخشيتها لمخالفة أمره، وارتدائها الحجاب، يتضح أنه بالرغم مما نادى به قاسم أمين فى كتابيه "تحرير المرأة" و "المرأة الجديدة" حول ضرورة تغيير وضع المرأة المصرية، ودعوته إلى السفور، وبالرغم من الأفكار التى وردت إلى مصر حول أن الحرية الشخصية أصبحت حقا لكل إنسان ذكرا كان أم أنثى فإن الطبقة المصرية الوسطى كانت بصفة خاصة هى المحافظة على التقاليد، وهى التى ظلت فى معظمها متمسكة بتلابيب الماضى، وتخشى الخروج عليه، ولكن ذلك لم يستمر طويلا، فمن خلال المعركة بين القديم والجديد، والصراع بين التراث والموروث، والنقلة الحضارية التى حدثت فى مصر، نجد أن أسرة أحمد عبد الجواد فى السكرية تختلف عنها فى بين القصرين،

---

(١) نجيب محفوظ: قصر الشوق، ص ٢٩٩.
(٢) نفسه، ص ٢٥٥.
(٣) الجمهورية: فى ٦ فبراير ١٩٥٧، تحت عنوان "بين القصرين" لطه حسين.

ففى بين القصرين كانت الشمس والأجرام السماوية، وليست الساعة هى التى تمثل المواقيت بالنسبة لهذه الأسرة، فالفجر يعنى استمرار دقات العجين المرتفعة معلنة يوما جديدا، كما يعنى استعداد الزوجة لاعداد فطور للأسرة، والصباح يعنى استعداد الأسرة لاستقبال يوم جديد، ومغيب الشمس يعنى الخلود إلى الراحة وجلوس الأسرة فى مجلس القهوة.[1]

أما فى السكرية فقد خطت الأسرة خطوات واسعة نحو المدنية الحديثة فدخلت الكهرباء منزلها، وسمع المذياع من داخل جدرانها[2]، وأنشئت الجامعة، والتحق بها أحفاد أسرة عبد الجواد، يضاف إلى ذلك أن السيد نفسه أفاد من أثر هذه المدنية أثناء مرضه رغم معارضته لها قبل ذلك.

هذا عن بعض ملامح الجانب الاجتماعى فى ثلاثية نجيب محفوظ التى رصدها بوعى وبنضج وحساسية شديدة عكست واقع مجتمعنا المتناقض، وكانت "إحياء لدنيا كاملة من الناس بأفكارها وآرائها واحساساتها، وتحيزاتها ومغامراتها"[3]، ظهر من ثنايا هذا كله مدى التغيير العميق الذى طرأ على حياة الأسرة المصرية منذ أن صورها نجيب محفوظ فى بين القصرين إلى أن انتهى بها فى السكرية، كما ظهر مدى الصراع بين الأجيال من ناحية الحفاظ على القيم والتقاليد الموروثة من جهة، وبين تيار التجديد وعدم الانغلاق من جهة أخرى، ولكن هل يعنى هذا أن أدب الثلاثية يمكن اعتباره صورة لتاريخ مصر الاجتماعى فى النصف الأول من القرن العشرين؟

الواقع أن الأديب أو الروائى ليس مطالبا بعمق الدرس، ولا بدقة التحليل العلمى، شأنه فى ذلك شأن المؤرخ الاجتماعى، بقدر ما هو مطالب بأن يكون أصيلا فى تعبيره عن العاطفة الاجتماعية، فنجيب محفوظ اتخذ من الأحداث الإجتماعية مادة وصل عن طريقها إلى عيوب ومشاكل المصريين الاجتماعية التى لم ترتهن بفترة روايته بل ما زلنا نعانى من بعضها حتى الآن، كما يلاحظ أن نجيب محفوظ فى ثلاثيته لم يقدم حلولا لعلاج ما يحيط بواقعنا الاجتماعى من مشاكل، ولم يرسم طريقا للخلاص منها، وإنما اشار باسلوبه الروائى إلى مواطن الضعف، ومكمن المفاسد وأبان العلة وشخص الداء دون أن يوضح ما هو الدواء، بل كان هدفه هو إيقاظ الرأى والتفكير والحفز على تحريك الدوافع الانسانية لدى الأفراد وإلهاب شعورهم وإذكاء حماسهم نحو إيجاد الطرق الموصلة للاصلاح، خصوصا وأن التنبيه إلى الأحوال

---

(1) سيزا أحمد قاسم: الواقعية الفرنسية والرواية العربية فى مصر ١٩٤٥- ١٩٦٠، دراسة مقارنة تطبيقا على ثلاثية نجيب محفوظ، رسالة دكتوراه غير منشورة، نوقشت بآداب القاهرة عام ١٩٧٨، ص ٧٢.

(2) نجيب محفوظ، السكرية، ص ٨٣.

(3) على الراعى: دراسات فى الرواية المصرية، القاهرة، المؤسسة المصرية العامة للتأليف، ص ٢٢.

الاجتماعية غير المتوازنة يهدف إلى وأد الشلل الفكرى فى الأمة، وقد يكون سببا لاستفزاز الشعور والعمل من أجل إعادة التوازن بعد فهم الناس لاخطائهم.

وعن الجانب السياسى فى الثلاثية فيتضح أنه سار جنبا إلى جنب مع الجانب الاجتماعى، وإن تعارض معه أحيانا وتشابك معه أحيانا أخرى، فمن خلال أسرة أحمد عبد الجواد يتتبع نجيب محفوظ الأحداث السياسية التى مرت بمصر ويربطها بحوادث تاريخية معروفة مثل أعلان الحماية، ووفاة السلطان حسين كامل، ونفى سعد زغلول، وقيام الثورة، ووفاة سعد، وعيد الدستور..إلخ، فعن الأغلال الثقيلة التى كبلت الشعب المصرى باعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤ وما آل إليه أمر الناس من ضيق ومعاناة خلال سنوات الحرب وما دار فى خلدهم، صور رب الأسرة المستاء من اختفاء السلع، وارتفاع أسعارها خلال سنوات الحرب، والذى يلعن جنود الاحتلال الذين يسلبون الأهالى موارد رزقهم، وفى نفس الوقت يذكرنا بما تردد من رغبة الأهالى على لسان أمينة فى دعوة الخديو عباس إلى عرش مصر مؤيدا بجيوش عثمانية بعد أن عزله الانجليز، حيث تقول "ربنا قادر على ان يعيد إلينا أفندينا عباس"، كما يذكرنا بعاطفة الولاء الدينى نحو الدولة العثمانية والتمسك بالخلافة على لسان الشيخ متولى عبد الصمد الذى يسأل الله أن يعيد إلى البلاد أفندينا عباس مؤيدا من جيوش الخليفة.

وعن رغبة بعض المصريين فى انتصار الألمان على الانجليز يصور نجيب محفوظ هذا الموقف فيما يسوقه على لسان ياسين من أن ينتصر الألمان وحلفاؤهم الأتراك حتى تسترد الخلافة ما سلبه الانجليز منها، ويعود الخديو عباس والزعيم محمد فريد إلى مصر.

وعن ثورة ١٩١٩ ونفى سعد زغلول وأصحابه إلى مالطة، واستياء طبقات الشعب المصرى لذلك النفى، ربط نجيب محفوظ بين هذا الحدث وبين نفى عرابى إلى سيلان فأوضح ما أصاب الناس من جزع وتساؤلهم "أيجرى نفس المصير على سعد وصحبه وينقطع ما بينهم وبين الوطن إلى الأبد، فتموت هذه الآمال الكبار، وهى لا تزال فى مهد الأزهار".

ونتيجة لهذا الاستياء تقوم الثورة ويشترك فيها فهمى، مما أثار ردود فعل متباينة فى محيط الأسرة، وتتطور المظاهرات إلى معارك بين الشعب والانجليز لتشترك فيها جميع طبقات وطوائف الأمة هاتفة، يحيا الاستقلال ونموت ويحيا الوطن، ويحيا سعد".

ونتيجة لذلك يتصدى الانجليز لهذه المظاهرات بعنف، ويسقط العديد من الشهداء، ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل يتعرض الانجليز للمصريين بالمضايقات فى شوارع القاهرة

وحاراتها. فيشير نجيب محفوظ إلى تعرض الانجليز لأحمد عبد الجواد بالقرب من بيتــه.[١] وإلى ما أصاب أبنه ياسين فى المسجد، ويفرج عن سعد ويتصافح الجميع، ويتبادلون التهانى، وتقوم المظاهرات التى عمت البلاد ابتهاجا بعودة سعد، ثم يموت فهمى خلال هذه المظاهرات برصاصة طائشة، بما يشير به الكاتب إلى تطور الأحداث والايحاء بانتكاسة الثورة والنهايــة المنتظرة لها.

والملاحظ على موقف الطبقة البرجوازية المصرية من هذه الثورة أنه بالرغم من أن هذه الطبقة قد باركت الثورة، فإنها فى نفس الوقت كانت تخشى أن يكون أفرادها وقودا لهــا، فالثورة عند أحمد عبد الجواد التاجر من الأشياء الجديرة بالاحترام ما دامت بعيدة عن أولاده وعن بيته، أما إذا اشترك فيها أبناؤه انقلبت فى نظره إلى هوس، وخروج على المألوف، مما نتج عنه انضمام ابنه فهمى طالب الحقوق إلى حركة الجهاد الوطنى دون علم أبيــه حتــى لا يتعرض لثورته وغضبه.

كما يلاحظ أنه فى وصف نجيب محفوظ لموقف الشعب المصرى من ثــورة ١٩١٩ نجده يلتقط الحدث من كل زواياه، فليس ابطاله كلهم متحمسين للقضية الوطنية، كما أنهم ليسوا بمنصرفين عنها، ففهمى ثائر على الانجليز، يشارك فى الثورة بفكره ودمــه، وزينــب فــى الجانب الآخر تظهر غضبتها على سعد زغلول، وبين الطرفين توجد درجات من الحماس.

وهكذا صور نجيب محفوظ البيئة المصرية خلال ثورة ١٩١٩ تصويرا قــال عنــه الدكتور طه حسين: "لست أعرف قاصا صور الثورة المصرية فى أعقاب الحرب الأولى كما صورها نجيب محفوظ، صورها حية كأقوى ما تكون الحياة، وصورها متغلغلة فــى أعمــاق الشعب على اختلاف طبقاته مؤثرة فى حياة العابثين والجادين معا، وفى حياة الشيوخ والشباب والصبية جميعا مغيرة وجه الحياة المصرية تغييرا تاما، وصورها بكل ما فيهــا مــن جــود الشباب بنفوسهم ودمائهم، وجود الشيوخ بأموالهم، وجود الأمهات والأخوات بأمانيهم ودعائهم، وصورها بما فيها من قسوة الانجليز وبطشهم، وغدرهم واستخفافهم بكل شئ، وبكل إنســان وبكل مكانة، وانتهاكهم للحرمات وخروجهم عن طور المتحضرين"[٢]، وتستكمل قصر الشوق ما توقفت عنده بين القصرين فتسرد تاريخ مصر منذ تولية سعد الوزارة حتى وفاته، فتظهــر خديجة معبرة عن رأى غالبية الشعب المصرى فى التمسك بزعامة سعد زغلول والكراهيــة

---

(١) نجيب محفوظ: بين القصرين، ص ٣٩٨- ٤٠٠.
(٢) الجمهورية، العدد ١١٤٣ فى ٦ فبراير ١٩٥٧، تحت عنوان "بين القصرين" لطه حسين.

لعدلى وثروت، فعندما ذكرها ياسين بعدلى وثروت استعاذت بالله ولقبتهما بالخونة الذين يهتف الناس بسقوطهم ليل نهار.

وبعد الضربة التى اصابت وزارة سعد زغلول بعد اغتيال السردار صور نجيب محفوظ خيبة الأمل التى أعقبت استقالة سعد، فرمز إلى أن هذه الاستقالة قد أدت إلى أزمة دستورية، وإلى ضياع السودان، كما اشار إلى أن قتل السردار كان ضربة موجهة إلى وزارة سعد بهدف التخلص منها.

وعن فجيعة الأمة المصرية فى موت سعد زغلول، عكس نجيب محفوظ صورة الشعب المصرى يوم الوفاة بتصوير كمال، وهو يهتف من الأعماق لرجل الثورة والنفى والحرية.

وعن الروح الرجعية التى تمثلت فى السلطة الحاكمة التى حاولت أن تعصف بمكاسب الشعب فى جهاده بالغاء دستور ١٩٢٣ واستبداله بدستور ١٩٣٠ فى عهد وزارة صدقى، وتصريح وزير خارجية بريطانيا "صمويل هور" بعدم رغبته فى عودة دستور ١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ لعدم صلاحية أولهما للعمل، ورفض الأمة للثانى عبر نجيب محفوظ فى السكرية عن أحاديث ومشاعر الناس حول هذا التصريح بقول أحدهم: "يجب أن يرد على "هور" وتصريحه المشئوم". وقول آخر: "ابن الكلب قال نصحت بأن لا يعاد دستور ١٩٢٣ ولا دستور ١٩٣٠ ما شأنه ودستورنا".

ويقف نجيب محفوظ إلى جانب حرية الشعب، وتطلعه إلى استكمال مقومات المجتمع الأمثل، وإحساسه بكيانه، ويشاركه فى قضاياه فينتقد الحكام الذين عبثوا بذلك الجيل الحائر المعذب فى صورة "كمال" الذى وعى حاجة الأمة إلى الثورة ضد طغيان هؤلاء الحكام واصفا "محمد محمود"، و"إسماعيل صدقى"، و"توفيق نسيم" بأنهم سلسلة مشئومة من الطغاة والخونة غرتهم قوتهم فزعموا أنهم أوصياء على شعب قاصر.[1]

وعن دور الأحزاب السياسية فى مصر يقيم نجيب محفوظ دورهم على لسان "عدلى كريم" رئيس تحرير مجلة الانسان الجديد فيقول: الوفد حزب الشعب، وهو خطوة تطورية خطيرة وطبيعية فى أن واحد. كان الحزب الوطنى حزبا تركيا دينيا رجعيا، أما الوفد فهو مبلور القومية المصرية، ومطهرها من الشوائب والخبائث كما أنه مدرسة الوطنية والديمقراطية، ولكن المسألة أن الوطن لا يقنع وما ينبغى له أن يقنع بهذه المدرسة إلا أننا نريد

---

(١) نجيب محفوظ: السكرية، ص ٧٨.

مرحلة جديدة من التطور، نريد مدرسة اجتماعية لأن الاستقلال ليس بالغاية الأخيرة، ولكنه وسيلة لنيل حقوق الشعب الدستورية والاقتصادية والانسانية. ولكن ينبغي أن يكون الوفد نقطة البدء، أما مصر الفتاة فهي حركة فاشستية رجعية مجرمة، ليست دون الرجعية الدينية خطرا، وهي ليست إلا صدى للعسكرية الألمانية والايطالية اللتين تعبدان القوة، وتقومان على الاستبداد، وتزريان بالقيم الانسانية والكرامة البشرية، إن الرجعية داء مستوطن في الشرق كالكوليرا والتيفويد فينبغي استئصاله".[١]

وفي تقديرنا أن نجيب محفوظ رمز باسم "عدلي كريم" إلى الكاتب التقدمي "سلامة موسى" خصوصا وأنه يمكننا أن نعثر على مثل هذه الآراء في كتابات سلامة موسى المتبعثرة، كما رمز بالانسان الجديد إلى المجلة التي أسسها سلامة موسى في منزله بالفجالة عام ١٩٢٩ والمعنونة "المجلة الجديدة".

أما عن تقييم الأحزاب الذي طرحه نجيب محفوظ فإننا نرى أنه كان لكل حزب دوره في الحياة السياسية المصرية، سواء أكان هذا الدور ايجابيا أم سلبيا، وأنه إذ كان قد انحاز إلى حزب الوفد فإنه انحاز إلى المبادئ التي نادى بها الوفد أثناء الثورة كالاستقلال والديمقراطية والقومية التي تجعل من مصر وطنا حرا للمصريين على اختلاف عناصرهم وأديانهم[٢]، وبالرغم من اتهاماته للحزب الوطني بأنه كان حزبا تركيا رجعيا، فمن الصعب أن ننكر إن هذا الحزب نجح في توجيه جماهير الشعب المصري فكريا ونفسيا في فترة من أحلك الفترات التي مرت بها مصر قبيل الحرب العالمية الأولى ، وأنه هو الذي أضاء الطريق لقيام ثورة ١٩١٩.

وعن تزوير الانتخابات في مصر وسقوط النحاس ومكرم، يعبر نجيب محفوظ عما يجيش في صدر الشعب في صورة "كمال" الذي يقف عند الديمقراطية والدستور فيقول: "انتخابات مزورة، وكل شخص في البلد يعلم أنها مزورة، ومع ذلك يعترف بها رسميا، وتحكم بها البلاد، ويعني هذا أن يستقر في ضمير الشعب أن نوابه لصوص سرقوا كراسيهم وأن اللصوص سرقوا بالتالي مناصبهم وأن سلطاته وحكومته مزيفة مزورة، وان السرقة والتزييف والتضليل مشروعة رسميا، أفلا يعذر الرجل العادي الذي كفر بالمبادئ والخلق، وأمن بالزيف والانتهازية.[٣]

---

(١) نجيب محفوظ، السكرية، ٨٧.
(٢) نفسه، ص ١٤١.
(٣) نفسه، ص ١٤٩.

وفى نهاية الثلاثية يبرز نجيب محفوظ دور اليساريين وأفكارهم حول الثورة الأبدية، ودخولهم السجن مما يعنى أن اليسار المصرى قد دخل مرحلة جديدة من مراحل أزمة الحرية.

وهكذا يتضح تطور المفهوم السياسى لدى شخصيات الثلاثية، فبين القصرين مثلت حركة الانتماء إلى الحزب الوطنى، وارهاصات تكوين الوفد، وموقف "فهمى" البطولى إبان ثورة ١٩١٩.

وقصر الشوق مثلت المرحلة بين الانتماء الوفدى والانتماء اليسارى، بينما السكرية مثلت الانتماء نحو اليسار بعد أن عجز حزب الوفد على أن يقدم حلولا للمشكلات الاجتماعية، والطبقات الشعبية التى آزرته فى كفاحه الوطنى.

وهكذا رصدت ثلاثية نجيب محفوظ تاريخ مصر فيما بين الحربين فى صورة روائية أقرب إلى الحقيقة منها إلى الخيال، ومما يلاحظ على هذه الكتابات أن الثوريين كانوا على هامش الحياة السياسية لا فى قلبها، وأنهم جميعا كانوا من صغار البرجوازيين الذين لم يتلقوا المبادئ الثورية عن طريق المعاناة الطبقية، ولكن عن طريق قراءاتهم وثقافتهم العقلية، كما يلاحظ أنه بالرغم من الأحداث التاريخية المعروفة التى زخرت بها الثلاثية فإنها أولا وقبل كل شئ كانت عملا روائيا لا تاريخيا، وإذا اعتمدنا عليها فى دراستنا للمجتمع القاهرى فى فترة ما بين الحربين فينبغى أن نتقبل ما بها بحرص وحذر شديدين خصوصا وأن العمل الروائى يعتمد على الخيال بجانب الواقع، وقد يستلزم ذلك كما يذكر نجيب محفوظ استخدام عمليات المكر والحيل[1]،ومن هنا فإن من المغامرة غير العملية الاعتماد عليها ، وإن كان يمكن الاستئناس بها فى التعبير عن الجو النفسى السائد خلال هذه الفترة، فنجيب محفوظ حين كتب الثلاثية لم يؤرخ لمصر، وإنما كان دافعه الرغبة الفنية الخالصة التى يظللها أحيانا الخيال الواسع ، يضاف إلى ذلك أن علاقته بالتاريخ كانت علاقة الفنان، وليست علاقة المفكر السياسى أو المؤرخ.

وبعد أن تعرضنا للثلاثية يطرح علينا سؤال نفسه وهو: ما هى الطبقة التى يمكن أن تنسب إليها كتابات نجيب محفوظ؟ الواقع أن الآراء اختلفت حول هذا الموضوع، وخرج النقاد بمقالات تحلل أدب نجيب محفوظ تحليلا طبقيا، وانتهى بعضهم إلى أنه أديب البرجوازية الصغيرة أو المتوسطة الصغيرة[2]، ومن أبرز هؤلاء النقاد كان الدكتور عبد العظيم انيس

---

(١) الآداب: يونيو ١٩٦٠، حديث لنجيب محفوظ مع فاروق شوشة.
(٢) الكاتب: العدد الثانى والعشرون، فى يناير ١٩٦٣، مقال للدكتور غايمى هلال تحت عنوان: "أزمة الوعى السياسى فى قصة السمان والخريف.

الذى رأى أن تعبير نجيب محفوظ عن البرجوازية الصغيرة كان صادقا ورائعا، ومن هنا لقبه بروائى البرجوازية الصغيرة المصرية والمعبر بصورة رائعة عن مشاكلها.[١]

وسماه البعض الآخر بأنه الكاتب التقدمى، وأديب الطبقة العاملة مشيرين فى ذلك إلى أن تصويره لواقع المجتمع المصرى من خلال الثلاثية كاد يقترب من الواقعية الاشتراكية، حيث أن واقعية الثلاثية قد حملت فى ثناياها بصيصا خافتا من الضوء لبشائر فجر جديد من التغيير الذى يتكفل بمعالجة الفساد القائم، وهذا من أسس الأيديولوجية الاشتراكية التى ترى ضرورة فهم المستقبل والإدراك الواعى بتطور المجتمع وبنائه، والإيمان بامكانيات الإنسان فى صنع مستقبله، والوصول بنفسه وبمجتمعه إلى واقع أفضل يكفل للانسان حريته وكرامته.[٢]

يضاف إلى ذلك أن رؤية نجيب محفوظ لمشكلات المجتمع المصرى كانت رؤية يسارية اتضحت من تفهمه للبناء التركيبى للأحداث، ودلل أصحاب هذا الرأى على صحة تسميتهم بما أدلى به نجيب محفوظ فى المحاكمة الأدبية التى أعدها له "ضياء الدين بيبرس" بأنه يؤمن بتحرير الانسان من الطبقية والاستغلال بكافة أنواعه، وأن يتمتع الفرد بحرية الفكر والعقيدة وبتحقيق الديمقراطية بأشمل معانيها[٣]، كما دللوا بما أشار إليه نجيب محفوظ من تعاطفه الشديد مع الماركسيين حيث قال: "لا أستطيع أن اعتبر نفسى ماركسيا رغم التعاطف الشديد".[٤]

يضاف إلى ذلك أنهم تمسكوا بما ذكرته إحدى شخصيات الثلاثية عن الثورة الأبدية والاضطهاد والالام والعذاب وما شابه ذلك.

والواقع أن نجيب محفوظ لم ينغلق ضمن دائرة فكرية معينة بل كان حياديا فى كتاباته، ورافضا لفكرة التقوقع داخل رؤية معينة، ودليلنا على ذلك أن فكره فى الثلاثية لم يصدر عن واقعية اشتراكية حين قدم الحل الدينى متمثلا فى الفكر اليمينى الذى يمثله الأخوان المسلمون، والمتجسد فى شخصية "عبد المنعم ابراهيم شوكت" كعلاج لتردى الأوضاع الاجتماعية والأخلاقية حيث يرفض لقاء الظلام على بسطة السلم أو فوق السطوح مع بنت

---

(١) الرسالة الجديدة: العدد التاسع والعشرون، فى اغسطس ١٩٥٦، ص ٤٤ تحت عنوان: "حول كتاب فى الثقافة المصرية للدكتور عبد العظيم انيس.

(٢) جهاد عبد الجبار: ثلاثية نجيب محفوظ، رسالة ماجستير غير منشورة، ص ١٩.

(٣) الهلال: محاكمة نجيب محفوظ، ص ٤١.

(٤) نفسه.

الجيران ويطلب ان يكون جزاء ذلك الرجم[١]، كما يعتبر الالحاد هروبا من واجبات الانسان حيال ربه ونفسه والناس.[٢]

وفى نفس الوقت يعطى للحل الماركسى متمثلا فى "أحمد ابراهيم" السبيل لحل مشكلات المجتمع عن طريق الايمان بالعلم وبالانسانية وبالغد "وبما التزمه من واجبات ترمى فى النهاية إلى تمهيد الأرض لبناء جديد". هذا بالاضافة إلى أن شخصياته من الاشتراكيين تكاد تكون باهتة وغير واضحة، وتبلغ هذه الحيادية روعتها حين يجعل المؤلف من ممثلى الفكرين الاسلامى والماركسى شقيقين مع اعطائهما خلافا فى العمر إشارة إلى التتابع المرحلى للفكر الانسانى، وهذا ما يرغب فيه نجيب محفوظ ، من أن يشير إلى أن لكل عصر فكره الخاص به، وإن لم يميز أحد هذين الفكرين على الآخر.[٣]

وإذا كان البعض قد سمى نجيب محفوظ بأنه أديب البرجوازية المتوسطة والصغيرة، وسماه البعض الآخر بأنه الكاتب التقدمى وأديب الطبقة العاملة، فلا ندرى هل الأديب لابد أن يكون كاتبا لطبقة معينة بذاتها، أم أن أدبه ينبثق من كافة الطبقات ويعود إليها، وهل من الضرورى وجود طبقة معينة يعبر فيها الكاتب أم أن الأفضل هو وجود طبقة يعبر الكاتب من خلالها.

لقد رفض نجيب محفوظ فكرة أنه يوجه انتاجه لطبقة معينة بالذات عند كتابته، وأوضح أنه يصور النماذج التى تعيش معه أكثر.[٤] وأنه إذ كانت له ايديولوجية فهى ليست فى عقله، ولكنها فى قلبه لا يكتب عنها وإنما تعمل فى داخله.[٥]

ومع كل ذلك فإننا نرى أن نجيب محفوظ بالرغم من حيادية كتاباته، فإنه كان أقرب إلى التعبير عن الطبقة الوسطى، وأقرب تفهما لقضايا هذه الطبقة من غيره من الكتاب لدرجة أنه استطاع أن يعبر بصورة واقعية صادقة عن أدق ما تعرضت له هذه الطبقة من مشاكل، وكأنه قد عايش هذا المشاكل وتعايش معها، ويؤكد ذلك نفيه للحيدة التامة فى تصويره للثلاثية حيث يقول: "وبالنسبة للثلاثية اعتقد أن فيها وجهة نظر مؤكدة".[٦]

(١) نجيب محفوظ، السكرية، ص ١٢٦.
(٢) نفسه، ص ١٢٩.
(٣) جهاد عبد الجبار: المرجع السابق، ص ٢٢.
(٤) روز اليوسف: العدد ١٥٢١، فى ١٤ اكتوبر ١٩٥٧، تحت عنوان: "الكاتب والطبقة التى يعبر عنها.
(٥) نجيب محفوظ: اتحدث إليكم، بيروت، د.ت، ص ٣٢.
(٦) الكاتب: فى يناير ١٩٦٣، ص ١٨، لقاء لنجيب محفوظ مع فؤاد دوارة تحت عنوان: "رحلة الخمسين مع نجيب محفوظ.

وهكذا ارتبطت الثلاثية بالانسان المصرى، وعبرت عما يعن له من مشاعر وأحاسيس، كما أنها سايرت تاريخ مصر وتطوره فى شكل يتناسب مع مستوى القارئ المصرى حتى أصبحنا نرى فيها حياتنا، وقصص كفاحنا وأزماتنا بطريقة شملت الحياة المصرية بمثالبها ومشاربها لدرجة أنه أدبه اصبح ظاهرة قومية نعتز بها كما أصبح ظاهرة عالمية تمثلت فى حصوله على جائزة نوبل فى الآداب.

ثالث عشر: اللغة العربية بين الأمس واليوم

مع بداية ظهور فجر النهضة فى مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر أحس رجال الفكر فى مصر أن اللغة العربية التى عايشت القرون الماضية أصبحت لا تفى بأغراض هذه النهضة خاصة بعد أن بدأ التغلغل الثقافى الأوربى يطفو على سطح الحياة المصرية، ولما عاد طلاب البعثات التى أرسلها محمد على إلى أوربا قاموا بنقل ما درسوه من علوم وفنون إلى اللغتين العربية والتركية ليسهل تدريسها فى المدارس الحديثة التى أسسها محمد على، وكان من هؤلاء "رفاعة الطهطاوى" الذى عمل على تعريب الأسماء الأجنبية مع الاحتفاظ بإسمها الأصلى ، وقام بوضع مصطلحات عربية تتقابل فى معناها مع المصطلحات الفرنسية، ووازن بين اللغتين، كما دعا إلى تبسيط علم النحو العربى وتيسيره على طلاب العلم، وجاء بعد رفاعة "الشيخ محمد عبده" فحاول الإسهام فى تطوير اللغة العربية فجدد فى أسلوب التأليف، وطالب بإنشاء "دار العلوم" لإعداد المعلم الصالح والمساهمة فى تطوير اللغة.

وإلى جانب ذلك فقد ندد "عبد الله النديم" بموجة الفرنجة الجارفة التى أصابت اللغة العربية موضحا الآثار الضارة التى ستترتب على مستقبل الوطن والدين ومبينا أن اللغة هى سر الحياة التى يترجم بها اللسان عن خواطر القلب، وناشد "النديم" أولى الأمر الحفاظ على اللغة العربية لأنها مرتبطة بالدين والقومية أشد الارتباط.[١]

ورغم كل ما بذل من جهود لتحديث العلوم والثقافة العربية فإن اللغة العربية لم تستطع مواكبة التقدم العلمى الهائل فى كافة مجالاته فاختلطت العامية بالكلمات المعربة، واستبدلت العامية بالفصحى. ونتيجة لذلك أحس بعض العلماء وكبار الأدباء فى مصر بالخطر الداهم على اللغة العربية، وخشوا أن يزعزع ما يحدث من أركانها، ويسلب بنيانها، وفكروا فى إنشاء هيئة تحفظ لهذه اللغة حياتها وسلامة النطق بها والتعبير عن معانيها وتجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون وقد تعددت المحاولات والجهود الأهلية والحكومية فى ذلك فأنشئت عدة نوادى وجمعيات من أجل هذا الغرض منها نادى السيد توفيق البكرى، ونادى احمد تيمور، ونادى لطفى السيد ونادى دار العلوم[٢]، واستمرت هذه المحاولات حتى صدر المرسوم الملكى بإنشاء "مجمع اللغة العربية الملكى" وتقرر أن يكون تابعا لوزارة المعارف وأن يكون مقره مدينة القاهرة وقد تغير اسمه فى عام ١٩٣٨ فاطلق عليه "مجمع فؤاد الأول للغة العربية" ثم أصبح

---

(١) التنكيت والتبكيت: العدد الثانى فى ١٩ يونيو ١٨٨١، ص ١٩.
(٢) د. عبد المنعم الجميعى: مجمع اللغة العربية، دراسة تاريخية، القاهرة، مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر ١٩٨٣، ص ص ٧-٨.

اسمه بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو "مجمع اللغة العربية" وذلك بقرار جمهوري صدر في ٢١ اغسطس ١٩٥٤.

لقد كان على هذا المجمع القيام بمهام متعددة جوهرها البحث والتمحيص بهدف رعاية اللغة العربية وأن يكون حارسا على فصاحتها، واستبدال المصطلحات الأجنبية بمثيلاتها العربية وتطويع هذه اللغة بحيث تصبح أداة سهلة للتعبير عما استحدث من علوم وفنون، هذا بالإضافة إلى تبنى الانتاج الأدبى والبحوث اللغوية المتميزة، وتشجيع الناشئين على المضى قدما فى البحث العلمى والانتاج الأدبى.

ومع الجهد الكبير الذى بذله المجمع فى سبيل تطويع اللغة لمسايرة التطور العلمى وملاحقة التطور الحضارى فما زال أمامه الكثير، وعليه أن يضاعف جهوده حتى تنتشر بين المشتغلين بالفكر والثقافة الاستعمالات الصحيحة والتعريفات الدقيقة للمصطلحات العلمية، كما أن عليه أن يطور اللغة طبقا واحتياجات كل عصر بحيث تحقق للناطقين بالضاد ما يحتاجون إليه من اليسر فى التعبير من غير مشقة فى الأداء وصعوبة فى التفكير.

ومع ذلك فإن لغتنا العربية إذا واجهت العصر الذى نعيشه الآن بمقولاتها، لم تجد نفسها معدة الإعداد الجيد لتلقى مادة العصر أو استخدامها فى حل المشكلات التى تواجهنا لذلك فان الأمر يتطلب النظر فى ثقافة عصرنا من جهة ثم النظر فى ثقافتنا الموروثة من جهة أخرى بحثا عن وسيلة تلتقى بها الثقافتان، وتجدد العلاقة بين حاضرنا وماضينا[١]، والفرق الجوهرى بين أنصار القديم وأنصار الجديد فى حياتنا الثقافية الحديثة هو طريقة استخدام اللغة بشكل يمزج إطارنا الثقافى الأصيل بما نستطيع به مواجهة العصر.

أن من يتأمل حال اللغة العربية حاليا يجده يختلف عما كان منذ نصف قرن، فكان الكاتب أو الصحفى أو المذيع أو السياسى أو غيره يكتب ويتحدث بلغة عربية صحيحة ونادرا ما يخطئ فى النحو أو الأعراب كتابة أو القاء، أما الآن فقد انقلب الأمر رأسا على عقب فأصبح الخطأ فى اللغة شيئا مستباحا، ولم تعد إجادة العربية شرطا لتعيين المذيع أو الصحفى، بل أصبحت المذيعة التلفزيونية مثلا تبدو وكأنها تفخر بأنها لا تستطيع أن تنطق الكلمات العربية بشكل صحيح بحجة دراستها فى مدارس لغات أو إنغماسها فى بيئة أجنبية تتشدق بمعرفتها[٢]، وإلى جانب ذلك فقد تفاخر بعض المثقفين باستخدام اللغات الأجنبية كلغة للتفاهم والتعاون وقللوا من شان اللغة العربية لدرجة أنها لم تعد أداة الدرس والعلم بشكله الصحيح ولا

---

(١) زكي نجيب محمود: ثقافتنا فى مواجهة العصر، ص ٩.
(٢) جلال امين: ماذا حدث للمصريين- تطور المجتمع المصرى فى نصف قرن ، ص ١٥٥- ١٥٨.

أداة للتفاهم اليومى بين الناس بل حل محلها اللهجة العامية الممزوجة فـــى بعـــض الأحيـــان بكلمات أجنبية يضاف إلى ذلك أن لغة الصحف والكتب والمراجع العربية شاب العديد منهـــا الأخطاء النحوية مما يعد جرس انذار يهدد مستقبل هذه اللغة بين أهلها خاصة وأننا نعيش فى عصر يعرف باسم عصر العولمة الذى يعمل على ذوبـــان الثقافـــات الأقليميـــة ومقومـــات الحضارات ومنها اللغة.(١)

ونتيجة لذلك فان اللغة العربية تمر حاليا بمفترق طرق إما أن تجدد نفسها فتبقى لغـــة العرب المشتركة أو تتقوقع على نفسها فتكون اللغة التى نزل بها إعجاز القرآن الكـــريم فـــى خطر يجب تداركه.

الحقيقة أن الأمر مدعاة للرثاء والحزن حقا فأين السبيل. قد يتبادر لذهن الـــبعض ان تدهور مستوى التعليم بما فى ذلك تعليم اللغة العربية بسبب ازدحـــام الفصـــول والانخفـــاض الواضح فى مستوى المعلمين بما فى ذلك معلمو اللغة العربية هو السبب وهذا صحيح إلى حد كبير يضاف إليه أن هناك أدوات أخرى تساعد بدرجات متزايدة على تدهور مســـتوى اللغـــة العربية منها الصحف والمجلات والإذاعة والتلفزيون ثم المحطات الفضائية التـــى يتســـاهل كتابها وغيرهم فى قواعد اللغة بحجة أن جمهورهم لا يستطيع أن يستوعب اكثر مـــن ذلـــك، وأنه لم يعد لديهم وقت كاف للاهتمام بقواعد اللغة، وربما ليس لديهم القـــدرة علـــى التعبيـــر السليم.

يذكر الدكتور جلال أمين أن تفسير ذلك يرجع إلى "الحراك الاجتماعى" الذى عاشته مصر فى الخمسين سنة الماضية والذى قلب التركيب الطبقى للمجتمع المصرى رأسا على عقب وأوجد أنماطا مختلفة من السلوك ومواقف نفسية نتجت عن عوامل اقتصادية واجتماعية لم تكن معروفة من قبل ومنها الموقف المؤسف من اللغة العربية.(٢)

---

(١) شريف الشوباشى: لتحيا اللغة العربية – يسقط سيبويه، ص ٨-١٠.
(٢) جلال أمين: مرجع سابق، ص ١٦١- ١٦٣.

رابع عشر: قاهرة المعز بين الماضى والحاضر [*]

حاول الخديو اسماعيل نقل العاصمة المصرية من قاهرة العصور الوسطى إلى قاهرة جديدة تساير الحديث وهى تتمسك بتلابيب الماضى وآثاره.

فعلى الرغم من محاولاته جعل مصر قطعة من أوربا وانفتاحه على الغرب، واستيراده للمدنية الأوربية باقتباس بعض الأنظمة والمنشآت الباريسية، فإن مصر بتراثها وتاريخها وقدرات أبنائها وقفت حائلا أمام اقتلاع جذور حضارتها الشرقية، وإن كانت لم ترفض اللحاق بالحضارة الأوربية واستيعاب أفضل ما فيها، فسايرت مصر الحضارة الأوربية، وإن ظل عبق الماضى يجرى فى عروقها، ويشع فى كل شبر من أركانها، وهو يحمل بصمات وعرق الإنسان المصرى ، وبين الحاضر والماضى تناقض واضح وفرق بين، وكان الفاصل بينهما هو الشارع الممتد من محطة مصر (ميدان رمسيس) إلى قصر عابدين.

لقد وصلت الأحوال فى قاهرة المعز ذات الموقع الفريد الذى يربط الدلتا بالصعيد، ويحمل كل شبر فيها بصمات الإنسان المصرى وعرق كفاحه، وصلت الأحوال فيها خلال تلك الفترة إلى درجة كبيرة من التدهور، وتراكم عليها غبار القرون، ففى النواحى العمرانية كانت القاهرة شرقية فى شكلها ومظهرها، فشوارعها كانت ضيقة، لا تكفى إلا لمرور جمل واحد أو حصان واحد، كما أنها كانت غير مضاءة، وكل إنسان كان يخرج إلى الشوارع ليلا يحمل مشعلة أو يتقدمه حامل مشعلة، ولم تكن المياه متوفرة إلا فيما عدا قناة تخترق المدينة، كانت تحمل منها المياه فى قرب[1]، يعتمد فى نقلها على السائقين، كما كانت القاهرة محرومة من الحدائق، وشوارعها لا تحف بها الأشجار، بل كانت تتكاثر فيها الأنقاض والخرائب والدور المتهدمة.

أما عن النواحى الصحية، فقد كان الكثيرون من الناس يدفنون موتاهم فى منازلهم، وفى المساجد، والمدارس، كما اتخذ بعضهم مقابر فى وسط المدينة. وإلى جانب ذلك فلم يكن أهل القاهرة يعتمدون على الأطباء فى مداواة مرضاهم، بل كانوا يعتمدون على أقوال الدجالين والمشعوذين والعجائز. [٢]

(*) يرجع تاريخ إنشاء مدينة القاهرة إلى عام ٩٦٩هـ، عندما فتح جوهر الصقلى مصر، وأسس القاهرة لتكون مقرا للخليفة المعز لدين الله الفاطمى.

(١) البرت فارمان: مصر وكيف غدر بها، ترجمة عبد الفتاح عنايت – القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للطباعة والنشر، ١٩٦٤، ص ٢٦٥- ٢٦٦.

(٢) على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، جـ١، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص ١٩٩.

ولم يكونوا على وعى كامل بأهمية النظافة، فتكاثرت تلال القمامة داخل المناطق السكنية وخارجها، مما أدى إلى كثرة الغبار وتلوث الهواء، ونقل الأمراض المعدية، كما انتشرت المستنقعات والبرك التى تبعث الروائح الكريهة، وتسبب انتشار الأوبئة والفتك بالأهالى، لدرجة أن وصف البعض القاهرة بأنها عاصمة البعوض، وبؤرة للأمراض المعدية، ومقر للمستنقعات والبرك الراكدة التى تصيب كل من يقترب منها بالحميات الفتاكة، وبأنها البلد الذى يقضى فيه الزائر طوال يومه تحت الناموسية، حتى يخفف من المتاعب الناتجة عن هجوم الحشرات عليه[١]، وأن القادم إليها كان يتأمل جسامة تلال القمامة التى تفصل بين الأزبكية وبولاق، وأنه من الخير أن يسمع الإنسان عن القاهرة بدلا من أن يراها. [٢]

وقد نجح اسماعيل فى تغيير هذه الصورة إلى حد كبير، وإزالة الغبار الذى لحق بالقاهرة قبل عهده، لدرجة قال عنها على مبارك: "فمن يدخل القاهرة الآن، وكان قد دخلها من قبل، أو قرأ وصفها فى كتب من وصفوها فى الأزمان السالفة، فلا يرى أثرا لما ثبت فى علمه، ويرى أن التغيير كما حصل فى الأوضاع والمبانى وهيئاتها حصل فى أصناف المتاجر، وفى المعاملات والعوائد وغيرها من أحوال الناس. [٣]

فبعد أن كانت القاهرة محصورة فى أحضان المقطم باحيائها القديمة، وأزقتها الضيقة، خرجت عن وصاية الجبل الأبوية. وبعد أن كانت محصورة بحدود سور المدينة بين بابى الفتوح والنصر شمالا، والخليج المصرى غربا، والجبل وقرافة المماليك وسلاطينهم شرقا، وخرائب الفسطاط جنوبا[٤]، أخذت رقعة العمران تنمو فى اتجاهين بدلا من اتجاه واحد، حيث شمل اتساع العمران فى القاهرة شمالا وغربا، وكان ذلك بمثابة المفتاح فى نمو القاهرة[٥]، فحول إسماعيل مجرى العمران فى القاهرة إلى الغرب، وأنشأ بينها وبين النيل حيا بأكمله، هو حى الإسماعيلية، كما تجاوزت حدودها ضفة النيل الشرقية إلى الجيزة والجزيرة. [٦]

([١]) تذكر صوفيا بول التى زارت القاهرة أثناء حكم محمد على أن استخدام الناموسية أثناء الليل كان يخفف المتاعب إلى حد ما، ولكنها لا تزيلها كلية، وأنها ضرورية جدا لمنع هجوم الزواحف الكبيرة، أما بالنسبة للبق والبراغيث فكان لا ينفع معها أى محاولات وقائية.
أنظر: حريم محمد على – ترجمة عزة كرارة – القاهرة، ١٩٩٩، ص ٥٧.

([٢]) سيد كريم: قاهرة إسماعيل فى ميزان التاريخ المعمارى، مقال منشور بمجلة العمارة عام ١٩٤٥، العددان الخامس والسادس، ص ١٦.

([٣]) الخطط التوفيقية، جـ١، ص ٢١٦.

([٤]) إلياس الأيوبى: تاريخ مصر فى عصر الخديو اسماعيل، جـ١، القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٣، ص ١٤١.

([٥]) فى أيام الحملة الفرنسية كان خط الحسينية، وباب الشعرية – بولاق يمثل أقصى امتداد القاهرة شمالا، ثم اخترق محمد على ذلك الحد، وتعداه شمالا نحو شبرا، كما أن عباسا الأول هو الذى بدأ العباسية عبر الحسينية، أما إسماعيل فقد شيد حى الاسماعيلية، كما كانت المعادى وحلوان تمثلان نموا حديثا على الضفة الشرقية فى عصره.
أنظر: جمال حمدان: القاهرة، دار الهلال، يونيو ١٩٩٣، ص ١٠-١٢.

([٦]) أحمد فكرى: القاهرة فى عصر إسماعيل، مقال منشور ضمن كتاب (اسماعيل، بمناسبة خمسين عاما على وفاته) القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٤٥، ص ٣٨١.

وبعد أن كانت القاهرة مكتظة بأكوام الزبالة والقاذورات، وتحيط بها البرك والمستنقعات من كل جانب، أمر إسماعيل بإزالة تلال القمامة، والخرائب، والعفونات التى كانت تنبعث منها الروائح الكريهة، وتنظيف ما بين بابى الفتوح والنصر، وقلعة الكبش، والسيدة زينب، من شوارع وأزقة، ودروب وأسواق، بتعميم الكنس والرش فيها، والعمل على منع تكاثر الغبار، وكل ما يخالف القواعد الصحية(١)، كما أمر بنقل المدافن التى تحيط بوسط العاصمة، وتحويلها إلى متنزهات وميادين وأحياء.

وبعد أن كانت القاهرة تمثل مظاهر العصور الوسطى بكل سماتها، فإنها تحولت إلى قاهرتين مختلفتين، تتمايز أحداهما عن الأخرى، ولو أنهما لا تختلفان كثيرا فى الموقع. أما الأولى فقد سايرت النمط الأوربى بكل المقاييس، فى حين ظلت الثانية مصرية إسلامية(٢)، لدرجة وصفها البعض بأنها أصبحت مثل الزهرية التى انقسمت إلى شطرين(٣)، وبأنها الثنائية الحضارية التى يتعايش فيها القديم والجديد، والأصيل والدخيل. (٤)

ومعنى ذلك أن إسماعيل قام بتحديث الجزء الغربى من القاهرة، أما القاهرة القديمة التى تضم الدرب الأحمر، ومصر القديمة، والسيدة زينب، والقلعة، والمقطم، وبولاق، فقد تركت على حالها بحضارتها الإسلامية وتقاليدها. (٥)

وقد عهد إسماعيل إلى المهندس الفرنسى "جورج هاوسمان George Haussman رئيس بلدية باريس، وصاحب مدرسة تنظيم المدن الحديثة التى اقتدت بها الكثير من المدن الأوربية فى تخطيط عواصمها فى القرن التاسع عشر، عهد إليه أن يخطط القاهرة كما سبق وخطط العاصمة الفرنسية. وبالفعل عكس ذلك المهندس القدير فى تخطيطه للقاهرة الصورة العصرية لها.

وإلى جانب ذلك فقد عهد الخديو إسماعيل إلى المهندس المصرى "على مبارك" بعمل الرسومات التى تتفق ورغبته فى تنفيذ المشروع(٦)، طبقا لطراز مدينة باريس، كما عهد إليه بمباشرة أعمال المقاولين، ومتابعة تنفيذ تعهداتهم مع الحكومة. وقد أوضح على مبارك ذلك بقوله: "كنت مشغولا بالمصالح الأميرية، وتنفيذ الأغراض الخديوية ليلا ونهارا، حتى لا أرى

---

(١) الياس الأيوبى: مرجع سابق، جـ١، ص ١٤٩.
(٢) ستانلى لين بول: سيرة القاهرة: ترجمة حسن ابراهيم حسن ولخرين – القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧، ص ٢.
(٣) اندريه ريمون: القاهرة – تاريخ حاضرة – ترجمة لطيف فرج- القاهرة: دار الفكر للدراسات، ١٩٩٤، ص ٢٧٧- ٢٧٨.
(٤) جمال حمدان: القاهرة، مرجع سابق.
(٥) دار المعارف العمومية: إسماعيل، بمناسبة مرور خمسين عاما على وفاته، ص ٣٨٣.
(٦) الحق الخديو اسماعيل "على مبارك" بحاشيته فى وظيفة مهندس بالمعية السنية، حتى يتسنى له إدارة المشروع، ثم كلفه بعد ذلك بإدارة ديوان الأشغال العمومية، مما زاد من مسئولياته تجاه هذا المشروع.
للتفاصيل انظر: محمد درى الحكيم: مصدر سابق، ص ٣١، ٣٢، ٤١.

وقتا التفت فيه لأحوالى الخاصة بى، ولا أدخل بيتى إلا ليلا، بل وكنت أفكر فى الليـــل فيمـــا يفعل بالنهار".[١]

وقد قام "على مبارك" بإعداد مشروع قانون يضـــع إطـــارا لمشـــروعات إســـماعيل العمرانية لإعادة تخطيط القاهرة، ساير فيه مخطط "هاوسمان" الذى يشتمل على شـــبكة مـــن الشوارع تربط بين أثنى عشر ميدانا، ويبدو أن ضخامة الإمكانيات المطلوبة لـــذلك جعلـــت الجهود تقتصر أساسا على منطقة تقع غرب القاهرة، على الضفة الشرقية للنيل، وتحتل مساحة ٢٥٠ هكتارا (٦١٧ فدانا)، وهو الجزء الذى تمثل فيه مشروع إســـماعيل الكبيـــر المســـمى بباريس الشرق، حيث لم يتم إحداث تغييرات كبيرة فى القاهرة القديمة.

وإلى جانب ذلك قام "على مبارك" بوضع تقسيم إدارى جديد للقـــاهرة فـــى ٨ يوليـــو ١٨٦٨م، فقسمها إلى أربعة أقسام بخلاف الضواحى[٢]، بحيث يضم كل قسم ثمنين من اثمـــان المدينة الثمانية التى أحدثها الفرنسيون، والتى كانت قائمة فى عصر محمد على.[٣]

كما استحدث إنشاء إدارة للمبانى فى كل قسم من هذه الأقسام، يرأسها مهندس تنظـــيم للإشراف على المنشآت، ومتابعة عمليات رسم الخرائط للشوارع والأزقة، ومتابعـــة اللـــوائح التنظيمية. وإلى جانب ذلك فقد تابع "على مبارك" إزالة الخرائب، وردم البرك والمســـتنقعات، ولم يكتف الخديو إسماعيل بذلك، بل طلب من "بيير جران بك Pierre Gran" مدير مصلحة الطرق والكبارى فى مصر متابعة هذا التخطيط، وتعديل ما يراه مناسبا لإقامة قاهرة جديـــدة تكون واجهة للقاهرة القديمة من الجهة الغربية، فقام "جران" بوضع تخطيط جديد للقاهرة فـــى عام ١٨٧٤ ، رأى فيه تعديل منطقة شمال شرقى المدينة عن طريق بـــولاق وبـــاب اللـــوق ومصر القديمة وضفة النيل، بحيث تكون هذه المنطقة واجهة حضارية للمدينة القديمة.

وفى هذه المنطقة تم تشييد حى الإسماعيلية الذى ذكره على مبارك وحدد موقعه بقوله: "هذه الخطة ظهرت فى زمن الخديو إسماعيل، ونسبت إليه، لأنه هو الآمر بإنشائها، وهى تمتد بين جسر السبتية، أعنى الطريق الموصل من مصر إلى بولاق، وهو حدها البحرى، وحـــدها الغربى ترعة الاسماعيلية، الأخذة من قصر النيل، وساحل النيل إلى القصر العينى، وحـــدها

---

(١) محمد درى الحكيم: مصدر سابق، ص ٤٢.
(٢) شمل القسم الأول مصر القديمة وما حولها إلى سور البلد وفم الخليج، وشمل القسم الثانى بولاق، وضم القسم الثالث المنطقة من خارج بولاق إلى شبرا، محدودا، بجسر شبرا وسور البلد إلى الخليج، أما القسم الرابع فقد ابتدأ من جسر شبرا إلى شبرا، وانتهى عند سور العباسية والوايلى.
انظر: نظارة الأشغال العمومية: لائحة التنظيم الادارى للقاهرة التى أعدها على باشا مبارك مدير الأشغال والمدارس.
(٣) ضمت باب الشعرية مع الأزبكية، والدرب الأحمر مع الجمالية، والخليفة مع قوصون، وعابدين مع درب الجماميز.
انظر: عرفة عبده: القاهرة فى عصر إسماعيل، القاهرة، الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٨، ص ٣٢.
والجدير بالذكر أن اثمان القاهرة كان قد أضيف إليها ثمن بولاق، وثمن مصر القديمة، وبذلك ضاع المعنى اللفظى لكلمة الثمن، ثم استخدم لفظ الثمن بعد ذلك للتعبير عن القسم ، انظر: على مبارك: الخطط، جـ١، ص ٢١٧.

القبلى شارع القصر العالى والخليج المصرى، وحدها الشرقى سور البلد القديم، وكان عبــارة عن خط منكسر، به بروز ودخول على غير انتظام".[١]

وكانت هذه المنطقة "عبارة عن كثبان أتربة، وبرك مياه، وأراض سباخ. ثم لما قيض الله للحكومة المصرية الخديو إسماعيل، أبدل وحشتها أنسا، ونظمهــا علــى هــذا الرونــق الجميل".[٢]

وقد تم تشييد هذا الحى مكان المنطقة التى كانت تسمى مــزارع إبــراهيم باشــا[٣]، ومساحته ثلاثمائة وتسعة وخمسون فدانا[٤]، وشيد فى زمن قياسى، فى الفترة ما بــين عــودة الخديو من المعرض الدولى بباريس عام ١٨٦٧ إلى بداية السبعينيات.

وترجع السرعة فى إنشائه إلى رغبة الخديو فى استقبال ضيوفه فى اثناء افتتاح قنــاة السويس فى هذه المنطقة التى كان يأمل ألا تقل فى تنظيمها وجمالها عــن أحيــاء العواصــم الأوربية، مما دفعه إلى أن يأمر بمنح كل من يتعهد ببناء بيت فيها قطعة الأرض التى ســيقام عليها البناء، بشرط ألا تقل تكلفة البناء عن ألف ومائتى جنيه، وألا تزيد مدة تشييده عن ثمانية عشر شهرا.

ويعد هذا الحى بمثابة المحور الرئيسى فى مشروع باريس الشرق، وقد أراد الخــديو تنظيم أحياء القاهرة الأخرى على منواله، فأصدر أوامره لديوان الأشغال بذلك، وتم تصــميم الرسومات الهندسية وفقا لرغبته، وكان من أهدافه جعل سراى (قصر) عابدين[٥] الذى نقل إليه مقر حكمه وزينه بأفخر الرياش، وأبدع النقوش[٦]- مركزا يتفرع منه عدة شوارع مســتقيمة، يتفرع منها شبكة من الشوارع المتقاطعة، [٧] امتدت إلى حى الاســماعيلية، وإلــى منطقــة الأزبكية. [٨]

وقد أشتهر هذا الحى بطابعه المعمارى الأوربى، وبفنادقه، وكنائسه، وبوجود قنصليات وسفارات الدول الأجنبية به، وبالقصور والمبانى الضخمة، والمتنزهات والحــدائق الواســعة الممهدة التى تحف بها الأشجار من كل جانب، والمزودة بالميــاه النقيــة، وبمصــابيح غــاز الاستصباح، مما جعل "على باشا مبارك" يصفه بأنه من أبهج أخطاط القاهرة وأعمرها، كــل

---

(١) على مبارك: الخطط، جـ٣، ص ٤٠٤
(٢) نفسه.
(٣) جان لوك أرنو: من الحدائق إلى المدينة، القاهرة فى القرن التاسع عشر، ترجمة هالة مراد- دراسة ضمن كتاب مصر والعالم العربى CEDEJ القاهرة، يونيو ١٩٩٣، ص ١٧٣.
(٤) على مبارك: الخطط التوفيقية، جـ١، ص ٢٠٧.
(٥) نسبة إلى عابدين بك، احد القادة العسكريين فى عصر محمد على، والذى كان يملك قصرا فى هذه المنطقة.
(٦) الياس الأيوبى: مرجع سابق، جـ١، ص ١٥٢- ١٥٣.
(٧) على مبارك: مصدر سابق، ص ٢١٠.
(٨) نفسه، ص ٢١٣.

ذلك جعل أثرياء القوم وكبارهم ينتقلون إلى السكنى فيه، وأدى إلى انتقال مركز القاهرة التجارى إلى هذا الحى، الذى أصبحت تتوفر فيه المميزات والتسهيلات التى لا تتوفر فى القاهرة القديمة. وسرعان ما تمكن التجار اليهود واليونانيون والأرمن من بسط سيطرتهم على مركز التجارة الأوربية فى هذه المنطقة[١]، كما استطاعوا السيطرة على أسواق المال والأراضى والمهن الفنية.

وإلى جانب ذلك، فقد أمر الخديو إسماعيل بتطوير منطقة الأزبكية وجعلها أحد المحاور الرئيسية فى مشروع باريس الشرق، فأمر بردم ما تبقى من بركتها[٢]، التى أساء بعض السكان استخدامها، وحولوا مجراها إلى إسطبلات لدوابهم، وزرائب لطيورهم، لدرجة أدت إلى انبعاث الروائح الكريهة منها، وباتت مكانا ترتبك فيه أعمال العربدة والسكر، وأعمال السرقة والتهتك تحت أشجارها[٣]، فكلف المهندس الفرنسى بارليه دى شامب De Schamps بإقامة حديقة عليها على نمط حدائق باريس، كما أقيمت عليها بحيرة وجبلاية صناعية، وممرات وجسور زودت بالمصابيح، وقد غرس بالحديقة مجموعات من الأشجار النادرة، وإلى جانب ذلك أقيمت العديد من المنشآت، كالبنوك، والمصالح الحكومية، والشركات، والفنادق، والحوانيت، كما تم إنشاء ميادين وشوارع هامة، فتم اتصال حى الأزبكية بالموسكى شرقا بعد توسيعه، وفى الجنوب الغربى اختطت أحياء التوفيقية وعابدين، والاسماعيلية، كما خططت منطقة الروضة لتكون حيا مسايرا للنمط الأوربى.

أما فى الجنوب الشرقى – وبالقرب من القلعة– فقد اختط شارع محمد على، الذى وصفه على مبارك بأنه "أعظم ما عمل بمدينة القاهرة"[٤]، وامتدادا لهذا الشارع افتتح الخديو شارع كلوت بك[٥]، الذى يبدأ من باب الحديد وينتهى عند ميدان الخازندار، كما افتتح شارع عبد العزيز، الممتد من العتبة الخضراء إلى ميدان عابدين، وسمى باسم السلطان عبد العزيز، تخليدا لزياراته لمصر.

---

(١) عرفة عبده: مرجع سابق، ص ٨٧.
(٢) كان محمد على قد أمر بردم جزء كبير من هذه البركة، بناء على مشورة الأطباء.
(٣) إلياس الايوبى: المصدر السابق، ص ١٤٥- ١٤٦.
(٤) تميز هذا الشارع باتساعه، ووجود الأرصفة التى تظللها الأشجار على جانبيه، كما تم إضاءته بمصابيح غاز الاستصباح، وتزويده بالمياه النقية، وبمواسير المياه للرش، وسقى البساتين.
(٥) الطبيب المشهور، مؤسس مدرسة الطب فى عهد محمد على.

وإلى جانب ذلك أقام الخديو فى طرف الأزبكية الجنوبى دار الأوبرا[١]، تلك الدار التى أقامها على عجل[٢]، رغبة منه فى إقامة حفل بحضره ملوك وملكات اوربا بمناسبة افتتاح قناة السويس، وفى ميدان الأوبرا أقام الخديو تمثالا لأبيه إبراهيم[٣]، وهو على صهوة جواده.

ونتيجة لذلك أصبحت الأزبكية فى عصر إسماعيل بمثابة قلب القاهرة، ومركز الحركة والتجارة فيها، وحلقة الاتصال بين المدينة القديمة والحديثة.

وبالنسبة لمنطقة الزمالك[٤]، فقد لاقت من الخديو إسماعيل اهتماما كبيرا حتى اصبحت من الأحياء المميزة فى مشروع باريس الشرق.

فبعد أن كانت منازلها من العشش المصنوعة من البوص أو القش، أقيم فيها العديد من القصور والفنادق الفخمة، مثل قصر الجزيرة (لطف الله) الذى شيده على منوال قصر الحمراء بالأندلس، حيث أنشأ بحديقته "سلاملك" وأوجد فيها العديد من الحيوانات الكاسرة وغيرها، أمثال السباع، والنمور، والفيلة، والقردة، والنسانيس، كما أوجد بها أنواع الطيور المجلوبة من بقاع الأرض. [٥]

ومثل فندق عمر الخيام (ماريوت حاليا) والذى أقيم ليكون مقرا لإقامة الإمبراطورة "أوجينى" فى أثناء حضورها حفل افتتاح قناة السويس، والذى أقيم حوله حدائق مساحتها ستون فدانا، كما شيد إسماعيل بالقرب من هذا المكان حديقة الأسماك، التى تطل واجهتها على نيل الزمالك بشارع الجبلاية. وبعد أن كانت شوارعها ضيقة ومتعرجة ومظلمة، أصبحت مستقيمة ومتقاطعة، ومخططة على النظام الحديث. وبعد أن كانت أكوام القمامة والأتربة ومشاهد البؤس والكآبة تغطى شوارعها، أقيم بها العديد من الحدائق والمتنزهات، هذا إلى جانب ربطها بمنطقة الجيزة عن طريق الكبارى، مثل كوبرى البحر الأعمى (الجلاء حاليا)، الذى أسس لهذا الغرض[٦]، وكوبرى إسماعيل (قصر النيل)، الذى أسس لربط القاهرة بجزيرة الزمالك. [٧]

---

(١) للتفاصيل حول هذه الدار انظر: دار الوثائق القومية: مجلس الوزراء، نظارة الأشغال، محفظة رقم ٢/١ تحت عنوان: مذكرة الأشغال بشأن تياترو الأوبرا.
(٢) بنيت هذه الدار فى مدة لا تزيد على خمسة أشهر، وتكلف بناؤها مائة وستين الفا من الجنيهات، وقد افتتحت فى ٢٩ نوفمبر ١٨٦٩.
(٣) شيد هذا التمثال بميدان العتبة الخضراء، وقد أنزله العرابيون فى اثناء ثورتهم من مكانه، وبعد انكسار ثورتهم أعيد نصب هذا التمثال فى ميدان الأوبرا حيث هو الآن.
إلياس الأيوبى: مرجع سابق، جـ١، ص ١٥.
(٤) الزمالك: كلمة البانية بمعنى الاخصاص أو العشش المصنوعة من البوص، انظر: شحاتة ابراهيم، القاهرة، دار الهلال، د.ت، ص ٢٤٤.
(٥) احمد شفيق: مذكراتى فى نصف قرن، جـ١، ص ٢١، وعلى مبارك: الخطط، جـ١، ص ٢١٢.
(٦) عرفة عبده: المرجع السابق، ص ٧٨، وانظر أيضا: الوقائع المصرية، فى ١٣ فبراير ١٨٧٢.
(٧) أقيم على مدخليه أربعة سباع من البرونز، وكان المرور عليه برسوم، ونظرا لحدوث خلل به أوقف المرور عليه وانشئ بدلا منه الكوبرى الحالى الذى افتتح فى عهد الملك فؤاد.
انظر: مصطفى ابازى: القاهرة: دراسة تخطيطية فى المرور والنقل والمواصلات - القاهرة، مكتبة الانجلو المصرية، د.ت، ص ١٩٠.

ونتيجة لذلك أصبحت هذه المنطقة مقرا للصفوة من المصريين والأجانب بعد أن كانت مرتعا للعامة، وأخذت شهرتها منذ ذلك الوقت فى الاتساع. وبالنسبة لشبرا – والتى كانت المنطقة المفضلة لدى محمد على – فقد شهدت نموا عمرانيا متزايدا فى عصر إسماعيل، خاصة بعد أن تم تنفيذ بعض الأعمال الهندسية لتحويل مجرى النيل من الغرب، فكان يمر تحت سكن ناحية الدقى إلى الشرق، حيث يوجد الآن شارع الجيزة وشارع النيل (فاروق الأول سابقا)، وما ترتب على هذا التحويل من ظهور أرض جديدة أطلق عليها "طرح النهر"، وهذا الطرح هو ما يعرف حاليا بروض الفروج والساحل. فقد شيد طوسون بن سعيد باشا قصره المعروف هناك، والذى كان يقطنه، وقد حل محله الآن مدرسة شبرا الثانوية، ثم تبعه بعض الأمراء والأميرات والأعيان، وكبار التجار، فشيدوا القصور ذات البساتين الزاهرة على جانبى شارع شبرا، حيث شجع الخديو إسماعيل على امتداد حركة العمران إلى هذه المنطقة، وإنشاء الحدائق بها، لدرجة أنها أصبحت إحدى الضواحى التى يفد إليها كبار الأمراء والأعيان للإقامة والنزهة[1]، كما أصبحت من الأماكن التى يقبل عليها الناس بشكل ملحوظ.

وفى إطار مشروعات إسماعيل لتطوير القاهرة حظيت منطقة حلوان باهتمامه، فأمر فى عام ١٨٦٨ بإيفاد بعثة من الأطباء والعلماء لتحليل المياة الكبريتية، ومعرفة حالة الجو بها، وبعد أن أثبتت البعثة أهمية عيون حلوان فى علاج الأمراض المحتاجة إلى العناصر الكبريتية– كالأمراض الجلدية، والزهرية – طالب نظارة الأشغال بتشييد مبنى بالقرب من الينبوع، ثم قام بزيارة لهذه المنطقة فى عام ١٨٧١، وفى أعقاب ذلك عزم على جعل حلوان منطقة سياحية، فأمر بوضع تخطيط شامل لهذه المنطقة.

ولتشجيع الأمراء وأصحاب الثراء على اتخاذ هذه المنطقة مقرا لهم، أمر ببناء قصر فخم قرب النيل فى الشمال الغربى من حلوان لتقيم فيه الأميرة الوالدة، عرف بقصر الوالدة باشا[2]، كما أمر بمنح كل راغب فى البناء بها أى مساحة من الأرض، بشرط أن يبنى خمسها فى مدة محددة، وجعل لكل خمسمائة متر مربع مبلغا رمزيا، قدره جنيه واحد. [3]

وإلى جانب ذلك، أمر الخديو بإنشاء حمامات بجوار العيون، ودار للإستشفاء، وفندق للمسافرين، وعدد من المتنزهات العامة[4]، كما أمر بمد خط حديدى لربط حلوان بالقاهرة وإنشاء طريق من حلوان إلى النيل طوله أربعة كيلو مترات.

---

(١) عرفة عبده: مرجع سابق، ص ٨٤- ٨٦.
(٢) فؤاد فرج: القاهرة، تاريخ المدن القديمة، ودليل المدن الحديثة – القاهرة ١٩٤٣، ص ١٢٣.
(٣) محمد رمزى: القاموس الجغرافى، جـ١، ص ٤.
(٤) الوقائع المصرية فى ١٣ يناير ١٨٧٤.

كما أمر الخديو بإنشاء منطقة جديدة تسمى حلوان الحمامات، تمييزا لها عن حلوان الأصلية، التى كانت تسمى حلوان البلد. (١)

كل ذلك ساعد على تطوير حلوان، وجعلها ضاحية سياحية، ومنتجعا صحيا هادئا لا يعرف التلوث، بل يرتحل إليه الأثرياء والسياح، لاسيما فى فصل الشتاء، بقصد الترويح والاستشفاء بالمياه الكبريتية الطبيعية الدافئة. (٢)

أما بالنسبة لمداخل القاهرة، من ناحية الأهرام والجيزة، فقد أمر الخديو بتعبيدها(٣)، وإعدادها لسير المركبات، حتى يتمكن ضيوف مصر من ملوك وأمراء أوربا من الذهاب إلى أهرامات الجيزة راكبين عرباتهم المذهبة دون عناء أو مشقة.

كما تم غرس أشجار الجميز والبرتقال والأكاسيا على جانبيه، وكانت شركة فرنسية قد قامت فيما بين عامى ١٨٦٣- ١٨٦٥ بردم الجزء المتخلف من تحويل مجرى النيل شرقا، وأنشأ إسماعيل فى هذا الجزء بساتين الأورمان التى بلغت مساحتها ٤٦٥ فدانا، ونسقت بها الأشجار النادرة.

كما أقام سراى الجيزة، التى كانت حدائقها ممتدة إلى موقع كوبرى عباس، وفوق مساحة امتدادها خمسون فدانا من بساتين السراى أقيمت حديقة الحيوان بعد ذلك. (٤) كل هذا أعطى العمران بهذه المناطق دفعة قوية.

ورغبة من الخديو إسماعيل فى إبراز صورة مصر الحضارية أمام ضيوفه من الأوربيين، أمر ببناء متحف للآثار المصرية فى ساحة الأزبكية، وبعد أن ورد عليه نبأ زيارة السلطان العثمانى "عبد العزيز بن محمود" لمصر، انشغل عن بناء المتحف بإعداد معدات الاستقبال، وأمر بأن توضع الآثار المصرية فى مكان ملائم ليتمكن السلطان من مشاهدتها ريثما يتم بناء المتحف، فوضعوها فى بناء واسع على ضفاف النيل ببولاق.

وقد افتتح اسماعيل هذا المكان فى حفل رسمى فى الثامن من أكتوبر ١٨٦٣(٥)، كما أمر فى عام ١٨٦٩ بإنشاء مدرسة بالقاهرة لدراسة الآثار المصرية، فأنشئت مدرسة اللسان المصرى القديم.

---

(١) القاموس الجغرافى، جـ ١ ص٤ ، جـ٣ ، ص ١٢، ١٤.
(٢) مع محاولات ثوار يوليو ١٩٥٢ تصنيع مصر، تحولت منطقة حلوان إلى مجمع للصناعات، فأنشئ بها مصنع للحديد والصلب فى منطقة التبين، وحوله مصانع للأسمنت، والطوب الحرارى، والمطروقات، وغيرها، مما جعل هذه المنطقة من مصادر التلوث البيئى للقاهرة بعد أن كانت من المراكز الصحية المشهورة.
(٣) اهتم الخديو اسماعيل بهذه المنطقة منذ عام ١٨٦٣، عندما زار السلطان عبد العزيز مصر، وأراد مشاهدة الأهرام، ثم قام بتطويرها مرة ثانية تمهيدا لزيارة الملكة أوجينى وبعض ضيوف مصر أثناء افتتاح قناة السويس.
(٤) عرفة عبده: القاهرة فى عصر اسماعيل، ص ٥٢- ٥٣
(٥) الرافعى: عصر إسماعيل، جـ ٢ ، ص ٢٠.

ولم تقتصر جهود الخديو إسماعيل على الاهتمام بأثار مصر الفرعونية، بل وجه اهتمامه إلى الآثار العربية والاسلامية أيضا، خاصة وأن القاهرة فى معظمها تعد متحفا لهذه الآثار.

وإلى جانب ذلك ، فقد قام الخديو بإحاطة القاهرة بالعديد من المؤسسات الحضارية والثقافية، كدار الكتب، والمتاحف، ودار الأوبرا، والمسارح، والجمعيات العلمية، ودار الآثار العربية، هذا بالإضافة إلى تشجيعه للنهضة العلمية والفنية والتعليمية، التى تمثلت فى العناية بالتعليم فى جميع درجاته، والاهتمام بتعليم البنات، وتشجيع انتشار الصحف، وإنشاء المدارس العالية، مثل مدرسة الإدارة والألسن، ودار العلوم.

وهكذا كان المحور الرئيسى الذى برز فيه التطور العمرانى الحديث فى عصر إسماعيل هو المحور الغربى الذى شهد مولد القاهرة الحديثة، والذى يمتد على طول الشاطئ الشرقى للنيل، ويشمل مناطق الإسماعيلية، وجاردن سيتى، أى أن طولها كان من القصر العينى جنوبا إلى فم الإسماعيلية شمالا، ومن شاطئ النيل إلى الأزبكية شرقا.

ولم يتوقف ذلك عند حد النيل، بل تعداه بإضافة مساحات أخرى إلى العاصمة من الجهة الأخرى المقابلة، وذلك بعد مشروع تحويل مجرى النيل، وبناء الكبارى، مما ساعد الأهالى على سهولة الوصول إلى الجهة الأخرى.

واستمرت عملية النمو على هذا المحور حتى اكتمل ازدهار وعمران الضفة الغربية من النيل.[1] والسؤال هو: هل كانت إمكانيات مصر الاقتصادية تسمح بالشروع فى هذا العمل الضخم؟

الواقع أن ظروف مصر الاقتصادية فى بداية الأمر كانت مهيئة لهذا الإنجاز الضخم، نتيجة للرواج الاقتصادى الناتج عن الارتفاع المفاجئ لأسعار القطن، بسبب الحرب الأهلية الأمريكية (١٨٦١- ١٨٦٥) وتوقف عملية تصدير القطن الأمريكى، ولكن ذلك لم يستمر طويلا، فسرعان ما توقفت هذه الحرب وعادت الأمور إلى حالها، مما اضطر إسماعيل إلى محاولة جذب رؤوس الأموال الأجنبية إلى مصر لاستكمال مشروعاته، مما أغرقه فى الاستدانة.

وقد انتهت رؤية إسماعيل لتحديث القاهرة، ومحاولته تحويلها إلى قطعة من أوربا بكارثة لمصر، إذ أدى تبذيره إلى إرهاق مصر بالديون الثقيلة ذات الفوائد الباهظة، التى لم

---

(١) أحمد سعيد: مرجع سابق، ص ٩٧.

تكن تتحملها ميزانية البلاد، فبلغت الديون فى أواخر عهده إلى ٩١،٠٠٠،٠٠٠ جنيه تقريبا[١]، الأمر الذى اضطره إلى التفنن فى فرض الضرائب حتى يستطيع دفع فوائد هذه الديون، وإلى عدم الاهتمام بأحوال الناس، هذا إلى جانب التدخل الأجنبى فى شئون البلاد حفاظا على مصالح الدائنين، وانتهى الأمر بعزل إسماعيل، ثم رهن استقلال الوطن وسيادته، والاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢. [٢]

وفى النهاية لنا أن نتساءل: أين قاهرة اليوم من قاهرة إسماعيل ذات الوجه المتألق، والمبانى المتناسقة فى الطراز والألوان، والتى كانت تظللها الصفوف المنتظمة من الأشجار والأزهار، وتزينها الميادين الجميلة ذات التناسق والاتساع، والتى كانت تتوسطها النافورات والتماثيل، والحدائق التى بدت القاهرة من خلالها وكأنها حديقة مفتوحة تتحلى بأبهى مظاهر النهضة الحديثة، لدرجة غدت معها وكأنها باريس الشرق؟

إن منظر قاهرة اليوم متعب للنفس، ومؤذ للعين، فلا تناسق، ولا انسجام، فالمبانى متنافرة، والطرق كالحة، تلهب أشعة الشمس من يسير فيها، والميادين مضطربة، تزدحم بها السيارات، وتكتظ بها الكتل البشرية المتحركة ذهابا وإيابا، والشوارع يملؤها الغبار ودخان المركبات التى تلوث الجو، وتقتل الحياة النظيفة.

وإلى جانب ذلك، فإن التضخم الرهيب فى عدد السكان ، مع قصور الخدمات أصبح يمثل عبئا كبيرا على المدينة.

إن ما يحدث فى القاهرة حاليا لا يعد جناية على الذوق والفن والإحساس فحسب، بل على الإنسان المصرى وصحته وحياته، فإلى متى ستظل القاهرة كذلك؟ ومتى يعود إليها الزمن الجميل؟

إن الزمن الجميل لا يعود إلى القاهرة بصرف المليارات لتحسين أحوالها ومنع تصلب شرايينها فحسب، بل بتحديد الهجرة إليها لوقف الزيادة المضطردة فى عدد سكانها، وعدم تركيز المصالح الحكومية فيها، ووقف العشوائيات، وسوء التخطيط، وتضارب القرارات. هذا إلى جانب ضرورة تضافر كل المسئولين وأصحاب الحل والعقد بروح تغلب عليها الوطنية لتحسين نوعية الحياة بها، حتى تعود القاهرة مصدر إشعاع للمصريين لا مصدر صداع لهم، وحتى تعود "أم الدنيا" كما سماها الأقدمون.

---

(1) Dicey (Edward), the story of the Khadivate, London, 1902 , P. 71.

وكانت هذه الديون فى أواخر عهد سعيد باشا تبلغ ٣،٢٩٣،٠٠٠ جنيه، انظر:

-Cromer. Modern , Egypt , Vol. I , P. 11.

(٢) شاهدان أحمد شبكه: نحو الارتقاء بعمران القاهرة، القاهرة فى لحظة تحول – مركز دراسات بحوث الدول النامية، ص ٧٧-٧٨.

الخاتمـــــــة

ومما سبق يتضح أن المجتمع المصرى عبارة عن سيمفونية راقصة رائعة شارك فى عزفها المخلصون من أبنائه، علماء خبراء، عمال، فلاحين حملوا رواسب آلاف السنين مـن تجارب ومعرفة رسب بعضها فوق بعض، وهذه الرواسب لا تظهر إلا فى المواقـف التـى يتعرض فيها للتحديات، فنرى مصر تقفز بطفرات مدهشة ومثيرة للاهتمام.

إن المجتمع المصرى مجتمع فريد من نوعه ففى مناخه تتعايش كل القيم المختلفة، كما تتعايش فيه المبادئ والعقائد والأديان وحتى المثل العليا المتباينة، ولم يحدث أن كان الاختلاف فى القيم ولا التباين فى العقائد والمبادئ والمثل العليا مثار خلاف فاقع اللون، فهـو مجتمـع مستقر نسبيا، وطبيعة الحياة وجوهرها فيه لم يختلفا كثيرا منذ الأحقـاب المتطاولـة، ومـن الممكن أن تقع العين على مشاهد ظلت موجودة كما هى منذ أيام القدماء المصريين.

ومع ذلك فإن حياتنا وقواعد سلوكنا الأساسية استطاعت أن تهضم الماضـى هضـما وتحوله إلى دم يجرى فى الشرايين مثلما يحدث مع أى كائن حى فهى حياة متحركة فى تيـار يدفعها نحو تحقيق ليس ما كان، وإنما ما سوف يكون، لذلك يجب أن نضع أصـابعنا علـى مفتاح العصر دون أن نخدع أنفسنا بأنه يكفى أننا نعيش فيه، فمع أننا نعيش عصر العولمة بعد أن استوردنا كافة صنوف الأجهزة الحديثة التى عرفها هذا العصر فاستوردنا السيارات مـن كافة الموديلات التى تملأ شوارعنا، كما استوردنا أجهـزة التلفزيـون والثلاجـات والأدوات الكهربائية التى تملأ منازلنا وركبنا الطائرات التى تدمدم فى جو السماء وتنقلنا من قارة إلـى أخرى، فإن كل ذلك لا يعنى أننا دخلنا عصر العولمة بل إننا ما زلنا بعيدين فى كثيـر مـن المناحى عن العصر الذى نعيشه لذلك يجب علينا أن نبحث عن مفتاح هذا العصر وإن نعرف إن مفتاح هذا العصر يتركز فى امكانية أن نصنع ما صنعه غيرنا، لا أن نشترى ما صـنعه الآخرون ونتباهى به وأن ندرس علوم عصرنا ونضيف إليها لا أن ندخل فى عقولنـا أفكـار الآخرين دون جهد بذلناه وأن نعمل على النهوض بمصر ولكن كيف؟

الواقع أن أول ما ينبغى توفيره للمواطن المصرى هو الحد الأقصى من حرية التعبير لتوضيح مطالبه حتى يتم تصريف بخار التوتر الكامن فى صدره وفى نفس الوقت فان علـى المواطن المصرى ألا يفتعل القضايا ويضع الزلط والطوب فى الطواحين ظنا أنهـا تخـرج طحينا أو أن يجعل حياته ترزح تحت أكوام مثقلة من الشجر الجاف والورق الذابل والحطـب اليابس بل عليه ابراز ما ينقصه بالفعل حتى تصبح حياته خصبة مثمرة، وأغصـانها تنـبض

بالحياة ، وحتى يستطيع أن يساهم فى بناء وطنه وتتم عملية التحـول الاجتمـاعى بشـكل لا تشوبه شوائب، أو أن يصيبه الجدب.

وهذا لا يتأتى إلا بالتخلص من السلبية والعزوف عن المشاركة فى شـئون الـوطن وقضاياه، والتخلص من الظواهر الاجتماعية المرضية مثل الانتهازية والفردية وافتقاد الشعور بالانتماء للوطن والتضحية بالمصالح الشخصية من أجل المصلحة العامة واعتبـار طهـارة واستقامة الوسيلة التى يحصل بها الناس على المال أهم من الحصول على المـال نفسـه وأن نعمل على ضخ روح التقدم فى عروق عامة الشعب حتى ينتقـل إلـى عصـر المعلومـات والاكتشافات والتكنولوجيا بكل ما يترتب على ذلك من تغييرات.

وهكذا تتعاقب أمواج القرون والأعوام على ساحل الحياة المصرية، لتزيد فى سجلات التاريخ صفحات بعد صفحات، وتولد طاقات مضيئة يمكن أن تحول الحياة إلى ضياء وازهار ونماء وتقدم. ونردد خلالها قول مصطفى صادق الرافعى:

بلادى هواها فى لسانى وفى فمى

يمجدها قلبى، ويدعو لها فمى

د. عبد المنعم الجميعى

مـــلاحق الدراسة

١- المقاييس والأوزان المصرية فى القرن التاسع عشر .

٢- النقود المصرية فى القرن التاسع عشر .

٣- وصف مصر انسيكلوبيديا تصور حياة المصريين الاجتماعية .

٤- عوائد الأفراح .

٥- الأعياد الدورية والعامة Perio Dical Public Festivagls

٦- الأعياد الخاصة Private Festivitles

ملاحق الدراسة

ملحق رقم (١)

المقاييس والأوزان المصرية فى القرن التاسع عشر(*)

يستعمل التجار بمصر، خوفا من المحتسب، مقاييس وأوزانا تزيد قليلا على المقياس الصحيح، مع أنها تختم بختم الحكومة، التى تعنى باستعمال مثل هذه المقاييس والأوزان فى مشترواتها، كما تعنى أيضا، بلاشك باستعمال تلك التى تكون أكثر ضبطاً فى مبيعاتها.

مقاييس الطول والأرض

"الفتر"	هو ما بين امتدادى الابهام والمشير
"الشبر"	ما بين إمتدادى الابهام والبنصر
"الذراع البلدى"	ويوازى ٢٢ بوصة وثلثى بوصة، ويستعمل لقياس أقمشة الكتان..إلخ المصنوعة فى مصر
"الذراع هنداره"	(هندسى) حوالى ٢٥ بوصة، ويستعمل خاصة لقياس البضائع الهندية
"الذراع الاسطنبولى"	ويستعمل للأقمشة الأوروبية، وهو حوالى ٢٦ بوصة ونصف
"الفدان"	وهو المقياس العادى لمسح الأرض. وهو يقسم إلى ٢٤ قيراطا، ويتكون من ٣٣٣ قصبة مربعة وثلث. وكانت القصبة ٢٤ قبضة، وهى الآن ٢٢.
"القبضة"	هى مقياس قبضة الرجل مع امتداد الابهام، أو ٦ بوصات وربع تقريبا
"الملقه"	قياس لم أستطع الحصول على تعريف له أحسن مما يلى: أنه المسافة الواقعة بين قريتين. وهو يختلف فى الصعيد والوجه البحرى. فهو فى الأخير، سفر ساعة تقريبا، أو ما بين ميلين ونصف وثلاثة أميال. وفى

(*) المصدر: ادوارد وليم لين: المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم، ص ص ٤٤٢- ٤٤٣.

الصعيد سفر ساعة ونصف أو من ٣ أميـال وثلاثـة أرباع الميل إلى ٤ أميال ونصف، أو اكثر.

المكاييل

"الأردب" ويوازى ٥ بوشل انجليزى تقريبا

"الويبه" سدس أردب

"الربع" ربع ويبة

الأوزان

"القمحه" واحد علي أربع وستين من الدرهم، أو ربع قيراط

"الحبه" واحد على ثمانى وأربعين من الدرهم، أو ثلث قيراط

"القيراط" ٤ قمحات، أو ٣ حبات، وهـو واحـد علـى أربـع وعشرين من المثقال

"المثقال" (وزن دينار) درهم ونصف

"الأوقيه" ١٢ درهم، أو واحد على اثنى عشر من الرطل

"الرطل" ١٤٤ درهم، أو ١٢ أوقية

"الأقه" ٤٠٠ درهم أو رطلان وسبعة اتساع

"القنطار" ١٠٠ رطل

ملحق رقم (٢)

النقود المصرية فى القرن التاسع عشر

يساوى الجنيه الاسترلينى مائة قرش مصرى، ويحتمل أن يظل كذلك بعض السنوات. وقد ارتفع الاسترلينى منذ عامين من ٧٢ قرشا، وكان ذلك سعر الصرف لعدة سنوات سابقة.

"الفضة" أصغر النقود المصرية. ويسمى مفردا "نصا" (تحريف نصف) أو "نص فضة" ويسمى أيضا "ميدى" (بفتح الميم وتشديد الياء المفتوحة. وهو اختصار "مؤيدى" وكانت هـذه الأسماء تطلق أصلا على نصف الدرهم، الذى كان يضرب فى عهد السلطان المؤيد، فى أوائل القرن التاسع للهجرة، أو الخامس عشر للميلاد. والأتراك يسمونه "پاراه".

"والفضة" تصنع من خليط من الفضة والنحاس، هى تساوى واحد على أربع عشر من القرش.

ويوجد قطع بخمسة فضة، وعشرة فضة، وعشرين فضة (وتسمى هكذا بدلا من خمسة أنصاف فضة..إلخ) وتسمى الأخيرة أيضا "نص قرش" وهذه القطع مثل "الفضة" تسـك مـن الفضة والنحاس.

"القرش" يساوى واحد على مائة من الجنيه الاسترلينى، أو خمس الشلن. وهو يسـك مثل القطع السابقة، ويبلغ قطره بوصة وثمن. ويحمل أحد وجهيه طغراء السلطان؛ والآخـر، جملة: "ضرب فى مصر"، مع تاريخ اعتلاء محمد على العرش، أسفله (١٢١٣ هـ، ١٧٠٨-١٨٠٩م)، وتاريخ ضرب النقد، أعلاه. وتحمل النقود الأخرى النقوش نفسها تماما.

"السعدية" ويسمى عامة"خيرية باربعة" أو "الخيرية الصغيرة" وهى نقد ذهبى صـغير، قيمته أربعة قروش.

تلك هى النقود المصرية- والنقود التركية مألوفة فى مصر، ولكنها نـادرة وكـذلك الدولارات الأوربية والأمريكية، وأغلبها توازى عشرين قرشا، ويساوى الدولار الأسبانى ذو الأعمدة ٢١ قرشا، ويطلق اسم "ريال فرانسا" على كل نوع، غير أن الـدولار ذى الأعمـدة يسمى "أبو مدفع" لظنهم خطأ ان الأعمدة مدافع. وللنقود الأخرى أسماء مميـزة. و"الـدبلون" الأسبانى، وقيمته ستة عشر دولارا، شائع فـى هـذا البلـد، وكـذلك "البنـدقى" و "الجنيـه" الانجليزى.[1]

([1]) المصدر: ادوارد وليم لين: المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم – ترجمة عدلى طاهر نور، ص ٤٤٤-٤٤٥.

و"ريال" مصر نقد اسمى، قيمته ١٩ فضة، وكانت قيمة الدولار الأسبانى عام ١١٨٥هـ (١٧٧١- ١٧٧٢) أو ما يقرب من ذلك، ١٩ فضة بأمر على بك، وكان الدولار يسمى حينئذ "ريالا" فقط، ومنذ ذلك الوقت ظل هذا المقدار من "الفضة" السابق ذكره يسمى بهذا الأسم.

"الكيس" خمسمائة قرش.

"الخزنة" الف كيس.

ملحق (٣)

وصف مصر انسيكلوبيديا مصرية تصور حياة المصريين الاجتماعية

ترجع فكرة إصدار هذه الموسوعة الضخمة التى وضعها علماء الحملة الفرنسية تحت عنوان: "وصف مصر Description De L' Egypte والتى تعد وبحق انسيكلوبيديا مصرية. تتحدث عن تاريخ مصر وجغرافيتها وتصف آثارها وتربتها ونيلها وترعها وموارد ثروتها الحيوانية والنباتية والمعدنية، ومناخها وعادات أهلها ترجع إلى الجنرال "كليبر" الذى وجه النظر إلى ذلك فى أمر أصدره بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٧٩٩ إلى ضرورة تأليف لجنة من أعضاء المجمع العلمى لدراسة آثار مصر القديمة وأحوالها، وشئونها الحديثة فقام أعضاء المجمع بالاشتراك مع لجنة العلوم والفنون بدراسة ذلك الموضوع وتوزيع المهام فيما بينهم، فأحضروا البحوث التى كانوا قد جمعوها عن تاريخ مصر وجغرافيتها، والمذكرات التى كتبوها، والخرائط التى رسموها، والانطباعات التى احتفظوا بها وما وقع تحت أبصارهم من آثار وعمارة وفنون وثروات طبيعية، وما عرفوه من أحوال أهلها وعاداتهم وبدأوا فى العمل على إصدار هذا الكتاب الذى لقيت فكرة تأليفه أشد الترحيب من "بونابرت" القنصل الأول لفرنسا فى ذلك الوقت.

وعلى الرغم من رحيل الحملة فى عام ١٨٠١م وانقطاع كل صلة لها بمصر فقد استمر العمل فى المشروع خاصة وأن "نابليون بونابرت" الذى جذبته مصر بحضارتها وتاريخها وجمال طبيعتها والذى كان يرغب فى ربط صورته بالشرق كأسطورة جديرة بالتمجيد فى ذاكرة الشعب الفرنسى كان حريصا على استكمال المشروع وظهوره إلى النور، فأصدر قرارا فى ٦ فبراير ١٨٠٢ بأن تقوم الحكومة الفرنسية بنشر هذا الكتاب وأن تتكفل الخزانة العامة بجميع نفقاته، وأن يعطى للعلماء المشاركين فى تأليفه المكافآت المناسبة. وإلى جانب ذلك فقد عهد إلى لجنة من ثمانية علماء للإشراف على تبويب الكتاب وإنجاز العمل فيه وتقدير نفقاته، كما كلفوا بتأليف المقدمة التمهيدية له وكان هؤلاء الثمانية: برتوليه ، كونتيه، كوستاز، ديجنت، فورييه، جيرار، لانكريه، مونج؛ وقد حل جومار وجولوا Jollois محل لانكريه وكونتيه بعد فترة، كما ضم دليل وشابرول دى فيلليه ديتراج إلى هذه اللجنة فى عام ١٨١٠.

وقد استمر العمل فى هذا الكتاب على قدم وساق وتم تكليف العالم "فورييه" بكتابة المقدمة وقام نابليون بونابرت بمراجعتها بنفسه بعد أن أبدى بعض الملاحظات عليها، وقد أشتملت مقدمة "فورييه" على ذكر ما كانت عليه مصر من الفتح العثمانى إلى وقت مجئ الحملة، وتناولت علاقات مصر التجارية بغيرها من البلدان، وأوضحت أهمية موقع مصر بالنسبة للتجارة العالمية ثم انتقلت بعد ذلك إلى ذكر تاريخ الحملة حتى عهد "مينو" ثم رحيلها عن مصر. وقد ظهر الجزء الأول من هذه الموسوعة فى عام ١٨٠٩م، وكتب على غلافه أنه طبع بأمر من الإمبراطور نابليون، وحدث ذلك أيضا على غلاف المجلد الثانى، ثم حالت الظروف السياسية فى فرنسا دون نشر بقية أجزائه فى عهد الإمبراطورية، فظهر آخر أجزاء هذه الطبعة فى عام ١٨٢٢ أى بعد سقوط نابليون. لذلك كتب على غلافها بأنها قد طبعت بأمر من الحكومة. وتتألف هذه الموسوعة من تسع مجلدات تشتمل على مذكرات علماء الحملة وتقاريرهم ومشاهداتهم ثم أحد عشر مجلدا أخرى تحوى الرسوم والخرائط. وقد أعيد طبع هذا الكتاب فى عهد الملك لويس الثامن عشر فى عام ١٨٢١ وتم الفراغ من طبع أجزائه فى عام ١٨٢٩ وتختلف هذه الطبعة عن الطبعة الأولى فى زيادة عدد الأجزاء حيث تتألف من ستة وعشرين مجلدا مع أنها تحوى نفس الدراسات والبحوث التى شملتها المجلدات التسعة فى الطبعة الأولى ولكن فى مجلدات أصغر حجما. هذا بالإضافة إلى ١١ مجلدا تحوى الرسوم والخرائط وهى نفس المجلدات التى صدرت مع الطبعة الأولى مع اختلافات طفيفة بين الطبعتين تبرز فيما يلى:

١- إن المجلدين الأولان من الطبعة الأولى أهديا إلى الإمبراطور نابليون. أما الطبعة الثانية فقد قدمت إلى صاحب الجلالة الملك لويس الثامن عشر.

٢- إن الطبعة الأولى بدأت بمجلدات الدولة الحديثة بينما بدأت الطبعة الثانية بوصف آثار العصور القديمة.

٣- إن الطبعة الثانية تشتمل على دراسة لم ترد فى الطبعة الأولى وهى عن جامع أحمد ابن طولون وحياته وعلى أية حال فإنه يمكن تقسيم موضوعات هذه الموسوعة فى طبعتها الأولى إلى أربعة أقسام: على النحو التالى:

- مجلدات لوصف آثار مصر القديمة، وبها تخطيط دقيق لموقع هذه الآثار وحالتها فى المدن المصرية المختلفة ابتداء من الجنوب عند جزيرة فيلة إلى الشمال حتى الاسكندرية.

- مجلدان لدراسة تاريخ الدولة القديمة حتى بدايات الفتح الإسلامى.
- ثلاثة مجلدات لدراسة الدولة الحديثة من الفتح الاسلامى حتى وصول الحملة الفرنسية إلى مصر.
- مجلدان لدراسة التاريخ الطبيعى لمصر وبهما دراسات عن طيور وحيوانات ونباتات وأسماك وحشرات مصر.

أما عن المجلدات الخاصة بالصور والرسوم واللوحات الفنية والمشاهدات فقد شملت مناظر عن مختلف نواحى الحياة فى مصر كما شاهدها علماء الحملة ومهندسوها ومصوروها هذا بالإضافة إلى أطلس جغرافى، وهذه يمكن تقسيمها إلى خمسة أقسام هى:

١- مجلد يشمل تقديم اللوحات وشروح لها.

٢- خمسة مجلدات لرسومات العصور القديمة.

٣- مجلدان لرسومات وتوضيحات عن مصر الحديثة.

٤- مجلدان فى ثلاثة أجزء للتاريخ الطبيعى.

٥- أطلس جغرافى ويشتمل على خرائط مفصلة للأقاليم المصرية والشامية.

وهذه المجلدات تقدم فى مجملها صورة واضحة لحياة المصريين أثناء وجود الحملة تنم عن دقة فى استيعاب الحقائق العلمية، وجهد ضخم بذل لتصوير كافة جوانب الحضارة المصرية.

وبالرغم من أهمية هذه الموسوعة التى صورت تفاصيل الحياة المصرية وسجلت كل صغيرة وكبيرة فى حياة المصريين بوجهة نظر غير مصرية، وقدمت للعالم فيضا من المعرفة كان فى حاجة إليها فإنها ظلت حوالى قرنين من الزمان فى حاجة إلى من ينقلها إلى لغة الضاد، ومع ذلك فقد ترددت العديد من المؤسسات الثقافية فى الاضطلاع بترجمتها إلى العربية ونشرها إما لقصور إمكاناتها أو خشية المجازفة فى الدخول فى مشروع ضخم يصعب التنبؤ بنجاحه. وقد حاول الأستاذ "زهير الشايب" الذى تحمل عبء هذا العمل وحده إقناع بعض هذه المؤسسات الثقافية بالمساهمة فيه ولما لم يجد استجابة واضحة منها أقدم دون أى معاونة مادية أو أدبية من أحد بل بدافع من ضميره الوطنى وحبه لمصر فى ترجمة أجزاء من هذه الموسوعة الضخمة التى تثبت عبقرية علماء الحملة فى استيعاب الحقائق واستقصاء المشاهدات والمعلومات والبيانات الدقيقة التى جمعوها خلال الفترة القصيرة التى قضوها بمصر (١٨٧٩- ١٨٠١). كما تؤكد ما تتميز به مصر وحضارتها من عظمة وخلود.

ومما يؤخذ على كتاب وصف مصر ما يلي:

١- أن الدراسات التى اشتمل عليها تتجاور دون نسق منهجى واضح فمثلا نجد دراسة عن ملح النوشادر تعقبها دراسة عن مدينة القصير، وتليها دراسة عن الضرائب على الأطيان الزراعية ثم دراسة عن مقياس النيل ودراسة عن طيبة إلى جانب مقال عن تربية الدجاج وهكذا.

٢- الخلط فى أحيان كثيرة بين بعض الطقوس الدخيلة على المصريين بل وبعض الممارسات الشاذة، والعقائد والعبادات بشكلها الصحيح.

٣- وجود بعض أشكال الأفكار المسبقة التى لا تنهض على أساس علمى حقيقى خاصة وأن بعض هذه الأفكار كانت ترديد لأفكار كانت شائعة لدى الأوربيين عن المصريين فى القرن التاسع عشر لم يقم العلماء بتمحيصها.

٤- أن الدراسات فى هذه الموسوعة غير متسقة الحجم فبعضها طويل وبعضها متوسط وبعضها الآخر مجرد ملاحظات لا تستغرق أربع أو خمس صفحات لا يوجد رابطة منهجية بينها.

٥- وجود تفسيرات متباينة بين بعض الدراسات وتكرار فى بعض الأحيان واختلاف فى البنيان العام للكتاب خاصة وأن كل مؤلف عمل بمفرده على الرغم من وجود لجنة لضبط هذه الأمور.

٦- أن لجنة المؤلفين التى شكلت لوضع هذا الكتاب لم تضع فهرسا له كما أنها لم تنشر أى موجز للكتاب يتيح للقارئ السير على هداه وسط هذا الكم الضخم من المعلومات.

٧- عدم الدقة فى نقل الزخارف الموجودة فى عدد من الآثار الإسلامية خاصة مجموعة السلطان حسن المعمارية، وجامع احمد بن طولون وجامع سنان باشا.

ومع كل ذلك فخلاصة القول أن هذا الأثر العلمى كان وبلا شك من أعظم آثار الحملة الفرنسية، وأبقاها خلودا على مر الأيام والعصور كما أن ما قام به المرحوم زهير الشايب من جهود ضخمة فى الترجمة قد اضفى على هذه الدراسات طابعا منهجيا وأدبيا واضحا فعمل على تجميع بعض الدراسات المتناثرة فى الأصل الفرنسى حسب الموضوع الرئيسى الذى تدور حوله، وبذلك استطاع أن يضم هذه الحبات المتناثرة ليتكون هذا العقد الثمين، فقدم ترجمة أمنية نصا وروحا.

ملحق (٤)
عوائد الأفـــــراح [1]

إن حرص الإنسان على منافعه الذاتية العاجلة منها والأجلة حملة علـى أن يستبشـر لخير أعوانه ونصرائه وينقبض إذا نالهم ضيم أو مسهم سوء، فعلى هذا يكون سرور الإنسان عند النعمة وبؤسه عند النقمة أمرا طبيعيا لا إختيار له فيه فلا مجال للتنديد أو الثناء على مـا يختلج فى الفؤاد ويظهر على الجوارح فى السراء والضراء، إذ لا يعاب علـى الإنسـان ولا يمدح إلا بما صدر منه عن الإختيار والإرادة، ولأجل هذا نجعل كلامنا الآن متعلقا باختياراته ليصادف النهى والترغيب موضعا فيقول:

ترى الناس على اختلاف مواقعهم فى المديريات والأقاليم متعودين فى الأفراح أمورا كثيرة بعيدة عن الآداب ومخالفة ما جاء من أحكام الشريعة، ولنأت على بعض ما فى حافظتنا الآن منها معترفين بأنه قليل من كثير فى جانب مرتكباتهم التى يضيق صـدر المجلـة عـن سردها لأننا إذا تتبعنا ما يفعل قبيل زفاف العروسين إلى ما بعد الدخول نجد أمـورا كثيـرة نجهل بالحقيقة مبدأ ظهورها وعلة تداولها كـ (البلصة وحل الدكة وإزالة البكـارة بالإصـبع وصلاة ركعتين وقتئذ على قيمص العروس وأن يكون بغير وضوء) وبيـان ذلـك بـبعض التفصيل.

إن أبوى البعل هما اللذان يختاران فى الغالب زوجة لولدهما غيـر ملاحظـين فـى شروط إنتقائها إلا أن تكون من عشيرة تعادلهم فى الثروة والصيت أو تزيد عنهم فيهما فـإن ظفروا بذلك سارعوا إلى خطبتها، وإن كانت خبيثة الذات قبيحة التربية وأكرهوا الولد علـى قبولها إن لم يتحد معهما مقصدا ولا يخفى ما فى ذلك من النتائج المضرة بـالزوجين معـا. ويدفعان من الصداق ما يرضى أبويها ولو حملها دينا باهظا وكلفهما حملا ثقـيلا. وإذا أتـى وقت الدخول بها توجهت نسوة ورجال عديدون من أقرباء الزوجة إلى منزل الزوج وأخذوا ما يكفيهم من السمن والعسل والقمح والدقيق وغيره (من غير أن تأخذهم شفقة على عويل أهـل المنزل وصراخهم) ليعدوه طعاما ليلة الزفاف. وبعد ذلك إذا أراد آل الـزوج أن يـأتوا إليـه بمخطوبته تتبعهم جموع كثيرة، فئة تضرب بالسلاح، وقوم يلعبون الحطب. وجماعة تتسـابق على ظهور الخيل، ولفيف من النسوة والفتيات يترنمن بأصوات يخالها السامع أنها منبعثة عن

---

[1] المصدر: أحمد فتحى زغلول: الآثار الفتحية – خواطر فى العلم والأدب والاجتماع.

متوشحات أفريقيا الجنوبية، وهذا مع اختلاط الذكور بالإناث والصغار بالكبار، حتى إذا جاؤا بيت الزوجة وأرادوا حملها على الهودج المعد لزفافها كان دون فتح القاعة التى هــى فيهــا صعوبات أخفها تمنع أخيها أو خادمها عن فتحها حتى ينقده والد الزوج ما يرضيه من النقود، وكذا يرضى جميع خدم أبيها وحاشيته وهذا هو المسمى عندهم (بلصه)، وأما والدة الزوجــة فإن كسوتها يبعثها إليها الزوج قبل الزفاف بنحو شهر على شرط أن تكون مضارعة لكســوة عروسه وإلا ردت إليه وطولب بأثمن منها، هذا وقبل أن نخرج بالعروس إلى هودج الزفــاف نعود بالقارئ إلى ما يفعل بها صبيحة اليوم التى تزف فى مسائه إلى وقت الزفاف فنقول:

قبيل شروق الشمس من هذا اليوم تأتى الماشطة وتخضب قــدمى العــروس وكفيهــا بالحناء على شكل خطوط متقاطعة ثم تدعها واضعة قدميها على لبنتين من الطوب الأخضــر مكشوفة الأطراف وليس عليها سوى قميص رقيق محفوفة بلفيف من الفتيات يصرفن الوقــت فى الترنمات واللعب، فإن حان وقت العصر غسلتها الماشطة وسرحتها وألبستها ثياب الزينــة والزفاف وفى هذا الوقت تخرج نسوة عديدات من أقاربها ويمرون بأنحاء القرية مثنى وثلاث رافعات الأصوات بألفاظ يحسبنها ترنما وكلما مررن بباب منزل وقفن قليلا فتخرج من فيــه من النساء وتقابلهن بالزغاريد وعند اجتيازه يخترن من النساء اللاتى فى المنزل أجملهن ذاتا ويدعونها إلى بيت العروس لتحضر العشاء لتتقاطر المدعوات أفواجا إلى بيتها وكلما دخلــت منهن واحدة وضعت بين ثدييها ما أتت بها من النقود وهذا هو المسمى (نقوط) ثم ينصــرفن إلى منازلهن بعد العشاء ولا يعدن إلا وقت زفاف العروس.

عود على بدء – حيث تخرج العروس من منزل أبيها تكثر طلقات الأسلحة الناريــة ويعلو صوت المغنيات ويشتد رعد الطبول وتنتشر الغوغاء ويتصاعد العفير المنبعــث عــن حوافر أفراس السباق على وجوه المارة بالموكب وثيابهم. ويزيد صراخ الأطفــال الســاقطين تحت أرجل الناس من الإزدحام إلى أن يقرب الموكب من بيت الزوج فيعرج ســائق الجمــل المقل الزوج عن الطريق الموصل إلى البيت وتتبعه الجموع حتى يرضيه الزوج بما لا ينقص عن أجرة الجمل شهرين أو ثلاثة فيرجع عن جموحه وتدخل العروس وأثاثاتها إلــى منــزل العريس، وبعد ذلك يأخذ فى زفاف الزوج على هيئة زفاف عروسه، خلا أنه لا يحمل علــى جمل بل يمشى راجلا وأمامه المدففون والزامرون ولكن بعض النــاس الآن (وهــم وجهــاء البلاد) اتخذوا الذاكرين (أبناء الطرق) بدلا عن الزامرين والمدففين – فهم الذين يؤلفون موكب العروس ويخترقون كثيرا من القاذورات رافعين أصواتهم بذكر الله طائفين حول البلــد علــى

غير خشوع وأدب. هذا فضلا عن كون كثير من النسوة والأطفال يقطعــن صـــفوفهن لشــدة الزحام حتى إذا بلغوا المنزل دخل الزوج قاعة العروس لفض بكارتها فيجد عنــدها والــدتها واثنتين معها فى الأقل غير القابلة فيفترش قيمصها ويصلى عليه ركعتين والغالب أن تأديتهما تكون على غير وضوء. وإذا نهض إلى فض البكارة ما نعته أم عروسه وطلبت منه مبلغا قبل أن يحل رباط سراويل العروس هذا ما يدعى (حل الدكة) وإذ ذاك تزدحم أقدام الشبان والنساء على باب القاعة وتصطف الرجال على سطوح البيت بالبنادق والقربانات وترتفــع أصــوات القائمين على باب القاعة بكلمات قبيحة المدلول يعنون بها خطاب الزوج مع تصـــفيق شــديد ورقص وتواثب عنيف كأنهم يحثونه على السرعة فى تنجيز فض البكارة ويشرحون له كيفية الوصول إلى ذلك وإن تراخى ولو قليلا أخذوا فى التنديد عليه فيفض بكارتها بإصبعه علـــى مرأى من النسوة الحاضرات وقد يكون الزوج صغير السن أو مرتجفا فتنوب القابلة عنه فـــى ذلك (شئ قبيح لا ترتضيه الشريعة ولا يقبله الذوق) وبمجرد خروجه من القاعة تتدفق النـــار من أفواه البنادق والقربانات ثم تدخل النساء العديدات عند الزوجة ويأخذن القميص الملوث بدم البكارة ويحملنه بين أيديهن ويمررن حول البلد مرة أو مرتين فرحات راقصـــات فيعرضـــنه على جميع المنازل والبيوت وينشدن فى طريقهن هذه العبارات متتابعة بصوت مرتفع (بيضتى الشاش يا عروسة) ومعناها حبذا بك من عروس لم تدنسى عرض أبويك فإن هذا الدم الــذى نحمله بين أيدينا يدل على أنك مصونة العرض طاهرة الذيل وكفى أبويك شرفا بهذا وبعد ذلك يحفظن هذا القميص فى منزل أبويها لا يسمحن بغسله إلا بعد شهر فى الأقل ليكون حجة على طهارة عرض أبويها.

وأما الزوج فإنه عند خروجه من عند زوجته لا يباح له العودة إليها ثانيـــة إلا قبـــل الفجر ثم مع ذلك يجب أن يبكر فى القيام من النوم صبيحة تلك الليلة ليجلس مع المهنئين طول نهاره وهكذا ثلاثة أيام فى هذه المدة تأتى إليه الأصحاب من البلدة وغيرها بالنقود كل علـــى قدر ثروته، أو الأولى يدفع إليه كل واحد قيمة من أخذ منه فى أفراحه السابقة، وبعد هذا ينتهى الفرح ويذهب كل واحد من الناس إلى عمله حتى العروس.

تلك بعض عاداتنا فى الأفراح حفظناها حيث ننظرها من النوافذ المطلة على شـــوارع المدن والبنادر وتمر بين أيدينا ونحن جلوس على قارعة طرق الأرياف و(مصاطبها) يقـــوم بشعارها الصغير والكبير ولا ينكرها الجاهل والعالم ولا ترى من يزجر النساء عن الاجتماع بالرجال مع مشاهدتهم ما ينشأ عن الاختلاط من الفسق والفجور وكأنهم لم يعلمـــوا أن فـــض

البكارة بالإصبع وكشف العورة بمحضر جمع من النسوة أمر منكر فى الشرع ومستقبح بالعقل وان القابلة تستحق التعذير والتأديب على النظر إلى عورة غيرها فضلا عن أن تزيل هى غشاء البكارة بنفسها وكأنهم ذهلوا عما ورد فى الشرع وأجمعت عليه الأئمة من أن الصلاة بغير وضوء من المحرمات المغلظة هذا إذا لم يعتقد حل ذلك وإلا فيحكم عليه بالكفر حتى لم ينهو العروس عن صلاة تينك الركعتين بغير وضوء.

وبالجملة فإن كثيرا من العادات التى شرحناها لك إن لم نقل كلها مما لا ينطبق على قاعدة شرعية أو اصل عقلى بل مصدرها أهواء فاسدة وميول سخيفة شأن كل قوم إنتشر بينهم جيش الجهل وأقل من ربوعهم بدء العلم فيفعلون ما تحدثهم به شهواتهم من غير شعور بما يترتب عليه من القبيح والضار.

نعم إننا نعترف بأن كثيرا من عادات الأفراح السابقة قد درست مراسمها وأن النبلاء فى القرى والبنادر أخذوا يقللون من تلك العادات شيئا فشيئا وأن البعض منهم قد قدر على إزالة معظمها إذا عمل فرحا فى بيته ولكن ذاك التقليل وهذا التهذيب لا يكفى بالنسبة لحالتنا الراهنة فإن قطرنا الآن يحسب فى عدد البلاد المتمدنة لاسيما وقد ملأته الأغراب والسائحون من الأمم العريقة فى التمدن فمن العار أن يرونا مساوين فى العادات لقوم وحشيين لم تطرق آذانهم حكم شرعية ولم يشموا رائحة المعارف ولم تنور بصائرهم أشعة العلم فيرمونا بالجهل وينظروا إلينا مستهزئين ونحن لا نقوى على رد دعواهم لكونهم ينطقون عن معاينة، وأما تنزه أفراد قليلين عن تلك العادات فلا يعد عنوانا لإقليم يحتوى على الملايين من النسمات على أنهم وإن خلعوا بعض هذه العادات لكنهم جددوا لهم عادات أخرى حتمت عليهم الإسراف والتبذير وصرف المصاريف الجسيمة فى مالا يعود بطائل مع أن تلك النقود الوافرة لو حفظت للعروسين لكانت رأس مال يضمن لهما حسن المعيشة إن أحسنا فيه التصرف، فهذه العوائد الجديدة ليست أقل فى الفساد من تلك العوائد الوحشية، أصلح الله حالتنا آمين.

ملحق رقم (٥)

CHAPTER XXIV.

PERIODICAL PUBLIC FESTIVALS, &c.

MANY of the most remarkable customs of the modern Egyptians are witnessed at their periodical public festivals celebrated in Cairo; the more important of which I shall here describe. Most of these festivals and other anniversaries take place at particular periods of the lunar, Mohammadan year.

The first ten days of "Moḥarram" (the first month of the Mohammadan year) are considered as eminently blessed, and are celebrated with rejoicing; but the tenth day is especially honoured. They are vulgarly called the "'ashr;" the derivation of which term will be explained hereafter. The custom of selling, during this period of ten days, what is called "mey'ah mubárakah," to be used, during the ensuing year, as a charm against the evil eye, whenever occasion may require, I have already mentioned in the second of the two chapters devoted to the superstitions of the modern Egyptians. I have also mentioned that it is considered, by the Egyptians, unlucky to make a marriage-contract in Moḥarram.

It is a common custom of the Muslims of Egypt to give what they can afford in alms during the month of Moḥarram; especially in the first ten days, and more especially on the tenth day;[1] and many pretend, though few of them really do so, to give, at this season, the "zekah," or alms required by their law, of which I have spoken in a former chapter: they give what, and to whom, they will. During the ten days above mentioned, and particularly on the tenth, many of the women of Cairo, and even those in respectable circumstances, if they have a young child, carry it through the streets, generally on

[1] This custom seems to have been copied from the Jews, who are accustomed to abound in alms-giving and other good works during the ten days commencing with their New Year's Day and ending with the Day of Atonement, more than in all the rest of the year.—See Dr. M'Caul's "Old Paths," pp. 125, 129.

the shoulder, or employ another female to carry it, for the purpose of soliciting alms from any well-dressed person whom they may chance to meet: sometimes the mother or bearer of the child, and sometimes the child itself, asks for the alms; saying, "My master, the alms of the 'ashr."[1] The word "'ashr" is vulgarly understood as meaning the "ten days;" but I think it signifies the "ten nights;" though I am informed that it is a corruption of "'oshr," a term improperly used for "rubạ el-'oshr" (the quarter of the tenth, or the fortieth part), which is the proportion that the Muslim is required, by law, to give in alms of the money which he possesses, and of some other articles of property. The sum generally given to a child in the case above described is a piece of five faḍḍahs;[2] and this, and as many others as can be procured in the same manner, are sometimes spent in sweetmeats, &c., but more usually sewed to the child's cap, and worn thus until the next Moḥarram; when, if the child be not too old, the same custom is repeated for its sake; the pieces of money thus obtained being considered as charms.

The women of Egypt, and particularly of Cairo, entertain some curious superstitions respecting the first ten days of Moḥarram. They believe that "ginn" (or genii) visit some people by night during this period; and say that, on this occasion, a ginnee appears sometimes in the form of a saḳḳà (or water-carrier), and sometimes in that of a mule. In the former case, the mysterious visiter is called "saḳḳà el-'ashr" (or "the water-carrier of the 'ashr"): in the latter, "baghlet el-'ashr" ("the mule of the 'ashr"). When the ginnee, they say, comes in the form of a saḳḳà, he knocks at the chamber-door of a person sleeping, who asks, "Who is there?" The ginnee answers, "I, the saḳḳà: where shall I empty [the skin]?" The person within, as saḳḳàs do not come at night, knows who his visiter is, and says, "Empty into the water-jar;" and, going out afterwards, finds the jar full of gold.—The ginnee in the form of a mule is described in a more remarkable manner. He bears a pair of saddle-bags filled with gold; a dead man's head is placed upon his back; and round his neck is hung a string of little round bells, which he shakes at the door of the chamber of the person whom he comes to enrich.

empties

ملحق رقم (٦)

CHAPTER XXVII.

PRIVATE FESTIVITIES, &c.

As the modern Egyptian does not become a housekeeper until he is married (and not of necessity *then*, for he may live with his wife in the house of his or her parents), his first marriage is generally the first event which affords him and his wife an occasion of calling together their respective friends to a private entertainment. Whenever a great entertainment is given on any occasion of rejoicing, it is customary, for the persons invited, to send presents (such as I have mentioned in describing the ceremonies attendant upon a marriage), a day or two before. The husband always has his separate party, generally in the lower apartment or apartments of the house; and the wife entertains her female relations and friends in the ḥareem, or upper apartments. It is also the usual custom for the wife to entertain her guests (among whom no males are ever admitted, except very young boys,) during the six middle hours of the day; and for the husband to receive his guests afterwards; after sunset, or after the 'eshè prayers: but sometimes his guests assemble while the wife is engaged with her own party in the ḥareem.

On these occasions, the female singers who are called "'Awálim" (or "'Ál'mehs") are often hired to amuse the company. They sit in one of the apartments of the ḥareem; generally at a window looking into the court. The wooden lattice-work of the window, though too close to allow them to be seen by persons without, is sufficiently open to let them be distinctly heard by the male guests sitting in the court or in one of the apartments which look into it. In many houses, there is a small elevated apartment, or closet, for the 'Awálim, which I have before described, adjoining the apartment in which the male guests assemble (as well as another adjoining the principal saloon of the ḥareem), screened in front by wooden lattice-work, to conceal these singers from the view of the men.—The dancing-girls ("Ghawázee," or "Gházeeyehs,") are, or were, also frequently hired

to attend on the occasions of private festivities. They dance (with unveiled face) before the men, in the court, so that they may be seen also by the women from the windows of the ḥareem; or perform in an apartment in which the men are assembled, or in the street, before the house, for the amusement only of the women. When they or the 'Awálim perform for the entertainment of a party, one of the friends of the host usually collects for them small sums of money upon the tambourine, or in a handkerchief, from the guests; but sometimes, the host will not allow this custom to be observed. The contributions are called "nuḳooṭ." It is the general practice for the person who gives the entertainment to engage the Ghawázee for a certain sum: he receives the nuḳooṭ, which may fall short of, or exceed, the promised sum: in the former case, he pays the difference from his own purse: in the latter case he often pockets the surplus. Or he agrees that they shall receive all the nuḳooṭ, with, or without, an additional sum from himself. In some parties, where little decorum is observed, the guests dally and sport with these dancing-girls in a very licentious manner. I have before mentioned (in a former chapter), that, on these occasions, they are usually indulged with brandy, or some other intoxicating liquor, which most of them drink to excess. It is a common custom for a man to wet, with his tongue, small gold coins, and stick them upon the forehead, cheeks, chin, and lips, of a Gházeeyeh. When money is collected for the 'Awálim, their servant, who is called "khalbooṣ," and who often acts the part of a buffoon, generally calls out, at each contribution, "Shóbash 'aleyk yá ṣáḥeb el-faraḥ!" that is, "A present is due from thee, O giver of the entertainment, [on a similar occasion, and in the same way,]"[1] and adds, "Such a one has given so many 'maḥboobs,' or 'kheyreeyehs';" turning a few piasters into a much larger number of gold coins of considerably greater value; or, if gold be given, exaggerating the sum in the same manner. This he does to compliment the donor, and to stimulate the generosity of others. His mistress, or another of the 'Awálim, replies, "'Oḳbà le-'anduh!" ("May he have the like [rejoicing]!"[2] or "May he have a recompense!")—The guests are also often entertained with a concert of instrumental and vocal music, by male performers

[1] "Shóbash" is synonymous with "nuḳooṭ," being an Arabic corruption of the Persian "shábásh," which also signifies "well done!" "excellent!"

[2] The phrase was thus written and explained to me by a sheykh; but I suspect it should be, "Iḳbál le-'anduh," which is an expression vulgarly used to signify, "access to him;" and would mean, in this case, "[May we have] access to him:" and "Good fortune to him!"

("Álátceyeh"), who sit in the court, or in the apartment in which the guests are assembled. Two "dikkehs" (or high wooden sofas) are often put together, front to front, in the court, and furnished with cushions, &c., to form an orchestra for the musicians; and a lantern is usually placed in the middle. The Álátceyeh generally receive contributions from the assembly for whose entertainment they perform, like the 'Awálim; their khalbooṣ calling out to them in the same manner after each gift.

But performances of a different kind from those above mentioned are more common, and are considered more proper, on the occasions of private festivities. These are the recitations of a "khatmeh" (or of the whole of the Ḳur-án), by three or more fiḳees, who are hired for the purpose; or of a "zikr," by a small party of faḳeers.[1] That the khatmeh may not be too fatiguing to the performers, the fiḳees relieve one another by turns; one only chanting at a time; and each, usually, chanting a rubạ.[2] They generally come to the house a little after the 'aṣr, and get through the greater part of their task before the guests assemble: one of them then chants more leisurely, and in a more musical manner: after him, in the same manner, another; and so on. Sometimes a khatmeh is performed in the day-time, and after it, in the evening, a zikr. It is a rule that the zikr should always be performed after sunset.

In Egypt, persons who habitually live with the utmost frugality prepare a great variety and profusion of dishes for the entertainment of their friends. But very little time is devoted to eating. The period of conviviality is mostly passed in smoking, sipping coffee, drinking sherbet, and conversing: the Turks, however, generally abstain from smoking during the recitation of the Ḳur-án; and the honour which they pay to the sacred book on every occasion has given rise to a saying, that "God has exalted Ál-'Osmán [*i. e.* the race of 'Osmán, or the 'Osmánlees,] above other Muslims, because they exalt the Ḳur-án more than do others." In these parties, none of the guests ever attempts to amuse his companions, except by facetious conversation, or sometimes by telling a story; though all of them take great delight in the performances of the hired dancers, musicians, and singers. The Egyptians seldom play at any game, unless when only two or three

---

[1] These customs remind us of St. Paul's advice to the Ephesians, ch. v. v. 19; which shews the antiquity of social pastimes of this kind. The Egyptians highly enjoy the religious love-songs of the munshids at zikrs.

[2] A quarter of a "ḥezb," which latter is a sixtieth part of the Ḳur-án.

persons meet together, or in the privacy of their own families. They are a social people; and yet they but rarely give great entertainments. Festivities such as I have described above are very unfrequent: they occur only on particular occasions which really call for rejoicing. Except on such occasions, it is considered improper to hire dancing-girls to perform in a house.

The marriage-festivities I have described in a former chapter: I therefore proceed to give an account of the festivities which *follow* a marriage; and shall do so in the order of their occurrence.

On the seventh day ("Yóm es-Subooạ"[1]) after a marriage, the wife receives her female relations and friends during the morning and afternoon; and sometimes the husband entertains his own friends in the evening; generally hiring persons to perform a khatmeh or a zikr. It is a custom of husbands in Egypt to deny themselves their conjugal rights during the first week after the conclusion of the marriage with a virgin bride; and the termination of this period is a due cause for rejoicing.[2]—On the fortieth day ("Yóm el-Arba'een") after the marriage, the wife goes, with a party of her female friends, to the bath. Her companions return with her to her house, about the 'aṣr; partake of a repast, and go away. The husband, also, sometimes receives visiters in the evening of this day, and again causes a khatmeh or zikr to be performed.

The next festivities in a family are generally those consequent on the birth of a child.—Two or three or more days before the expected time of delivery, the "dáyeh" (or midwife) conveys, to the house of the woman who requires her assistance, the "kursee el-wiládeh," a chair of a peculiar form, upon which the patient is to be seated during the birth.[3] This chair is covered with a shawl, or an embroidered napkin; and some flowers of the ḥennà-tree, or some roses, are tied, with an embroidered handkerchief, to each of the upper corners of the back. Thus ornamented, the chair (which is the property of the dáyeh) is conveyed before her to the house.—In the houses of the rich, and of those in easy circumstances, the mother, after delivery, is placed on a bed, and usually remains on it from three to six days:

---

[1] The Subooạ after the birth of a child is celebrated with more rejoicing; and therefore, in speaking of the Yóm es-Subooạ, the seventh day after childbirth is generally understood.

[2] It was not such a festival as this alone that is alluded to in Genesis, xxix. 27, and in Judges, xiv. 12. It was, and I believe is still, the custom of the wealthy Bedawee (and such was Laban) to feast his friends seven days after marriage (as also after the birth of a male child); and every respectable Muslim, after marriage, if disappointed in the expectations he has been led to form of his wife, abstains from putting her away for about a week, that she may not be disgraced by suspicion; particularly if it be her first marriage.

[3] See Exodus, i. 16.

but poor women, in the same case, seldom take to a bed at all; and after a day or two resume their ordinary occupations, if not requiring great exertion.

On the morning after the birth, two or three of the dancing-men called Khäwals, or two or three Gházeeyehs, dance in front of the house, or in the court.—The festivities occasioned by the birth of a son are always greater than those on account of a daughter. The Arabs still shew relics of that feeling which often induced their ancient ancestors to destroy their female offspring.

A few days after the birth, generally on the fourth or fifth day, the women of the house, if the family be of the middle or wealthy classes, usually prepare dishes of "mufattaḳah," "kishk," "libábeh," and "ḥilbeh," which they send to the female relations and friends. The first of these consists of honey with a little clarified butter[1] and oil of sesame,[2] and a variety of aromatics and spices pounded together: roasted hazel-nuts are also added to it.[3] The kishk has been described in a former page.[4] The libábeh is composed of broken or crumbled bread, honey, clarified butter, and a little rose-water: the butter is first put into a saucepan over a fire; then, the broken bread; and next, the honey. The dish of ḥilbeh (or fenugreek) is prepared from the dry grain, boiled, and then sweetened with honey over the fire.

On the "Yóm es-Subooạ" (or Seventh Day) after the birth of a child, the female friends of its mother pay her a visit. In the families of the higher classes, 'Awálim are hired to sing in the ḥareem, or Áláteeyeh perform, or fiḳees recite a khatmeh, below. The mother, attended by the dáyeh, sits on the kursee el-wiládeh, in the hope that she may soon have occasion for it again; for her doing this is considered propitious. The child is brought, wrapped in a handsome shawl, or something costly; and, to accustom it to noise, that it may not be frightened afterwards by the music, and other sounds of mirth, one of the women takes a brass mortar,[5] and strikes it repeatedly with the pestle, as if pounding. After this, the child is put into a sieve, and shaken; it being supposed that this operation is beneficial to its stomach. Next, it is carried through all the apartments of the ḥareem, accompanied by several women or girls, each of whom bears a number

---

[1] "Semn."

[2] "Seereg."

[3] Some women add another ingredient; not when it is to be sent to friends, but for a particular purpose, which is, to make them fat: they broil and mash up a number of beetles in the butter, and then add the honey, &c. This has been alluded to in the chapter on the Domestic Life of the Women.

[4] In a note to the second paragraph of the preceding chapter.

[5] "Hón."

of wax candles, sometimes of various colours, cut in two, lighted, and stuck into small lumps of paste of ḥennà, upon a small round tray. At the same time, the dáyeh, or another female, sprinkles, upon the floor of each room, a mixture of salt and seed of the fennel-flower,[1] or salt alone, which has been placed during the preceding night at the infant's head; saying, as she does this, "The salt be in the eye of the person who doth not bless the Prophet;"[2] or, "The foul salt be in the eye of the envier."[3] This ceremony of the sprinkling of salt[4] is considered a preservative, for the child and mother, from the evil eye: and each person present should say, "O God, bless our lord Moḥammad!" The child, wrapped up, and placed on a fine mattress, which is sometimes laid on a silver tray, is shewn to each of the women present, who looks at its face, says, "O God, bless our lord Moḥammad! God give thee long life," &c., and usually puts an embroidered handkerchief, with a gold coin (if pretty or old, the more esteemed,) tied up in one of the corners, on the child's head, or by its side. This giving of handkerchiefs is considered as imposing a debt, to be repaid by the mother, if the donor should give her the same occasion; or as the discharge of a debt for a similar offering. The coins are generally used, for some years, to decorate the head-dress of the child. After these nuḳooṭ for the child, others are given for the dáyeh. During the night before the subooạ, a water-bottle full of water (a dóraḳ in the case of a boy, or a ḳulleh in that of a girl), with an embroidered handkerchief tied round the neck, is placed at the child's head, while it sleeps. This, with the water it contains, the dáyeh takes, and puts upon a tray, and presents to each of the women; who put their nuḳooṭ for her (merely money) into the tray.—In the evening, the husband generally entertains a party of his friends, in the manner usual on other occasions of private festivity.

During a certain period after childbirth (in most cases, among the people of Cairo, forty days, but differing according to circumstances, and according to the doctrines of the different sects), the mother is regarded as religiously impure.[5] The period here mentioned is called "Nifás." At the expiration of it, the woman goes to the bath.

The ceremonies and festivities attendant upon the *circumcision* of

---

[1] "Ḥabbeh sódà."

[2] "El-milḥ fee 'eyn ellee má yeṣallee 'a-n-nebee." "Yeṣallee" is for "yuṣallee; and "'a-n-nebee," for "'ala-n-nebee."

[3] "El-milḥ el-fásid fee 'eyn el-ḥásid."

[4] "Rashsh el-milḥ."

[5] In like manner, the Jewish law pronounces a woman unclean during forty days after the birth of a male child; but double that time after bearing a female child. See Leviticus, xii. 2, 4, 5.

a boy are the next that I shall describe.—In most cases, the boy about to be circumcised (who is called "muṭṭáhir") is paraded through the streets in the manner which has been related in a former chapter; that is, if his parents be of the middle or higher class of citizens: but most of the learned, people of religious professions, fiḳees, and some rich men, in Cairo, prefer performing a ceremony called "Ṣiráfeh," of which the following account will convey a sufficient notion.

The schoolfellows of the muṭṭáhir, all dressed in their best clothes, or in borrowed clothes if they have none of their own good enough, which is generally the case, repair, a little before noon, to one of the principal mosques, as that of the Ḥasaneyn, or the Azhar, or that of the seyyideh Zeyneb. Thither also go the men and the women and many of the female friends of the family of the muṭṭáhir, with the muṭṭáhir himself, and sometimes about six sháweeshes (or sergeants) of the Naḳeeb el-Ashráf. The barber who is to perform the operation also attends, with a servant bearing his "ḥeml" (or sign), which has been described in the account of the more common ceremonies of circumcision. All these persons, with some others who will presently be mentioned, having assembled in the mosque, wait there until after the noon-prayers, and then depart in procession through the streets to the house of the muṭṭáhir's parents. The first person in the procession is the barber's servant, with his ḥeml. He is sometimes followed by five or six fiḳees, chanting a lyric ode ("muweshshaḥ") in praise of the Prophet. Then follow the school-boys, two, three, or four abreast. The foremost of these boys, or half their number, chant, as they pass along,—"O nights of pleasure! O nights of joy!"—The other boys then take up the strain, adding,—"Pleasure and desire, with friends assembled!"—Then, again, the former,—"Bless, O our Lord, the Perspicuous Light."—Then, the latter, "Aḥmad,[1] the Elect, the chief of Apostles."—Thus the boys continue to chant the whole of the way. Behind them walk the male relations of the muṭṭáhir. These are followed by about six boys; three of them bearing each a silver scent-bottle ("ḳumḳum") full of rose-water or orange-flower-water, which they occasionally sprinkle on some of the spectators; and each of the others bearing a silver perfuming-vessel ("mibkharah") in which benzoin, frankincense, or some other odoriferous substance, is burning. With

---

[1] A name of the Arabian Prophet.

these boys walks a saḳḳà, bearing, on his back, a skin of water covered with an embroidered napkin: he gives water, now and then, in brass cups, to passengers in the street. Next follow three servants: one of these carries a silver pot of coffee, in a silver "'áz'ḳee" (or chafing-dish suspended by three chains): another bears a silver tray, with ten or eleven coffee-cups, and "ẓarfs" of silver: the third carries nothing: it is his office, when the procession passes by a well-dressed person (one sitting at a shop, for instance), to fill, and present to him, a cup of coffee; and the person thus honoured gives the servant something in return: half a piaster is considered amply sufficient. The sháweeshes occupy the next place in the order of the procession. Sometimes they are followed by another group of boys with ḳumḳums and mibkharahs. Next follows a boy bearing the writing tablet of the muṭṭáhir, hung to his neck by a handkerchief: it is ornamented for the occasion by the schoolmaster. Behind the boy who bears it walks the muṭṭáhir, between two others. He is dressed either as in the zeffeh before described (that is, in girls' clothes, with the exception of the turban, and decked with women's ornaments), or simply as a boy; and holds a folded embroidered handkerchief to his mouth. The women follow him, raising their shrill cries of joy (the "zaghárееṭ"); and one of them is constantly employed in sprinkling salt behind him, to prevent any ill effects from an evil eye, which, it is thought, some person may cast at the lad from envy. In this order and manner, the procession arrives at the house.—On halting before the door, the foremost of the schoolboys sing,—"Thou art a sun. Thou art a moon. Thou art a light above light."—The others add,—"O Moḥammad! O my friend! O thou with black eyes!"—They enter the house repeating this address to the Prophet; and repeat it again after entering. The young boys go up-stairs: the others remain below. The former, as they go up, repeat,—"O thou his paternal aunt! O thou his maternal aunt! Come: prepare his ṣiráfeh."—On entering the "ḳá'ah," or principal apartment of the ḥareem, a Kashmeer shawl is given them to hold: they hold it all round; and the ornamented writing-tablet is placed in the middle of it. The "'areef," or head boy of the school, who (together with the muṭṭáhir and the women) stands by while they do this, then recites what is termed "khuṭbet eṣ-ṣiráfeh:" each clause of this is chanted by him first, and then repeated by the other boys. It is in unmeasured rhyme; and to the following effect:—

"Praise be to God, the Mighty Creator,—the Sole, the Forgiver, the Conservator:—He knoweth the past and futurity,—and veileth things in obscurity.—He knoweth the tread of the black ant,—and its work when in darkness vigilant.—He formed and exalted heaven's vault,—and spread the earth o'er the ocean salt.—May He grant this boy long life and happiness,—to read the Ḳur-án with attentiveness;—to read the Ḳur-án, and history's pages,—the stories of ancient and modern ages.—This youth has learned to write and read,—to spell, and cast up accounts with speed:—his father, therefore, should not withhold—a reward of money, silver and gold.—Of my learning, O father, thou hast paid the price:—God give thee a place in Paradise:—and thou, my mother, my thanks receive—for thine anxious care of me, morn and eve:—God grant I may see thee in Paradise seated,—and by Maryam[1] and Zeyneb[2] and Fáṭimeh[3] greeted.—Our faḳeeh[4] has taught us the alphabet:—may he have every grateful epithet.—Our faḳeeh has taught us as far as 'The News:'[5]—may he never his present blessings lose.—Our faḳeeh has taught us as far as 'The Dominion:'—may he ever be blest with the world's good opinion.—Our faḳeeh has taught us as far as 'The Compassionate:'—may he ever enjoy rewards proportionate.—Our faḳeeh has taught us as far as 'Yá-Seen:'—may his days and years be ever serene.—Our faḳeeh has taught as far as 'The Cave:'—may he ever the blessings of Providence have.—Our faḳeeh has taught as far as 'The Cattle:'—may he ne'er be the subject of scandalous tattle.—Our faḳeeh has taught us as far as 'The Cow:'—may he ever be honoured, in future and now.—Our faḳeeh amply merits of you—a coat of green, and a turban too.—O ye surrounding virgin lasses!—I commend you to God's care by the eye-paint and the glasses.[6]—O ye married ladies here collected!—I pray, by the Chapter of 'The Ranks,'[7] that ye be protected.—O ye old women standing about!—ye ought to be beaten with old shoes, and turned out.—To old women, however, we should rather say,—Take the basin and ewer; wash and pray."

During the chanting of these absurd expressions, the women drop, upon the ornamented writing-tablet, their nuḳooṭ, which are after-

---

[1] The Virgin Mary.

[2] The daughter of the Imám 'Alee.

[3] The daughter of the Prophet.

[4] Vulg. "fiḳee."

[5] This and the following words distinguished by inverted commas are the titles of chapters of the Ḳur-án, which the boys, as I have mentioned on a former occasion, learn in the reverse order of their arrangement, after having learned the first chapter. The chapter of "The News" is the 78th: the others, afterwards named, are the 67th, 55th, 36th, 18th, 6th, and 2nd.

[6] The looking-glasses. This is said to amuse the ladies.

[7] The 37th chapter of the Ḳur-án.

wards collected in a handkerchief. The boys then go down, and give the nuḳooṭ to the fiḳee below.[1]—Here, the muṭṭáhir is now placed on a seat. The barber stands on one side of him, and the servant who holds the ḥeml on the other. The ḥeml is rested on the floor; and on the top of it is placed a cup, into which the guests put their nuḳooṭ for the barber.—The female visiters dine in the ḥareem, and then leave the house. The boys dine below, and go to their homes. The men also dine; and all of them, except those of the family, and the barber and his servant, take their leave. The barber then conducts the muṭṭáhir, with one or two of his male relations, to a private apartment, and there performs the operation; or sometimes this is done on the following day. About a week after, he takes the boy to the bath.

The next occasion of festivity in a family (if not the marriage of a son or daughter) is generally when a son is admitted a member of some body of tradesmen or artizans. On this occasion, a ceremony which I am about to describe is performed in certain cases, but not on admission into every trade: it is customary only among carpenters, turners, barbers, tailors, book-binders, and a few others. The young man having become an adept in the business of his intended trade, his father goes to the Sheykh of that trade, and signifies his wish that his son should be admitted a member. The Sheykh sends an officer, called the "Naḳeeb," to invite the masters of the trade, and sometimes a few friends of the candidate, to be present at the admission. The Naḳeeb, taking in his hand a bunch of sprigs of any green herb, or flowers, goes to each of these persons, hands to him a sprig or little piece of green,[2] or a flower, or leaf, and says, "For the Prophet, the Fát'ḥah:" that is "Repeat the Fát'ḥah for the Prophet." Both having done this together, the Naḳeeb adds, "On such a day and hour, come to such a house or place, and drink a cup of coffee." The guests thus invited meet (generally at the house of the father of the young man, but sometimes in the country), take coffee, and dine. After this, the Naḳeeb leads the young man before the Sheykh, states his qualifications, and then desires the persons present to recite the Fát'ḥah for the Prophet; which done, he girds the young man with a shawl over his outer coat, and ties a knot with the ends of this girdle. The Fát'ḥah is then recited again, generally for the seyyid El-

[1] What follows this describes the ceremonies which are performed both after the siráfeh and after the more common zeffeh, of which I have given an account in a former chapter.

[2] "'Ood niyáz.'

Bedawee, or some other great saint, and a second knot is tied. Then, a third time the Fát'ḥah is recited, and a bow is tied. The young man is thus completely admitted. He kisses the hand of the Sheykh, and that of each of his fellow tradesmen, and gives the Naḳeeb a small fee.—This ceremony is called "shedd el-weled" (the binding of the youth); and the person thus admitted is termed "meshdood," or bound.

There remain only to be described the ceremonies occasioned by a death. These will be the subject of a separate chapter, here following, and concluding my account of the manners and customs of the Muslims of Egypt.

أهم مصادر ومراجع الدراسة

أولا: المراجع العربية:

- أحمد أمين: زعماء الإصلاح فى العصر الحديث، القاهرة، النهضة المصرية ١٩٧١.
- ادوارد وليم لين:المصريون المحدثون-ترجمة عدلى طاهر نــور-القــاهرة، مطبعــة الرسالة ١٩٥٠
- استر تسيمرلى: حياتى فى مصر. مذكرات فتاة سويسرية عاشت فــى الإســكندرية. ترجمة محمد أبو رحمة، د.ت.
- أنيس منصور: فى صالون العقاد كانت لنا أيام، القاهرة، دار الشروق، ١٩٩٣.
- توفيق الحكيم: عصفور من الشرق، القاهرة، مكتبة الأسرة، ١٩٩٦.
- جلال أمين: ماذا حدث للمصريين، تطور المجتمع المصرى فى نصف قرن، القاهرة، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩.
- جمال الدين الرمادى: عبد العزيز البشرى، القاهرة، أعلام العرب ١٩٦٣.
- جيرار دى نرفال:رحلة إلى الشرق- ترجمة كوثر البحيرى، القــاهرة، دار الكاتــب العربى ١٩٦٦
- حافظ ابراهيم: ديوان حافظ ابراهيم، القاهرة، دار الكتب المصرية ١٩٣٧.
- خيرى شلبى: صحبة العشاق رواد الكلمة والنغم، القاهرة، مكتبة الأسرة، ١٩٩٦.
- سمير سرحان: على مقهى الحياة، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٨.
- سمير نعيم: أهل مصر، القاهرة، ١٩٩٣.
- شريف عفت: تاريخ أقل قبحا ١٩٤٢- ١٩٥٢ ، القــاهرة، دار المركــز المصــرى العربى، ٢٠٠٤.
- شوقى ضيف: مع العقاد، القاهرة، دار المعارف ١٩٦٤.
- طه حسين: أديب، القاهرة، مكتبة الأسرة، ١٩٩٨.

  مذكرات طه حسين، بيروت، الطبعة الأولى.
- عباس العقاد:- أنا ، القاهرة، دار الهلال.
- عبد الرحمن الكواكبى، الرحالة ك، القاهرة، نهضة مصر ١٩٨٦.

- عبد الرءوف ثابت: سلبيات وإيجابيات المجتمع المصرى، القاهرة ١٩٩٥.
- عبد الرحمن الرافعي: ثورة ١٩١٩ تاريخ مصر القومى ١٩١٤- ١٩٢١، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥٥.
- عبد العزيز البشرى: المختار ، جـ٢، القاهرة، ١٩٥٩.
- عبد المنعم الجميعى:

*تاريخ السينما المصرية، القاهرة، دار ابن خلدون.

*تطور الموسيقى والطرب فى مصر الحديثة،القاهرة، وزارة الثقافة ٢٠٠٥.

*الجامعة المصرية القديمة نشأتها ودورها فى المجتمع.

*عبد الله النديم ودوره فى الحركة السياسية والاجتماعية،القاهرة، دار الكتاب الجامعى، ١٩٨٠

- عبد المنعم شميس: قهاوى الأدب والفن فى القاهرة، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩١.
- على مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة، جـ٧، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧.
- فتحى رضوان: عصر ورجال، جـ١، القاهرة، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣.
- فتحى خليل: سلامة موسى وعصر القلق، القاهرة، د.ت.
- قاسم أمين: المصريون، القاهرة، دار الهلال، ١٩٩٥.
- قطاكى الياس عطارة: تاريخ تكوين الصحف المصرية، الاسكندرية، مطبعة التقدم ١٩٢٨.
- كامل زهيرى: مائة امرأة وامرأة، القاهرة، مكتبة الأسرة، د.ت.
- كمال الملاخ: طه حسين قاهر الظلام، القاهرة، دار الكتاب الجديد ١٩٧٢.
- محمد جبريل: مصر فى قصص كتابها المعاصرين، القاهرة، الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٢.
- محمد سيد كيلانى: فى ربوع الأزبكية، القاهرة، دار العرب، ١٩٥٨.
- محمد عبد الله عنان: ثلثا قرن من الزمان، القاهرة، دار الهلال، ١٩٨٨.
- مصر الإسلامية وتاريخ الخطط المصرية، القاهرة، دار الكتب المصرية، ١٩٣١
- محمد عبد الواحد: حرائق الكلام فى مقاهى القاهرة، القاهرة، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤.
- محمد عمر: حاضر المصريين أو سر تأخرهم، القاهرة، مطبعة المقتطف، ١٩٠٢.

- محمد كامل جمعه: حافظ ابراهيم، القاهرة، ١٩٥٨.
- محمد نصر: أدباء فى صور صحيفة. القاهرة، الدار المصرية للتـــأليف والترجمـــة، ١٩٦٥.
- نجيب محفوظ: بين القصرين، القاهرة، مكتبة مصر، د.ت
- نعمان عاشور: مع الرواد، القاهرة، مكتبة الأسرة، ١٩٩٦.
- هدى شعراوى: مذكرات رائدة المرأة العربية الحديثة، القاهرة، كتاب الهلال ســبتمبر ١٩٨١.

ثانيا: المراجع الأجنبية:

- Lane , Edward William: An Account of the Manners and customs of Modern Egyptians, Cairo, The American University, 2003.

ثالثا: الدوريات:

- الأهرام عدد ٦ يناير ١٨٩٦.
- التنكيت والتبكيت: العدد الأول يونيو ١٨٨١.
- الجريدة فى اكتوبر ١٩١١
- الرسالة اغسطس ١٩٣٧، فبراير ومايو ١٩٣٩.
- القاهرة فى يونيو ٢٠٠٤.
- الهلال ١٩٦٧.

فهرســـت